

أبو العباس القلقشندى

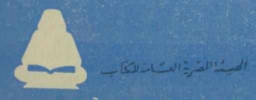
وكتابه "صبح الأعشى"

تأليف

نخبة من الأساتذة

تقديم : الدكتور أحمد عزت عبد الكريم

رئيس الجمعية المصرية للدراسات التاريخية




أبو العباس القلقشندي
وكتابه "صبح الأعشى"

جمهورية مصر العربية

وزارة الثقافة

المكتبة العربية

– ١٣٨ –

تأليف (٩٣)

أدب (٦٨)

القاهرة
١٣٩٣ هـ – ١٩٧٣ م

إهـــــداء2005
أ/إبراهيم منصور غنيم
القاهرة

أبو العباس القلقشندي

وكتابه "صبح الأعشى"

تأليف

نخبة من الأساتذة

تقديم : الدكتور أحمد عزت عبد الكريم

رئيس الجمعية المصرية للدراسات التاريخية



الهيئة المصرية العامة للكتاب

فهـــــرس

الموضوع	الصفحة
أبو العباس القلقشندى وكتابه « صـــبح الأعشى » .. .. تقديم الدكتور أحمد عزت عبد الكريم	٧
أبو العباس القلقشندى وكتابه صبح الأعشى .. .. بقلم الأستاذ محمد عبد الله عنان	١١
كتاب «صبح الأعشى» مصدر لدراسة تاريخ مصر فى العصور الوسطى بقلم الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور	٢٣
فن الكتابة عند القلقشندى .. .. بقلم الدكتور جمال محرز	٧١
ديوان الانشاء ـ نشـأته وتطوره .. .. بقلم الدكتور حسن حبشى	٨١
الجانب الأثرى فى كتاب « صـــبح الأعشى » .. .. بقلم الدكتور أحمد دراج	٩٧
وثائق القلقشندى فى « صبح الأعشى » .. .. بقلم الدكتور عبد القادر أحمد طليمات	١١٧
علاقات مصر بالممالك التجارية الايطالية فى ضوء وثائق « صـــبح الأعشى » .. .. بقلم الدكتور جوزيف نسيم يوسف	١٤٥
نظرة جغرافى فى « صـــبح الأعشى » .. .. بقلم الدكتور محمد محمود الصياد	٢٠١
الجانب الأدبى فى « صـــبح الأعشى » .. .. بقلم الدكتور مصطفى الشعكة	٢١٥

تقديم

بقلم: الدكتور أحمد عزت عبد الكريم

رئيس الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

تحرص الجمعية المصرية للدراسات التاريخية على أن تنهض بواجبها كاملا فى خدمة التاريخ القومى للأمة العربية والعمل على إحياء التراث التاريخى لهذه الأمة ، وإبراز أهمية أعلام العرب ومفكريهم ، وفضلهم على الحضارة الإنسانية بوجه عام .

وتحقيقا لهذه الرسالة الضخمة لا تترك الجمعية المصرية للدراسات التاريخية مناسبة قومية عربية أو ذكرى علم من أعلام الفكر العربى إلا وتحرص على إحيائها بطريقة علمية عن طريق الندوات أو المحاضرات أو الأبحاث التى يشترك فيها صفوة من علماء الأمة العربية ومؤرخيها من أساتذة الجامعات وغيرهم .

وقد اهتمت الجمعية — منذ عامين بإحياء ذكرى أعظم مؤرخى مصر فى العصور الوسطى وهو « تقى الدين أحمد المقريزى » فأقامت بالاشتراك مع المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية على مدى سبعة أيام ندوة علمية شارك فيها فريق من كبار الأساتذة فألقوا عدة محاضرات تناولت حياة المؤرخ الكبير ومنهجه وكتبه والعصر الذى عاش فيه ، ثم جمعت هذه المحاضرات فى كتاب صدر فى المكتبة العربية منذ شهور .

وفى اليوم الأول من إبريل سنة ١٩٦٨ أقامت الجمعية ندوة

لدراسة علم آخر من أعلام المؤرخين المصريين فى العصور الوسطى وهو : « أبو العباس القلقشندى وكتابه صبح الأعشى » بمناسبة مرور ٥٥٠ عاما على وفاته :

وهو أحمد بن على بن أحمد بن عبد الله المنسوب إلى بلدة قلقشندة — أو كما ذكرها ياقوت قرقشندة — من قرى القليوبية بمصر : فهـو مصرى صميم ، ولد فى صميم الريف المصرى : وكما أنه عريق فى مصريته ، فهو كذلك أصيل فى عروبته ، إذ يرجع أصـله إلى بنى بدر بن فزارة من قيس عيـلان ، وهو نسب لم ينكره عليه أحد ممن كتبوا عنه . وقد وفدت هذه القبيلة إلى مصر مع الفاتحين العرب لها لأول مرة ؛ واستقر بها المقام ، ثم أخذت بطونها تتوافد على مصر جيلا بعد جيل ، واتصلت بالأسر المصرية مصاهرة واختلطت بها :

وقد ولد القلقشندى سنة ٧٥٦ هـ (١٣٥٥ م) وتوفى سنة ٨٢١ هـ (١٤١٨ م) فيكون قد مرت على وفاته الآن ٥٥٠ سنة ميلادية .

وقد نزح القلقشندى فى شبابه إلى الاسكندرية طلبا للعلم ، وهناك تتلمذ على كبار علماء عصره ، وأجاز له شيخ العلماء سراج الدين ابن الملقن بالفتيا والتدريس على مذهب الإمام الشافعى سنة ٧٧٨ هـ : وفى تلك الإجازة وصف الأستاذ تلميذه بأنه « ممن شب ونشأ فى طلب العلم والفضيلة ، وتخلق بالأخلاق المرضية الجميلة الجليلة ، وصحب السادة من المشايخ والفقهاء ، والقـادة من الأكابر والفضلاء ، واشتغل عليهم بالعلم الشريف اشتغالا يرضى . . . »

على أن نقطة الانطلاق فى حياة القلقشندى ، كانت التحاقه بديوان الإنشاء سنة ٧٩١ هـ ، والظاهر أنه لم يترك هذا الديوان حتى وفاته سنة ٨٢١ هـ زمن السلطان المؤيد شيخ المحمودى . وترجع أهمية ديوان الإنشاء فى ذلك العصر إلى أنه كان بمثابة وزارة الخارجية ، فهو الديوان الكبير الذى ترد إليه جميع المكاتبات إلى السلطان من

داخل دولته وخارجها ، وتصدر عنه جميع المكاتبات على لسان السلطان إلى ملـوك الدول وحكامها الذين ربطتهم بسلطنة المماليك علاقات ودية أو عدائية . ومعنى هذا أن القلقشندى بعمله فى ديوان الإنشاء كان أمينا على أسرار الدولة ، مطلعا على خفايا الأرشيف الرسمى الجامع لأسرارها ، فأتيحت له — عند وضع كتابه « صبح الأعشى فى صناعة الإنشا » — فرصة ذهبية لم تتح لغيره من علماء عصر المماليك ومؤرخيه .

والواقع أن القلقشندى كان مؤلفا نشيطا ، كتب كثيرا من المؤلفات الأخرى ، منها كتاب « ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر » وهو مختصر لكتاب صبح الأعشى ، ولم يطبع منه سوى الجزء الأول سنة ١٣٢٤ هـ ؛ وكتاب « قلائد الجمان فى قبائل العربان » ؛ وكتاب « نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب » ؛ وكتاب « الغيوث الهوامع فى شرح جامع المختصرات ومختصرات الجوامع » ، وكتاب « مآثر الإنافة فى رسوم الخلافة » . . . وغيرها من عديد الكتب والمؤلفات التى لم يطبع منها سوى القليل .

على أن أهم مؤلفات القلقشندى جميعا هو كتاب صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، وهو الموسوعة الضخمة التى طبعت فى أربعة عشر جزءا ، والتى تعتبر سجلا ضخما للحياة السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية فى مصر طوال العصور الوسطى . ذلك أن القلقشندى بما توصل إليه من علم ومعرفة ، وبما كان تحت يده من وثائق ورسائل ، أمكنه أن يقدم لنا فى هذه الموسوعة قدرا ضخما من المعلومات المتنوعة التى لا نجد لها شبيها فى أى مرجع معاصر .

وإذا كانت هذه هى مكانة القلقشندى وكتابه صبح الأعشى ، فمن حقه اليوم — وقد مضى على وفاته ٥٥٠ عاما ميلاديا — أن يحظى بتكريم العلماء والمفكرين فى الوطن العربى بوجه عام ومصر بوجه خاص :

وإنه لمما يشرف الجمعية المصرية للدراسات التاريخية أن تقيم بالاشتراك مع المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية هذه الندوة تكريما لذكرى القلقشندى ، وقد أسهم فى هذه الندوة مجموعة الأساتذة المتخصصين الذين حاضروا فى حياة المؤرخ الكبير وكتبه وعصره كما تقدم بعض الأساتذة بأبحاث أخرى ، ويتضمن هذا الكتاب الذى يسرنا أن نقدمه نصوص المحاضرات التى ألقيت والأبحاث التى قدمت . ونحن إذ نشكر حضراتهم لما بذلوه من جهد لمساعدة الجمعية فى تحقيق رسالتها . لايفوتنا أن نذكر بالشكر والامتنان والتقدير المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية لمساهمته الفعالة فى إنجاح هذه الندوة عن طريق مساعدته الأدبية والمادية ، فضلا عن قيامه بطبع هذا الكتاب وفاء لذكرى علم كبير من أعلام التاريخ العربى .

والله ولى التوفيق .

دكتــور

احمد عزت عبد الكريم

١

أبو العباس القلقشندى
وكتابه "صبح الأعشى"

بقلم: الأستاذ محمد عبد الله عنان

بلغت الحياة الفكرية والأدبية فى مصر الإسلامية ، ذروة النضج والازدهار فى القرنين الثامن والتاسع الهجريين ، ففى هذين القرنين ، تحتشد أكبر جمهرة من العلماء والكتاب من كل فن وضرب ، وفيهما تغص القاهرة بأكابر العلماء الوافدين عليهـــا من المشرق والمغرب ، تجتذبهم نهضتها الفكرية ، وأزهرها التالد ، وبلاطها المستنير ؛ حامى الآداب والعلوم . . ويمتاز القرن الثامن فى مصر ، بظاهرة فكرية خاصة ، هى أنه عصر الموسوعات العلمية والأدبية الـــكبرى : فقد ظهرت فيه طائفة من العلماء ، الذين توفروا على جمع أشتات العلوم والفنون المعروفة يومئذ ، فى مؤلفات جامعة لم تعرفها الآداب العربية من قبل ، وكتبت فيه عدة موسوعات جليلة ، ما زالت تتبوأ مقامها الفذ ، فى تراث الأدب العربى ، وأقطاب هذه الحركة ، ثلاثة من أكابر العلماء والكتاب المصريين ؛ هم : أحمد بن عبد الوهاب النويرى ، المتوفى سنة ٧٣٣ هـ (١٣٣٣م) صاحب كتاب « نهاية الأرب فى فنون الأدب » ، وأحمد بن فضل الله العمرى ، المتوفى سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٨ م) ، صاحب كتاب « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » ، وأبو العباس القلقشندى المتوفى سنة ٨٢١ هـ (١٤١٨ م) صاحب كتاب « صبح الأعشى فى كتابة الإنشا » .

وإنه من التجاوز والتواضع ، أن نسمى هذه المؤلفات المدهشة كتباً ، فهى فى الواقع موسوعات ضخمة شاسعة ، لا تدل أسماؤها على حقيقة محتوياتها ، ومن الصعب أن نصف مؤلفيهم بأنهم كتاب أو أدباء من نوع معين ، فهم فى الواقع علماء موسوعات (إنسيكلوبيديون) ، امتازوا

بالتمكن والتوسع فى كثير من علوم عصرهم ، واستطاعوا بكثير من الجهد والجلد ، أن يجمعوا أشتاتها فى أسفار منظمة متصلة ، وأن يجعلوا من هذا النوع من الكتابة ، فناً خاصاً ، لايستطيع أن يضطلع به سوى القليل من العلماء أو الكتاب ، الذين يتمتعون بمواهب خاصة وقد وجدت فكرة الموسوعات العامة فى الأدب العربى قبل القرن الثامن ، ولكنها لم تصل من قبل إلى مثل هذا التوسع فى النوع ، وهذا التبسط فى المادة . ويكفى أن نتصفح أثراً من هذه الآثار الجامعة لندرك أى جهود مدهشة ، وأى مواهب وكفايات ممتازة ، اتحدت فى شخص بمفرده ، لتخرج هذا الأثر الضخم ، الذى تشعبت مناحيه وموضوعاته بصورة مدهشة ، وبلغت مع ذلك حداً بعيدا من الاتصال والتنسيق ؛ يجعل منها وحدة متماسكة وثيقة العرى .

* * *

وسنخص بالحديث فى هذا البحث ، كتاب « صبح الأعشى » أحد هذه الآثار الجامعة ، ويحسن بنا أن نبدأ بالتعريف بصاحب هذه الموسوعة. ففى التعريف به ، ما يفسر توافره على هذا النوع من التأليف الجامع ، ومن الأسف أن كتب التراجم لم تقدم لنا الكثير عن القلقشندى ، وقد تحدث عنه بمنتهى الإيجاز صاحب النجوم الزاهرة ، وكذلك العماد الحنبلى فى شذرات الذهب ، كل منهما فى وفيات سنة ٨٢١ هـ ، ولم يذكرا لنا تاريخ مولده ، غير أنهما يقولان إنه توفى عن خمسة وستين عاماً ، أعنى أنه قد ولد وفقا لذلك فى سنة ٧٥٦ هـ (١٣٥٥ م) . وهذا مايذكره السخاوى صراحة فى «الضوء اللامع »، ويزيد عليه بعض تفاصيل يسيرة .

وهو القاضى شهاب الدين أحمد بن على بن أحمد القلقشندى ، ولد بقلقشندة إحدى قرى قليوب ، فى العام السالف الذكر ، ودرس بالقاهرة والإسكندرية على أكابر شيوخ العصر ، وتخصص فى الأدب والفقه الشافعى ، وبرع بالأخص فى علوم اللغة والبلاغة والإنشاء ، وتولى بعض الوظائف الإدارية مدى حين . بيد أن براعته فى الكتابة والإنشاء

لفتت إليه أنظار رجال البلاط ، ومهدت إليه سبل الاضطلاع بالمنصب الذى تؤهله له مواهبه الأدبية والفنية ، وهو العمل فى ديوان الإنشاء ، فالتحق بخدمة هذا الديوان حسبما يقول لنا فى مقدمته فى سنة ٧٩١ هـ ، فى عهد السلطان الظاهر برقوق . . وقد كانت لديوان الإنشاء فى هذا العصر أهمية خاصة ، وكان لا يعمل فيه سوى أقطاب النثر والبلاغة ، الذين تؤهلهم معارفهم الواسعة للوقوف على شئون الحكم والسياسة الداخلية والخارجية ، وسير العلائق الدبلوماسية بين مصر وباقى الأمم ، ولديوان الإنشاء المصرى ، منذ أيام الدولة الفاطمية تاريخ حافل ، وقد لبث عصورا مدرسة أدبية زاهرة ، يجتمع فيها أقطاب الكتابة ، وأئمة النثر والبلاغة . وكان قد تولى رياسته قبله ذلك بنصف قرن كاتب ممتاز ، وعلامة جغرافى وسياسى بارع ، هو أحمد بن فضل الله العمرى صاحب « مسالك الأبصار » ووضع عن نظم الكتابة والإنشاء الرسمية ، كتابه الشهير « التعريف بالمصطلح الشريف » وهو ما يقابل فى اصطلاح العصر ، مراسيم البروتوكول والمراسلات الدبلوماسية ، فكان ، حسبما يقول لنا القلقشندى فى مقدمته ، هو أنفس الكتب المصنفة فى هذا الباب ، وكان بالرغم من إيجازه ، ونطاقه المحدود ، نواة للموسوعة الشاسعة التى وضعها القلقشندى فى نفس الموضوع ، ولبث القلقشندى أعواما يعمل فى ديوان الإنشاء ، ولعله استمر فيه حتى آخر عهد الظاهر برقوق (أعنى إلى سنة ٨٠١ هـ) أو بعد ذلك بقليل ، وفى تلك الفترة خطرت له فكرة وضع مؤلفه الكبير ، أعنى « صبح الأعشى » . .

وقد بدأ القلقشندى فوضع فى هذا الباب رسالة موجزة ، يبين فيها ما يحتاج إليه كاتب الإنشاء من المواد ، وما تقتضيه من أصول ورسوم وأساليب ، فوقعت موقعا حسنا ، وأشير إليه — حسبما يقول لنا فى مقدمته — والظاهر أن الإشارة كانت من مصدر عال ، وربما كانت من السلطان نفسه ، إذ يقول لنا : إنه قد امتثل الأمر « بالسمع

والطاعة » — أشير إليه أن يبسط الكلام فى هذا الموضوع ، وأن يلحق رسالته بمؤلف جامع فى أصوله وفنونه ، فصدع القلقشندى بالأمر ، واسترشد بما كتبه العمرى من قبل فى « المصطلح الشريف » وقضى أعواما طويلة فى البحث والتنقيب ، واستخراج الوثائق والكتب والمراسلات الخلافية والسلطانية ، وغيرها من مختلف أصناف المكاتبات الرسمية والدبلوماسية ، حتى اجتمعت لديه من ذلك مادة غزيرة لم يسبق أن اجتمعت من قبل لكاتب فى موضوعه ، ورتب مؤلفه على مقدمة وعشر مقالات ، . وإنا لندهش حقا ، إذا علمنا أن هذه المقدمة ، وهذه المقالات العشر تملأ أربعة عشر مجلداً ضخما ، وهى محتويات الموسوعة العظيمة ، التى سمّاها القلقشندى فى مقدمته بكتاب « صبح الأعشى فى كتابة الإنشاء » وقد يسمى أحيانا « صبح الأعشى فى فنون الإنشاء » أو « صبح الأعشى فى معرفة الإنشاء » أو « صبح الأعشى فى قوانين الإنشاء » ، وذلك حسبما يسميه السخاوى فى الضوء اللامع .

والظاهر أن القلقشندى قد بدأ كتابة مؤلفه الجامع حوالى سنة ٨٠٥ هـ إذا قدرنا أنه استغرق فى وضعه عشرة أعوام ، فهو يقول لنا فى مقدمته : إنه فرغ من تأليفه فى شوال سنة ٨١٤ هـ .

ومن الصعب علينا أن نتقصى سائر المصادر التى اعتمد عليها القلقشندى فى وضع موسوعته . ومن الواضح ، فيما يتعلق بمجموعة الوثائق والمراسلات الضخمة التى يوردها لنا فى كتابه ، أنه اعتمد بنوع خاص على المحفوظات المصرية ، التى كانت تغص فى عصره بمختلف الوثائق والمراسلات السلطانية والدبلوماسية ، التى تكدست فى ديوان الإنشاء خلال العصور المتعاقبة . بيد أن القلقشندى يذكر لنا إلى جانب ذلك ، خلال مؤلفه ، بعض الكتب التى رجع إليها ، واقتبس منها فى الناحية الفنية من مؤلفه . ومن ذلك كتابى : « المصطلح الشريف » ، « والتثقيف » لابن فضل الله العمرى ، وكتاب « مواد البيان » لعلى بن خلف من كتاب الدولة الفاطمية ، وكتاب « معالم الكتابة » لابن شيت ، وكتاب « الأوائل » لأبى هلال العسكرى ،

وكتاب « الأموال » لأبى عبيد ، و « ذخيرة الكتاب » لابن حاجب النعمان ، و « صناعة الكتاب » لأبى جعفر النحاس ، وكتابين آخرين لم يذكر لنا مؤلفيهما ، هما كتاب «حسن التوسل» ، وكتاب « الدر الملتقط »

وسوف نحاول ، أن نستعرض محتويات صبح الأعشى فى شىء من الإيجاز ؛ لأن العرض المفصل ، يقتضى مجالا شاسعا لا يتيسر لنا هنا .

ففى المقدمة ، يتناول القلقشندى الحديث عن المسائل والتعريفات التمهيدية ، كالتنويه بفضل القلم والكتابة ، ومعنى الإنشاء ، وتطوره خلال العصور ، وترجيح النثر على النظم ، وصفات الكتاب وآدابهم ، وتاريخ ديوان الإنشاء وأصله فى الإسلام ، ثم انتظامه بعد ذلك فى مختلف الدول الإسلامية ، وقوانين الديوان ومرتبة صاحبه ، ثم التعريف بوظائف الديوان فى مصر الإسلامية ، واختصاص كل منها فى مختلف العصور والدول ، وهذه المقدمة البديعة تصلح أن تكون وحدها مؤلفاً مستقلا :

وفى المقالة الأولى ، يحدثنا المؤلف عما يجب أن يستوعبه الكاتب من مواد الإنشاء ، والمعارف اللغوية والأدبية ، وأحوال الأمم والأحكام السلطانية ، لكى يستطيع أن يؤدى مهمته فى وضع الوثائق ، والمراسلات السياسية والإدارية على الوجه المرغوب ، وما يحتاج إليه الكاتب من أنواع الأقلام والورق والحبر وغيرها ، ويتبع ذلك بنبذة شائقة فى الخط العربى وتاريخه .

وتتناول المقالة الثانية الحديث عن المسالك والممالك ، وهى استعراض جغرافى ونظامى للدول الإسلامية منذ ظهور الإسلام . وفيه تفصيل خاص لشئون الديار المصرية والشامية التى تتبعها ، وما يحيط بها أو يجاورها من الأمم الأخرى ، إسلامية وغيرها :

وفى المقالة الثالثة تفصيل واف ، لترتيب المكاتبات وما يناسب أنواعها من الأقلام وأحجام الورق قديما وحديثا ، وأنواع المراسم ومصادرها ، وأقلام الترجمة واختصاصها ، وفى فواتح الرسائل

وخواتمها ، مع تفصيل خاص لما يتعلق بذلك كله فى ديوان الإنشاء المصرى ، وهذه مزية من أجل مزايا الكتاب ، فإذا كان المؤلف يتحدث بصفة عامة عما يتعلق بموضوعه ، فى مختلف الدول الإسلامية ، والعصور المختلفة ، فإنه يخص مصر دائما بالنصيب الأوفى من الشرح والبيان .

وأما المقالة الرابعة فإنها حسبما يبدو من محتوياتها وحجمها ، أهم مقالات الكتاب وأضخمها ، ويستهلها المؤلف بأن يقدم لنا فهرسا مطولا لألقاب الملوك وأرباب السيوف والعلماء والكتاب والقضاة ، مرتبة على حروف المعجم ، وقد وردت به شروح لسائر الصفات والألقاب التى نراها مدونة فى مختلف الرسائل ، الخلافية والسلطانية والوزارية ، والموجهة إلى أكابر رجال الدولة وأقطاب العلم والأدب ، ومن ذلك ألقاب الخلفاء وولاة العهد والألقاب الملوكية والسلطانية ، وأرباب السيوف والعلماء ، وأهل الصلاح ومشايخ الصوفية ، ومن ذلك أيضا ألقاب أكابر النصارى من البطارقة والملوك والملكات .

ثم يشرح لنا أساليب الكتابة ، من استفتاح ومقدمات ودعاءات وصلوات وغيرها مما اصطلح عليه .

ومن أهم فصول هذه المقالة ، فصل يعالج فيه القلقشندى مصطلحات المكاتبات الدائرة بين ملوك أهل الشرق والغرب من جهة ، وكتاب الديار المصرية فى مختلف العصور ، منذ صدر الإسلام إلى عصره ، وهو الفصل الذى يفتتحه بذكر الكتب الصادرة من النبى العربى ، إلى زعماء الجزيرة وغيرهم من أهل الكفر مثل كسرى وقيصر والنجاشى .

ويلى ذلك استعراض للمكاتبات الصادرة من الملوك إلى الخلفاء ، ويقدم إلينا القلقشندى منها نماذج ، ومن ذلك رسالة صادرة من السلطان الملك الناصر صلاح الدين إلى الخليفة العباسى الناصر لدين الله ، بفتح بيت المقدس ، وفيها ينعت نفسه بالخادم والمملوك .

ويعنى القلقشندى عناية خاصة بالكتب الصادرة عن ملوك الديار

المصرية ، ويورد لنا الكثير منها - من ذلك ما هو موجه إلى نواب السلطنة ، وإلى العمال والقضاة ، ورجال الدولة ، فى مصر والشام .

ومنها ما هو موجه إلى ملوك التتار وإيران وأرمينية وأزربيجان وأرزن وما وراء النهر .

وإلى ملوك المغرب فى تونس وبجاية وقسنطينة وتلمسان والمغرب الأوسط والمغرب الأقصى .

وإلى ملوك السودان والبرنو ، وملوك الروم والترك العثمانيين .

ثم المكاتبات الصادرة من ملوك الديار المصرية إلى ملوك الكفر من الروم والفرنج والحبشة ، وإلى ملوك الغرب من جزيرة الأندلس ، والأرض الكبيرة ، (أى فرنسا) وقشتالة ولشبونة وأراجون ونبره .

ثم إلى البابا وقيصر قسطنطينية وحكام جنوة مثل البودسطا والكبطان ، ثم إلى دوح البندقية .

وأخيرا المكاتبات الصادرة إلى ملك منغراد (مونغراتو) وإلى الملكة جوانا ملكة نابل .

ويعنى القلقشندى من جهة أخرى ، بالمكاتبات الواردة إلى البلاط المصرى ، ومن ذلك المكاتبات الواردة على الأبواب السلطانية من أكابر رجال الدولة وأهل المملكة ، ثم الكتب الواردة من أهل الشرق من القانات العظام والملوك والحكام وولاة العهد ، والكتب الواردة من الغرب ، من المرابطين والموحدين ، ثم من ملوك بنى مرين وبنى عبد الواد ، والكتب الواردة من السودان ، من مالى وصاحب البرنو (نيجيريا) ، والكتب الواردة من ملوك الروم ، من قسطنطينية وبلاد الكرج وغيرها ، وأخيرا الكتب الواردة من ملوك الأندلس النصارى ، ومن الجهات الشمالية مثل البندقية وغيرها .

ويقدم إلينا القلقشندى نماذج من معظم المكاتبات المذكورة سواء

الصادرة منها من البلاط المصرى ، أو الواردة عليه ، ومن ذلك نماذج فريدة ، مما ورد على ملوك مصر من مختلف الملوك النصارى ، وفى مختلف العصور :

وتتناول المقالة الخامسة ، مسألة الولايات ، وطبقاتها من الخلافة والسلطنة ، وولايات أرباب السيوف وأرباب الأقلام ، ثم الألقاب من خلافية ومملوكية ، والألقاب الصادرة إلى ذوى الولايات المختلفة ، ثم البيعات ، وما يكتب فيها بالنسبة للخلفاء والملوك . ثم العهود ، وأنواعها ، من خلافية ، وملوكية ، ولأولياء العهد ، وغيرها . وهنا يقدم إلينا القلقشندى أيضا نماذج من مختلف المراسيم والعهود الصادرة بما تقدم ، وفى مختلف العصور .

وتشغل المقالتان الرابعة والخامسه من صبح الأعشى نحو ثلاثة مجلدات من منتصف المجلد السادس إلى أواخر المجلد الثامن . وفى رأينا أن هذا القسم ، هو أهم أقسام الكتاب وأنفسها . فهو يشتمل على مئات الوثائق والنصوص الرسمية والدبلوماسية ، ويلقى أعظم الضياء على تاريخ مصر النظامى والإدارى فى عصور الخلفاء والسلاطين ، وعلى السياسة الخارجية المصرية ، وعلائق مصر بالأمم الإسلامية والنصرانية فى تلك العصور ، وهى مادة نفيسة من الوثائق والمحفوظات الجليلة التى لا يمكن أن نظفر بها فى مؤلف آخر ، وإن كان العمرى قد أورد فى « المصطلح الشريف » شيئا منها :

وفى المقالة السادسة يتحدث المؤلف عن الوصايا الدينية والمسامحات وتصاريح الخدمة السلطانية (الطرخانيات) ، وعن التواريخ ومقابلاتها ، ويتحدث فى السابعة عن الإقطاعات وأصلها ، ونشأتها ، وأحكامها ، وأنواعها ، ويقدم إلينا نماذج من المراسيم الصادرة بها فى مختلف الدول والعصور : ويتحدث فى المقالة الثامنة عن الإيمان وأنواعها منذ الجاهلية ، وفى عصور الإسلام والإيمان الملوكية والأميرية فى الدول الإسلامية وغيرها : وفى التاسعة يحدثنا عن عهود الأمان وعقدها لأهل الإسلام والكفر ، وما يكتب منها لأهل الذمة ، ثم الهدن وأنواعها وصيغها : وعقود الصلح ونماذجها : وفى المقالة العاشرة والأخيرة ، يعرض القلقشندى نماذج مختلفة

من الرسائل الملوكية فى المديح والفخر والصيد ، ثم يحدثنا عما يتعلق بديوان الإنشاء فى غير شئون الكتابة ، مثل البريد وتاريخه فى مصر والشام ، وهو فصل بديع جامع ، ثم الحمام الزاجل وأبراجه ومطاراته ، ثم المناور والمحرقات التى كانت تستعمل فى استطلاع حركات العدو ، وهذا الفصل هو خاتمة الكتاب .

هذا هو ملخص موجز لمحتويات (صبح الأعشى) . وفى مواد الكتاب وفى تنظيمه وروحه وأسلوبه ، ما يشهد لمؤلفه برفيع فنه ، وقوة بيانه ، وغزارة علمه ، وواسع ثقافته .

وقد عنى القلقشندى بنواح أخرى من التاريخ والأدب ، فوضع كتابا فى أنساب العرب عنوانه (نهاية الأرب فى معرفة قبائل العرب) ، وتوجد منه نسخة خطية فى برلين ، يستفاد منها أنه كتب فى سنة ٨١٢ هـ ؛ وكتابا آخر فى الأنساب أيضا عنوانه (قلائد الجمان فى قبائل العربان). ووضع مختصرا لصبح الأعشى عنوانه (ضوء الصبح المسفر ، وجنى الدوح المثمر) . ووضع كتابا فى الفقه الشافعى عنوانه (الغيوث الهوامع فى شرح جامع المختصرات ومختصرات الجوامع) . وأنشأ القلقشندى كثيرا من النظم الجيد . والظاهر أنه قضى أعوامه الأخيرة فى عزلة ، بعيدا عن الأعمال والوظائف الرسمية ، ولم يتول بعد ديوان الإنشاء منصباً آخر ، بيد أنه ظل كما يحدثنا صاحب شذرات الذهب ، محتفظا بمكانته الرفيعة فى البلاط وفى الدولة ، وفى الدوائر العلمية .

وقد سبقنا البحث الغربى كعادته ، إلى العناية بهذا الأثر النفيس ، فترجمت منه إلى الفرنسية مجموعة هامة من الوثائق الدبلوماسية التى تبودلت بين مصر والدول الإفرنجية ، وترجمت منه مختارات أخرى إلى الفرنسية والألمانية . وكان لدار الكتب المصرية فضل إخراجه كاملا فى أربعة عشر مجلدا ، وذلك ما بين سنتى ١٩٠٣ و ١٩١٩ . بيد أنه أخرج مع الأسف خلوا من فهرس حديث شامل ، يدل على نفائسه ودقائقه ، ويوفر على الباحث مشقة التنقيب المضنى .

٢

كتاب "صبح الأعشى"

مصدر لدراسة تاريخ مصر في العصور الوسطى

بقلم: الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور

امتاز عصر سلاطين المماليك في مصر والشام بنشاط الحركة العلمية ، وهى الحركة التى ظهرت أتم ماتكون وضوحا فى كثرة المؤلفات والتصانيف التى ترجع إلى ذلك العصر بالذات . فما من فن من فنون المعرفة أو لون من ألوان الثقافة إلا وطرقه علماء ذلك العصر ، الأمر الذى يشهد عليه التراث الضخم الذى خلفه لنا عصر سلاطين المماليك ، والذى لم ينشر منه سوى القليل ، فى حين ما زال غالبيته مخطوطا ، محفوظاً فى دور الكتب الكبرى فى العالم ، مثل دار الكتب المصرية بالقاهرة ، والمكتبة الأهلية بباريس ؛ والمتحف البريطانى بلندن ، ثم مكتبات تركيا وعلى رأسها أحمد الثالث وكوبرولو ونور عثمانية والسليمانية وأسعد أفندى وحكيم أغلو وبايزيد ، وغيرها من المكتبات الحافلة بالمخطوطات النادرة التى ترجع إلى عصر المماليك ، والتى تنتظر التحقيق والنشر لترى النور الحياة ، فيستفيد منها الباحثون فوائد قد تؤدى إلى تصحيح كثير من مفاهيمنا وزيادة معلوماتنا عن ذلك العصر .

على أن المتأمل فى هذا التراث العلمى الضخم الذى خلفه لنا عصر سلاطين المماليك لابد وأن تسترعى نظره حقيقة هامة ، هى عناية علماء ذلك العصر بتأليف الموسوعات الضخمة التى جمعت فأوعت . فبالإضافة إلى الكتب الكبيرة والصغيرة التى يتناول فيها الكتاب موضوعاً واحداً ، مثل كتب الحوليات التاريخية أوكتب التراجم أوكتب الطبقات أو التصوف أو الأدب أو الفقه . . . بالإضافة إلى هذه الألوان المعروفة ؛ نجد نوعا من الكتب عنى به علماء عصر سلاطين المماليك ، وأعنى به كتب الموسوعات الضخمة التى يضم الكتاب الواحد منها عديداً من فروع المعرفة : حقيقة أن عنوان

الكتاب قد يفهم منه أن مؤلفه يعالج فيه موضوعاً واحداً ، مثل كتاب «مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار» لابن فضل الله العمرى فهو يشير إلى الجانب الجغرافى ، أو كتاب «نهاية الأرب فى فنون الأدب» لأحمد بن عبد الوهاب النويرى، فهو يشير إلى الجانب الأدبى ، أو كتاب «صبح الأعشى فى صناعة الإنشا» لأبى العباس أحمد القلقشندى . فهو يشير إلى فن الإنشاء على وجه التحديد ... ولكن القارئ لأى كتاب من هذه الكتب يجده موسوعة ضخمة تجمع بين الأدب والتاريخ والجغرافيا والاقتصاد والاجتماع والعلوم الدينية ونظم الحكم والتراجم والفنون والعلوم ... وغيرها من ضروب المعرفة التى تجعل منه دائرة معارف ثمينة يفخر بها الفكر العربى وتعتز بها الحضارة العربية الإسلامية فى العصور الوسطى .

ويحتل كتاب صبح الأعشى مكانة خاصة بين هذه الموسوعات التى حفل بها عصر المماليك ، نظراً لوفرة مادته وتنوعها ؛ ومكانة مؤلفه وسعة أفقه وغزارة علمه وخطورة المنصب الذى تقلده فى الدولة . ذلك أن القلقشندى كان قبل كل شىء عالما جليلا ، تتلمذ على كبار علماء عصره ، وأجاز له شيخ العلماء سراج الدين ابن الملقن بالفتيا والتدريس على مذهب الإمام الشافعى سنه ٧٧٨ هـ ، وفى تلك الإجازة وصف الأستاذ تلميذه بأنه «ممن شب ونشأ فى طلب العلم والفضيلة ، وتخلق بالأخلاق المرضية الجميلة الجليلة ، وصحب السادة من المشايخ والفقهاء ، والقادة من الأكابر والفضلاء ، واشتغل عليهم بالعلم الشريف اشتغالا يرضى (١) .»

ومن ناحية أخرى ، فإن القلقشندى التحق بديوان الإنشاء سنة ٧٩١ هـ ، أى فى أوائل عهد دولة المماليك الجراكسة . وإذا ذكرنا ديوان الإنشاء فإنما نعنى ذلك الجهاز الذى كان بمثابة وزارة الخارجية فى عصرنا الحديث ، فعنه تصدر جميع المكاتبات الرسمية ، وإليه ترد جميع المكاتبات الرسمية ، وبه تحفظ جميع المكاتبات

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ٣٢٢ — ٣٢٥ .

الرسمية . ويقول القلقشندى نفسه عن صاحب ديوان الإنشاء : « ومرتبته فى زماننا أرفع مرتبة ، ومحله أعظم محل ، إليه تلقى أسرار المملكة وخفاياها ، وبرأيه يستضاء فى مشكلاتها ، وعلى تدبيره يعول فى مهماتها ، وإليه ترد المكاتبات وعنه تصدر ، ومن ديوانه تكتب الولايات السلطانية كافة . . . » (١)

ومعنى هذا أن المشتغل فى ذلك الديوان كان أمينا على أسرار الدولة ، محيطا بما لم يحط به غيره من موظفيها ، بل كبرائها وأمرائها . فإذا كتب رجل كتابا وكان مثل القلقشندى له من سعة الدراية ووفرة العلم نصيب كبير ، فلابد وأن يأتى كتابه حاويا جامعا نافعا . والحق أننى فى كل مرة أرجع فيها إلى كتاب صبح الأعشى ، لابد وأن أصادف شيئا جديدا ، فأتعجب كيف لم أتنبه إليه من قبل فى عديد المرات التى رجعت فيها إلى هذه الموسوعة الشاملة . وهنا نلفت النظر إلى جانب خطير لايعطيه القائمون على إحياء تراثنا فى البلاد العربية حقه من العناية والتقدير وأعنى به ضرورة وضع فهارس تفصيلية وكشافات علمية دقيقة لكل كتاب من المخطوطات التى نقوم بنشرها ؛ لأن هذه الفهارس هى مفاتيح تلك الكتب وبدونها لا يمكن أن تكون الاستفادة منها تامة وكاملة . ومن المؤسف أن يطبع كتاب مثل «صبح الأعشى» بجميع أجزائه دون فهارس أبجدية لما به من أسماء الأعلام والمدن والمواضع الجغرافية والمصطلحات ، فضلا عن الوثائق والرسائل وغيرها . . . الأمر الذى يجعل مهمة الباحث فى هذا الكتاب شاقة عسيرة ، بحيث لايتمكن من الحصول على أكبر قدر من الفائدة المرجوة منه .

والواقع إن كتاب «صبح الأعشى» بوضعه الحالى — أى بمادته الغزيرة المتنوعة وعدم وجود فهارس مفصلة تساعد الباحث فى سهولة الوقوف على تلك المادة ، تجعله فى نظرنا أشبه شىء بالغابة الكثيرة

---

(١) صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ١٠٢ .

الخيرات المتعددة الثمرات ، المتزاحمة الأشجار ، المتشابكة الأغصان ، بحيث يصعب على من يقتحمها أن يخرج منها بسهولة ، وإذا خرج فلن يظفر بكل ما كان يشتهيه ويطمع فى الحصول عليه :

* * *

وإذا نحن نظرنا إلى كتاب « صبح الأعشى » من زاوية معينة ، أى بوصفه مصدراً لتاريخ مصر فى العصور الوسطى ، وجدنا فيه ثروة ضخمة تلقى كثير من الأضواء على أوضاع مصر فى تلك العصور : ذلك أن كتب الحوليات الشهيرة التى تعالج تاريخ مصر فى العصور الوسطى والتى كتبها مجموعة من مشاهير المؤرخين أمثال المقريزى وابن حجر والعينى وأبو المحاسن وابن إياس ، تكاد تسير كلها على نمط واحد ، وتكاد تتفق كلها فى قدر واحد من المعلومات ، من ناحية ماحدث فى هذه السنة أو تلك من حرب أو فتنة ، ومن نصر أو هزيمة ، ومن غلاء أو رخاء ، ومن وفاة سلطان أو قيام آخر .. فإذا ذكر أحد أولئك المؤرخين شيئاً عن الأسعار فى سنة من السنوات فإنه لايشير إلى النقود المتداولة وأقسامها وأنواعها ، أو إلى المقاييس المستعملة والمكاييل المستخدمة ، مثلما فعل القلقشندى فى كتابه « صبح الأعشى » وإذا أشار أحد المؤرخين السابقين إلى تأمير أمير من الأمراء فإنه لايكلف نفسه وصف الإجراءات المتبعة فى تلك المناسبة . وإذا ذكر أن السلطان أنعم على أمير بإقطاع ، فإنه لا داعى لأن يتطرق إلى أنواع الإقطاعات وما يرتبط بكل من حقوق وواجبات . وإذا قال إن السلطان نظم الدواوين فإنه لايحاول أن يشرح لنا أنواع الدواوين القائمة فى ذلك العصر والنظم المتبعة فيها . وإذا حكى أن السلطان عقد هدنة أو اتفاقا أو أرسل رسالة إلى ملك أو أمير ، فإنه قد لا يستطيع الحصول على صورة تلك الهدنة أو الرسالة مما يضفى ضوءاً على طبيعة العلاقات العامة والخاصة فى ذلك العصر ... وهكذا نجد المؤرخين من كتاب الحوليات يطوون السنوات طياً ويركزون

عنايتهم على جوانب معينة يلتزمون الكلام عنها ، وقد ينقل المتأخر أخبارها عمن سبقه من المتقدمين . وهنا يأتى دور كتاب مثل « صبح الأعشى » ليسد تلك الثغرات فى تاريخ مصر فى العصور الوسطى ، بما يحويه من معلومات خطيرة عن النظم الداخلية والعلاقات الخارجية ، فضلا عن الأضواء التى يلقيها على الحياة الاقتصادية والاجتماعية والعلمية والدينية . . . وغيرها . هذا إلى مايلاحظه القارئ لكتاب « صبح الأعشى » من أن القلقشندى يتمتع بحاسة تاريخية قوية ، فهو إلى جانب كونه أديباً وفقيهاً ، يبدو فى كتابته فى صورة المؤرخ الواعى المحيط ببواطن الأمور ، القادر على الربط والاستنتاج ، المستوعب لكثير من كتب السير والتواريخ . وهو عندما يتعرض للتاريخ يقول مانصه : « اعلم أن التاريخ بحر لا ساحل له ، وقد أكثر الناس فيه من التصنيف على اختلاف فنونه . مابين مختصر ومبسوط ، من مقتصر على فن ومستوعب لفنون(١) . . . » .

وهكذا حرص القلقشندى على تضمين كتابته كثيراً من المعلومات التاريخية المفيدة ، وقد يذكر هذه المعلومات تحت اسم عبرة أو لطيفة أو غريبة أو أعجوبة أو فائدة . . ولكنه فى كل ذلك يأتى بما يفيد طالب التاريخ ، عن قصد أو غير قصد . فهو مثلا تحت اسم أعجوبة يذكر لنا كيف أنه حدث بمصر سنة ٤٠٦ هـ زلزال عظيم ، ترتب عليه ارتفاع أراضى شواطئ مصر ، بحيث انحسرت مياه البحر عن أراض واسعة . ثم لم يلبث أن عاد الأمر إلى ما كان عليه ، مما ترتب عليه غرق كثيرين . وتحت اسم فائدة يذكر أن الخليفة المقتفى نزع باب الكعبة سنة ٥٠٢ هـ ، وعمل عوضه باباً مصفحاً بالفضة المذهبة(٢) . وهكذا . . .

وإذا كان القلقشندى يتمتع بحاسة تاريخية قوية ، انعكست صورتها

---

(١) صبح الأعشى ، ج ١ ص ٤١٢ .
(٢) صبح الأعشى ، ج ١ ص ٤٥٧ .

واضحة فى كتابه « صبح الأعشى » بمـــا تضمنه من معلومات تاريخية نافعة ، فإنه من الطبيعى أن يكون لمصر بالذات – وتاريخها – حظ وافر من عناية القلقشندى . ذلك أن القلقشندى كان قبل كل شىء مصرياً ، ولد وشب فى بلدة بصميم الريف المصرى – هى بلدة قلقشندة أو قرقشندة من قرى القليوبية(١) ، وانتقل إلى الإسكندرية لتلقى العلم ، فحصل فيها سنة ٧٧٨ هـ على إجازة بالفتيا والتدريس من شيخه ابن الملقن(٢) ، ثم نزح إلى القاهرة حيث التحق بديوان الإنشـــاء سنة ٧٩١ هـ . وبذلك عاش القلقشندى فى صميم الواقع المصرى ، فاجتمعت له من أسباب الخبرة والعلم ما جعله محيطاً بتاريخ مصر ، شغوفاً به . ونلمس فى كتاب « صبح الأعشى » أن القلقشندى إذا تطرق إلى ذكر أخبار بلد خارج مصر ، فإنه غالباً ما يحرص على الربط بينه وبين مصر ، فى ضوء العلاقات القائمة بين البلدين . وإذا جره الاستطراد إلى الكلام عن بلد بعيد ، فإنه كان لايلبث أن يعود إلى مصر ، مستمداً معلوماته من الشواهد والوثائق القائمة بين يديه فى ديوان الإنشاء . وتتضح هذه الحقيقة الكبرى فى مختلف أجزاء « صبح الأعشى »: فهو يحرص على أن يمهد لكتابه بوصف مصر وفضلها ومحاسنها ونيلها وخلجانها القديمة وبحيراتها وجبالها وزروعها وفواكهها ومواشيها وطيورها وحدودها وكورها . . .(٣) ثم إنه عندما يصف بعض البلدان والممالك يحرص على أن يكون ذلك تحت عنوان « الممالك والبلدان المحيطة بمملكة الديار المصرية(٤) » أو التى بينها وبين مصر علاقات . بل إنه يحرص على أن يقدم لدراسته بالكلام عن تاريخ مصر القديم ، فيصف مدنها القديمة مثل منف والإسكندرية ،

---

(١) الزركلى : الأعلام ، ج١ ص ١٧٢ ، كحالة : معجم المؤلفين ، ج ١ ص ٣١٧ هذا وقد تكلم القلقشندى عن بلدته قلقشندة فى الجزء الثالث من كتابه صبح الأعشى (ص٤٠٣).

(٢) صبح الأعشى ، ج١٤ ص٣٢٢ .

(٣) صبح الأعشى ، ج٣ ص ٢٨٢ – ٤٠٩ .

(٤) صبح الأعشى ، ج٤ ص ٣٠٥ .

ويصف بعض آثارها القديمة ، وربما وصف بعض الآثار التى كانت قائمة على أيامه والتى اندثرت الآن . من ذلك قوله أنه على مقربة من الأهرام كان يوجد بيت من حجر أخضر قطعة واحدة : جوانبه الأربعة وأرضه وسقفه . وأن هذا البيت كان قائماً إلى أيام السلطان الناصر محمد ، ثم أراد أتابك العكسر -الأمير شيخو- نقله صحيحاً إلى القاهرة ، ولكنه تحطم ، فأخذت حطامه وصنعت منه أعتاب بعض المبانى بالقاهرة . هذا إلى أن إقامته بالإسكندرية فى شبابه جعلته يحيط بآثارها ، فوصف منـــارتها القديمة مثلما سمع ، كما وصف الملعب الكبير وعمود السوارى . أما المعابد القديمة ، فقد أسماها البرادى ، وقال : إنها بيوت عبادة ، وأشار إلى معابد دندرة والأقصر وإسنا وغيرها . ثم انتقل بعد ذلك إلى الكلام عن ملك الديار المصرية فى الجاهلية والإسلام ، وأتى خلال عرضه هذا بكثير من المعلومات التاريخية الصادقة ؛ مثل قوله عن بطليموس محب أخيه (الثانى) أنه نقل التوراة من العبرانية إلى اليونانية ، وقوله : إن المسيح عليه السلام ولد فى عهد الأمبراطور أوغسطس ، وقوله : إن الأمبراطور دقلديانوس — أو كما أسماه دقلطيانوس — اضطهد الأقباط « وقتل منهم خلقا عظيما يعبر عنهم الآن بالشهداء . . . وأن الأقباط يؤرخون بمهلكه إلى اليوم . » (١) وقوله : إن الإمبراطور قنسطنطين كان أول من اعترف بالمسيحية من الأباطرة « وأظهر دين النصرانية وحمل الناس عليه » . . . . وهذه كلها معلومات حقيقية أثبتها التاريخ ، وتوضح لنا أن القلقشندى عندما كان يخوض فى التاريخ فإنه كان يتقصى الحقائق ولا يقول إلا صدقا .(٢)

وإذا كان هذا هو حال القلقشندى فيما ذكره عن تاريخ مصر القديم فما بالنا بتاريخ مصر فى العصور الوسطى ، وهى العصور التى

---

(١) الحقيقة أن أقباط مصر اتخذوا من بداية حكم دقلديانوس سنة ٢٨٤ م بداية للسنة القبطية (سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ، ج١ ص ٣٠ — ٣١ .

(٢) صبح الأعشى ، الجزء الثالث .

عاش فيها وكتب كتابه فى حلقة من أنشط حلقاتها فى الداخل والخارج .
الواقع أن الأمر يطول بنا عند الكلام عن أهمية « صبح الأعشى » بوصفه
مصدراً لتاريخ مصر فى العصور الوسطى ، أعنى منذ الفتح الإسلامى فى
القرن السابع للميلاد ؛ لأنه يحاول دائماً أن يأتى بالحقائق من جذورها
فيذكر لنا من ولى مصر فى الإسلام ، وعمال الخلفاء سواء من
الصحابة أو بنى أمية أو العباسيين — على مصر ، وسنة ولاية كل
عامل منهم . ثم يذكر حكام مصر من الطولونيين والإخشيديين
والفاطميين وبنى أيوب والمماليك الترك (البحرية) والمماليك الجراكسة
(البرجية) حتى أيام القلقشندى نفسه فى أوائل القرن التاسع الهجرى
أى على عهد السلطان الناصر فرج بن برقوق ، وإن كان القلقشندى قد
توفى فى السنة السادسة من عهد السلطان المؤيد شيخ (٨٢١ هـ — ١٤١٨م) .

وسنكتفى نحن فى هذه الدراسة بالتركيز على أهمية كتاب صبح
الأعشى فى دراسة تاريخ مصر فى العصور الوسطى ، وذلك من النواحى
الآتية :

(ا) نظم الحكم والإدارة . (ب) الأوضاع الاقتصادية

(حـ) الحياة الاجتماعية (د) السياسة الخارجية

أما عن نظم الحكم والإدارة فى مصر فى العصور الوسطى
فيؤكد القلقشندى فى كتابه « صبح الأعشى » أن مصر ظلت منذ الفتح
العربى حتى بداية الدولة الطولونية مجرد « نيابة » ، أى يحكمها
نائب عن الخليفة — هو الوالى — لأن الخلافة يومئذ فى غاية العز
ورفعة السلطان ، ونيابة مصر — بل سائر النيابات — مضمحلة فى جانبها(١)
ويفهم من هذا أن مصر لم تكن لها شخصية مستقلة قائمة بذاتها

---

(١) صبح الأعشى ج١١ ، ص٢٨ .

فى ذلك الدور الأول ، الأمر الذى جعل نظم الحكم والإدارة السائدة فيها لا تختلف كثيراً عن سائر النظم المطبقة فى بقية بلاد الدولة الإسلامية .

ولكن أحمد بن طولون كان « أول من أخذ فى ترتيب الملك وإقامة شعار السلطنة بالديار المصرية » ، (١) فرتب الدواوين فى مصر لتتخذ طابعا مصريا خاصاً ، وإن كان القلقشندى لايشير فى صبح الأعشى إلى النظم التى وضعها أحمد بن طولون والقواعد التى استنها فى مصر فيما عدا ما يتعلق بديوان الإنشاء .

وبقيام الدولة الفاطمية ، ظهرت كثير من النظم والقواعد الخاصة بالملك والحكم والإدارة فى مصر . وهنا نجد القلقشندى يسهب فى وصف النظم السائدة بمصر زمن الخلفاء الفاطميين ، فيقول : إن ترتيب مملكتهم ينحصر فى سبع جمل أو أقسام : الجملة الأولى أو القسم الأول ويشمل شعائر الملك مثل التاج وقضيب الملك والسيف الخاص والدواة والرمح والمظلة والأعلام وغيرها . والجملة الثانية أو القسم الثانى ويشمل حواصل الخليفة مثل الخزائن وحواصل المواشى وحواصل البضاعة وحواصل الغلال وغيرها . والجملة الثالثة أو القسم الثالث ويشمل جيوش الدولة الفاطمية ومراتب أرباب السيوف وهم الأمراء وخواص الخليفة . والجملة الرابعة أو القسم الرابع ، ويشمل أرباب الوظائف بالدولة الفاطمية . وهذا القسم بالذات له أهمية نظراً لما فيه من بيانات وافية ذكرها القلقشندى عن النظم الإدارية فى الدولة الفاطمية ، إذ قسم الموظفين إلى قسمين كبيرين : القسم الأول ويشمل ما بحضرة الخليفة من أرباب السيوف وأرباب الأقلام ، والقسم الثانى ويضم الموظفين الخارجين عن حضرة الخلافة كالنواب والولاة . والقلقشندى خلال هذا يتكلم عن الدواوين فى الدولة الفاطمية

---

(١) صبح الأعشى ج١١ ، ص٣٩ .

والوزارة ، والأقسام الإدارية الكبرى التى انقسمت إليها مصر فى ذلك العصر ، ومكانة كل وال من الولاة المشرفين على هذه الأقسام مما يعطينا صورة واضحة عن النظم الإدارية وجهاز الحكم أيام الفاطميين .

وأخيرا تأتى الجملة الخامسة ويتناول فيها القلقشندى هيئة الخليفة الفاطمى فى موكبه وقصوره ، فيعطينا فكرة واضحة عن المواكب الفاطمية ، وما اتصفت به من بذخ وأبهة ، والاحتفالات الفاطمية بالمناسبات الدينية مثل ليالى الوقود ، ومولد النبى عليه الصلاة والسلام وأول رمضان ، وعيدى الفطر والأضحى ، فضلا عن الأعياد القومية مثل الاحتفال بوفاء النيل وغيرها . أما الجملة السادسة فيتكلم فيها القلقشندى عن اهتمام الخلفاء الفاطميين بالأساطيل وحفظ الثغور واعتنائهم بأمر الجهاد ، وهو خلال ذلك يشير إلى القواعد البحرية للأسطول الفاطمى فى البحرين المتوسط والأحمر . وأخيرا تأتى الجملة السابعة وفيها ما يتعلق بتوزيع الأرزاق والعطاء وما يتصل بذلك من الأطعمة . (١)

هذا عرض سريع لما فصله القلقشندى فى كتابه « صبح الأعشى » عن نظم الحكم والإدارة فى مصر على أيام الدولة الفاطمية . فإذا انتقلنا إلى مابعد هذه الدولة ، وجدنا أن الدولتين الأيوبية والمماليكية تكونان وحدة من حيث نظم الحكم والإدارة ، بمعنى أن كثيرا من التنظيمات التى وضعت أسسها أيام الأيوبيين استمرت قائمة ومطبقة أيام سلطنة المماليك ، أو بمعنى آخر فإن كثيرا من التنظيمات التى تراها ثابتة ومزدهرة أيام المماليك إنما ترجع أصولها إلى عصر الأيوبيين . ويؤكد القلقشندى هذا المعنى عندما يقول : « ما استقر عليه الحال من ابتداء الدولة التركية وإلى زماننا على رأس الثمانمائة ، مما أكثره مأخوذ من ترتيب الدولة الأيوبية التى هى أصل الدولة التركية (المماليكية) » . (٢)

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٤٧٢ ومابعدها .

(٢) صبح الأعشى ، ج٧ ، ص١١٩ .

ويتضح لنا من النص السابق أن القلقشندى كان يكتب كتابه « صبح الأعشى » حوالى سنة ٨٠٠ ﻫ (نهاية القرن الرابع عشر وأوائل القرن الخامس عشر للميلاد) أى زمن نضج سلطنة المماليك وازدهار نظمها وتبلور قواعد الحكم وأصوله فيها . لذلك كان من الطبيعى أن يسترسل القلقشندى فى وصف نظم الحكم على أيام سلطنة المماليك ، وهى النظم التى عاش هو نفسه فى ظلها ، وأن يفيض فى وصف الجهاز المحرك لسلطنة المماليك ، وهو الجهاز الذى كان هو نفسه عاملا فيه وأحد أعضائه . وهكذا مضى القلقشندى فى الجزء الرابع من كتابه « صبح الأعشى » يصف « ترتيب المملكة » ؛ فبدأ بذكر رسوم الملك وآلاته — وهى الشعائر التى اختص بها السلطان مثل : سرير الملك أى التخت الذى يجلس عليه ؛ والمقصورة التى يصلى فيها بالجامع يوم الجمعة ، والغاشية المذهبة التى تحمل بين يديه فى المواكب (١) . . . الخ

فإذا فرغ القلقشندى من ذلك انتقل إلى ذكر البيوت السلطانية ، وهى : الشراب خاناه — أى بيت الشراب — وبه أنواع الأشربة التى يحتاج إليها السلطان ، والطشت خاناه ، وبه أنواع الطشوت والطاسات الخاصة بالسلطان ، فضلا عن المقاعد والمخاد وغيرها ؛ والفراش خاناه — أى بيت الفراش — وبه أنواع الفرش والبسط والخيام التى تلزم السلطان فى حله وترحاله ، والسلاح خاناه — ويسمى الزرد خاناه — ويشمل أنواع السلاح المختلفة من السيوف والنشاب والرماح والدروع وغيرها ، والركاب خاناه وبه عدد الخيل من السروج واللجم والكنابيش ونحوها والحوائج خاناه — أى بيت الحوائج — الذى يصرف منه اللحم والتوابل وغيرها من مستلزمات المطبخ السلطانى ؛ والمطبخ السلطانى الذى يطهى فيه طعام السلطان وحاشيته « ويستهلك فيه فى كل يوم قناطير

---

(١) صبح الأعشى ، ج٤ ص٦ — ٩ .

مقنطرة من اللحم والدجاج والأوز والأطعمة الفاخرة » : وأخيراً الطبلخاناه ، وهو البيت الذى يشتمل على الطبول والأبواق وتوابعها .(١)

ولم يفت القلقشندى فى « صبح الأعشى » أن يصف هيئة السلطان فى مختلف المناسبات ، فوصف هيئته فى جلوسه بدار العدل للبت فى المظالم والشكاوى والقضايا ، فيوضح طريقة جلوسه وحوله القضاة وكبار رجال الدولة وفق بروتوكول خاص ، كما يصف هيئة جلوسه فى بقية الأيام ، وهيئته فى صلاة الجمعة والعيدين ، وعند خروجه للعب الكرة بالميدان ، وفى الركوب لكسر الخليج عند وفاء النيل وفى الأسفار ، ثم النوم . (٢)

ويفهم من « صبح الأعشى » أن سلطان المماليك كان يحتل مكانه على رأس جهاز بيروقراطى ضخم ينقسم إلى قسمين أو يتألف من فريقين كبيرين ، أرباب السيوف وأرباب الأقلام . أما أرباب السيوف فهم الأمراء والأجناد . وكان الأمراء على عدة طبقات أو درجات ، أعلاهم درجة أمراء المئين مقدمو الألوف ، أى أن الأمير منهم يمتلك مائة فارس — وربما زاد العشرة أو العشرين — وله التقدمة على ألف فارس . وبعدهم يأتى أمراء الطبلخاناه وعدة كل منهم أربعون فارسا قد تزيد إلى سبعين أو ثمانين ؛ ثم أمراء العشرات ، وعدة كل منهم عشرة فوارس ، وأخيراً أمراء الخمسات وعدة كل منهم خمسة فوارس . أما الأجناد فكانوا من طبقتين : المماليك السلطانية وهم أعظم الأجناد شأنا وأرفعهم قدرا وأشدهم إلى السلطان قربا ، وأوفرهم إقطاعا ، ومنهم تؤمر الأمراء رتبة بعد رتبة » . « وأجناد الحلقة وهم عدد جم وخلق كثير ، وربما دخل فيهم من ليس بصفة الجند من المتعممين وغيرهم (٣) »

---

(١) صبح الأعشى ، ج٤ ص٩ — ١٣ .

(٢) صبح الأعشى ، ج٤ ص٤٤ — ٤٩ .

(٣) صبح الأعشى ، ج٤ ص١٤ — ١٦ .

وثمة وظائف معينة احتكرها الأمراء من أرباب السيوف فى عصر سلاطين المماليك ؛ ومن هذه الوظائف ما هو بحضرة السلطان : مثل النيابة — أى نائب السلطان — ، والأتابكية — أى أتابك العسكر وكبير الأمراء — ، وإمرة مجلس أى متولى أمور السلطان ، وإمرة أخورية أى المتحدث على اسطبل السلطان وخيوله والدوادارية أى تبليغ الرسائل عن السلطان وإليه . . وغيرها من الوظائف الكبيرة فى الدولة التى عددها القلقشندى فى خمس وعشرين وظيفة . وهو فى خلال عرضه لهذه الوظائف يمدنا بكثير من المعلومات الهامة الفريدة عن طبيعة كل وظيفة واختصاصات صاحبها والشروط الواجب توافرها فيه ، فضلا عما يتضمنه شرحه من بيانات عن النظام الإدارى فى مصر . فهو يقول مثلا: إن ولاة الشرطة بالحاضرة على صنفين : الصنف الأول يشمل والى الشرطة بالقاهرة ، ووالى الشرطة بالفسطاط ، ووالى الشرطة بالقرافة . والصنف الثانى يشمل ولاة القلعة ، وهما اثنان : والى القلعة وهو أمير طبلخاناه يتحكم فى باب القلعة الكبير الذى منه طلوع العسكر ونزولهم ؛ ثم والى باب القلة وهو أمير عشرة . . (١)

أما أرباب السيوف من الأمراء الذين يتولون وظائف خارج الحضرة السلطانية ، فيشملون نواب السلطنة والكشاف والولاة . وهنا نجد القلقشندى يسوق فى كتابه « صبح الاعشى » معلومات قيمة عن النظام الإدارى فى مصر على عصر سلاطين المماليك ، فيقول : إن بمصر ثلاث نيابات ، كلها مستحدثة أى استحدثت قبيل الوقت الذى كتب فيه القلقشندى كتابه فى أواخر القرن الثامن للهجرة . وأولى هذه النيابات نيابات الإسكندرية التى استحدثت سنه ٧٦٧ هـ (١٣٦٥م) ، على عهد السلطان الأشرف شعبان بن حسين . وكانت الإسكندرية حتى ذلك الوقت ولاية ، ولكن حدث فى السنة السابقة أن تعرضت لإغارة

---

(١) صبح الأعشى ج٤ ص١٦ — ٢٣ .

صليبية عنيفة من جانب بطرس لوزجنان ملك جزيرة قبرس ، الأمر الذى تطلب تحويلها إلى نيابة يحكمها نائب عن السلطان لضمان زيادة العناية بأمرها والحيطة عليها ، وبعد ذلك تأتى نيابة الوجه القبلى ، وهى الوظيفة التى يروى القلقشندى أنها استحدثت على عهد السلطان الظاهر برقوق ، فأصبح يشرف على الوجه القبلى نائب عن السلطان مقره مدينة أسيوط « وحكمه على جميع بلاد الوجه القبلى بأسرها » . وأخيرا تأتى نيابة الوجه البحرى ، وقد استحدثت أيضا على عهد الظاهر برقوق ، ومقر نائبها مدينة دمنهور فى البحيرة . وبالإضافة إلى النائب ، وجد كاشف لكل من الوجهين البحرى والقبلى ، ويبدو أن وظيفة الكاشف تضاءلت أهميتها بعد إنشاء نيابة للوجه البحرى وأخرى للوجه القبلى (١) .

وفيما عدا ذلك انقسم الوجهان البحرى والقبلى إلى عدد من الولايات — أشبه شىء بالمديريات أو المحافظات — يحكم كل منها والى من كبار الأمراء . ويفهم من كتاب « صبح الأعشى » أن الولايات الكبرى كان يحكمها أمراء طبلخاناه ، فى حين أن الولايات الأقل أهمية كان يليها أمراء عشرات . فالوجه القبلى كان به أربعة ولاة من أمراء الطبلخاناه ، وهم والى البهنسى ووالى الأشمونيين ووالى قوص وأخميم ووالى أسوان . والولاية الأخيرة استحدثت على أيام الظاهر برقوق إذ كانت أسوان حتى ذلك الوقت مضافة إلى والى قوص . أما الجيزة وأطفيح ومنفلوط فكانت ولايات يليها أمراء عشرات .

هذا عن الوجه القبلى ، أما الوجه البحرى فكان به أربعة ولايات يليها أمراء طبلخاناه ، هم والى الشرقية فى بلبيس ووالى منوف ووالى الغربية فى المحلة ووالى البحيرة ، وبالإضافة إلى هؤلاء وجدت ولايات أربع وليها أمراء عشرات ، هم والى قليوب ووالى أشموم ووالى دمياط ووالى قطيا . (٢)

أما أرباب المناصب من حملة الأقلام ، فكانت لهم وظائف عديدة

---

(١) صبح الأعشى ، ج٤ ص٢٤ — ٢٥ ، ج٧ ص١٥٦ — ١٥٧ .

(٢) صبح الأعشى ، ج٤ ص٢٦ — ٢٨ .

« كثيرة للغاية لايسع استيفاؤها والمعتبر منها . . . » . ومن هذه الوظائف الوزارة التي كان مفروضاً أن يكون صاحبها الرجل الثاني في الدولة ، ولكن حدث بعد إنشاء وظيفة نيابة السلطنة أن تضاءل شأن الوزارة «وتأخرت وقعد بها مكانها » . ومن وظائف حملة الأقلام أيضا كتابة السر ، أي قراءة الكتب الواردة على السلطان وكتابة أجوبتها ، ووظيفة نظر الخاص — وهي وظيفة محدثة أحدثها السلطان الناصر محمد بن قلاون — ويختص صاحبها بالتحدث فيما هو خاص بمال السلطان (ناظر الخاصة) ، ووظيفة نظر الجيش وموضوعها التحدث في أمر الإقطاعات ، ووظيفة نظر الدواوين المعمورة.. وغير ذلك من الوظائف العديدة التي باشرها أرباب الأقلام التي ذكرها القلقشندي في صبح الأعشى . (١)

على أنه بالإضافة إلى هذه الوظائف الديوانية التي تولاها أرباب الأقلام ، فإنهم تولوا أيضا وظائف دينية ، مثل وظيفة قضاء القضاة : ويذكر القلقشندي أن الوضع الذي استقر عليه الحال في البلاد كان وجود قاض واحد بالديار المصرية من أي مذهب كان ، ولكن السلطان الظاهر بيبرس عين سنة ٦٦٣ هـ أربعة قضاة من مذاهب الأئمة الأربعة ، كل منهم يتحدث فيما يقتضيه مذهبه ، ويعين نوابه بالديار المصرية . وبالإضافة إلى ذلك تولى أرباب الأقلام وظيفة قضاء العسكر ، ووظيفة إفتاء دار العدل ، ووظيفة وكالة بيت المال ، ووظيفة الحسبة . ولا يخفى علينا ما كان للوظيفة الأخيرة من شأن خطير في المجتمع الإسلامي في العصور الوسطى ، إذ كانت « وظيفة جليلة ، رفيعة الشأن ، موضوعها التحدث في الأمر والنهي ، والتحدث على المعايش والصنائع ، والأخذ على يد الخارج عن طريق الصلاح في معيشته وصناعته . . . » (٢) .

وإذا كان القلقشندي قد اهتم في كتابه صبح الأعشى بشرح النظم الإدارية في مصر ، فإنه لم يغفل أمر الشق الآخر من سلطنة المماليك

(١) صبح الأعشى ، ج٤ ص٢٨ — ٣٤ .
(٢) صبح الأعشى ، ج٤ ص٣٧ .

وهو بلاد الشام ، فذكر ما بها من نيابات وأقسام إدارية ودواوين ونظم. (١)

وساعد سلطان المماليك فى إحكام إشرافه على أنحاء دولته الواسعة وأعمال نوابه فى مصر والشام ، نظام البريد المحكم الذى وصفه القلقشندى فى صبح الأعشى ، والذى يدل على مهارة فائقة ودقة بارعة فى تنظيم البريد فى العصور الوسطى . وبعد أن يتناول القلقشندى نظام البريد فى الدولة الإسلامية ، يشير الى اهتمام الزنكيين والأيوبيين بذلك النظام ، ولعل السر فى ذلك هو ما قام به الزنكيون ثم الأيوبيون من حركة جهاد واسعة ضد الصليبيين بالشام ، الأمر الذى تطلب نظاماً دقيقاً للربط بين مختلف أجزاء دولتهم ، بذلك يتيسر الوقوف على تحركات الأعداء وأخذ الحيطة لمواجهة الأخطار . ثم يؤكد القلقشندى قيـــام السلطان الظاهر بيبرس بإعادة تنظيم البريد ورسم طرقه وإنشاء محطات له ، ويفسر ذلك بأن بيبرس « اجتمع له ملك مصر والشام وحلب إلى الفرات » ، الأمر الذى جعله يحرص على تنظيم البريد لضمان إشرافه على تلك الدولة الواسعة الممتدة من النيل إلى الفرات . ولا يخفى علينا أن السلطان الظاهر بيبرس يعتبر المؤسس الحقيقى لسلطنة المماليك ، وهو أول من قام – من سلاطين المماليك – بحركة الجهاد الواسعة ضد الصليبيين والمغول جميعاً ، فكانت جيوشه تخرج حيناً إلى الصليبيين بالشام وبلاد السلاجقة فى آسيا الصغرى ، وأحياناً إلى نهر الفرات لمنازلة المغول ، فضلا عن الحملات التى أرسلها إلى النوبة . لذلك أوصى بيبرس رجاله — ومنهم الصاحب شرف الدين عم القلقشندى نفسه – « بمواصلته بالأخبار وما يتجدد من أخبار التتار والفرنج ، وقال له : إن قدرت أن لا تبيتنى كل ليلة إلا على خبر ، ولا تصبحنى إلا على خبر ، فافعل . . . »(٢) وهكذا أدرك بيبرس أن البريد

---

(١) صبح الأعشى ، ج ٤ ص ١٨٠ – ١٨٤ – ١٨٩ ، ج ٥ ص ٤٥٥ – ٤٦٥ ، ج ١٢ ص ٦ .

(٢) صبح الأعشى ، ج١٤ ، ص٣٧٠ .

هو « جناح الإسلام الذى لا يحصى وطرف قادمته التى لا تقصى » ، فعنى به عناية فائقة ، صارت مضرب الأمثال فى تاريخ النظم .

ويمضى القلقشندى فى ذكر مراكز البريد ، فيخبرنا أن قلعة الجبل بوصفها مقر إقامة السلطان وقاعدة الملك فى ذلك العصر كانت المركز الرئيسى للبريد ، تخرج منها المكاتبات والأوامر السلطانية ، وترد إليها الأنباء والأخبار من مختلف أطراف البلاد . أما طرق البريد الرئيسية التى تبدأ من قلعة الجبل ، فأولها إلى مدينة قوص بالوجه القبلى ، ومن قوص تتفرع طرق فرعية إلى أسوان والنوبة وعيذاب وسواكن . وثانيها من قلعة الجبل إلى الإسكندرية ، وهنا يشير القلقشندى إلى طريقين يمكن تشبيههما — مع الفارق — بالطريق الصحراوى والطريق الزراعى اليوم ، أحدهما من قلعة الجبل بالقاهرة إلى وردان ودمنهور بحذاء « الجبل الغربى » . والآخر « فى وسط العمران وتعرف بالوسطى » ويمر بقليوب مخترقاً وسط الدلتا إلى منوف والمحلة إلى الإسكندرية . وثالثها الطريق من قلعة الجبل إلى دمياط عن طريق سرياقوس ومنها إلى بلبيس ثم دمياط « ومن أراد غزة »(١) ، ومن غزة تتفرع طرق البريد إلى الكرك ودمشق وصفد . ومن دمشق تتفرع إلى حمص وحماه وحلب وطرابلس وغيرها من مدن الشام . ومن حلب تتفرع طرق البريد إلى البيرة على الفرات وأياس فى قيليقية وغيرها من المراكز الشمالية .

ولا يكتفى القلقشندى بذكر محطات البريد ومراكزه بالتفصيل ؛ وإنما يسوق لنـا طرفاً من النظم المتبعة فى البريد ، فيقول : إن صاحب ديوان الإنشاء كان هو المتولى لأمر البريد وتنفيذ أموره . وكان للبريد ألواح من فضة ، محفوظة بديوان الإنشاء فى عهدة كاتب السر ، منقوش على وجهى اللوح نقشاً مزدوجاً ما نصه « لا إله إلا الله محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله

---

(١) صبح الأعشى ، ج١٤ ، ص٣٧٣ — ٣٧٦ .

ولوكره المشركون. ضرب بالقاهرة المحروسة » ، وعلى الوجه الآخر ما صورته « عز لمولانا السلطان الملك الفلانى : فلان الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين فلان ، ابن مولانا السلطان الشهيد الملك الفلانى ، فلان ، خلد الله ملكه » وفى ذلك اللوح ثقب معلق به شرابة من حرير أصفر ذات بندين ، يجعلها البريدى فى عنقه ، ويصير اللوح أمامه تحت ثيابه ، والشرابة خلفه من فوق ثيابه . فإذا خرج بريدى إلى جهة من الجهات ، أعطى لوحاً من تلك الألواح يعلقه فى عنقه ويذهب إلى الجهة التى يقصدها ، فكل من رأى تلك الشرابة خلف ظهره علم أنه بريدى ، فيستقبله أرباب مراكز البريد على طول الطريق ، ويسلمونه خيل البريد ، ويقدمون له كل ما يحتاج إليه (١) .

ويخبرنا القلقشندى أن الأمر لم يقتصر على استخدام الخيل فى نقل البريد ، وإنما أدرك المسلمون منذ وقت مبكر أهمية عامل الوقت فى نقل الأخبار ، فاهتموا بالحمام الزاجل وأطلقوا عليه اسم الحمام الرسائلى . وبلغ من اهتمامهم بهذا النوع من الحمام أن وصفوه من حيث اللون وعدد الريش فى الجناحين والذنب ، والفرق بين الذكر والأنثى ، والزمان والمكان اللائقين بالإفراخ . . . وذكر القلقشندى أن أول من اهتم به فى الإسلام هم الخلفاء العباسيون ، وفى مصر عنى به الخلفاء الفاطميون حتى أفردوا له ديواناً وجرائد بأنساب الحمام . كذلك عنى نور الدين محمود ــ عندما امتدت دولته من الموصل إلى دمشق إلى مصر ــ بأمر هذا النوع من الحمام . وهكذا حتى كانت دولة المماليك ، فاهتموا به اهتماماً كبيراً ، حتى ألف فيه محيى الدين بن عبد الظاهر ــ صاحب ديوان الإنشاء ــ كتاباً أسماه « تمائم الحمائم » . وكما كان لبريد الخيل مراكز ومحطات ، كذلك كان للحمام الرسائلى محطات وأبراج ، مركزها قلعة الجبل ، ومنها تتجه إلى الإسكندرية ودمياط والسويس وبلبيس . ومن بلبيس إلى الصالحية وغزة

(١) صبح الأعشى ، ج١٤ ، ص٣٧١ ــ ٣٧٢ .

ودمشق . ومن دمشق إلى شمال الشام وأنحاء الفرات . كذلك كانت هناك طرق وأبراج للحمام الرسائلى من القاهرة إلى الجنوب — أى قوص وأسون وعيذاب . ولكن القلقشندى يذكر أنه انقطع على أيامه تدريج الحمام الرسائلى إلى تلك الجهات الجنوبية (١) .

وهكذا يقدم لنا القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى صورة فريدة لعامل هام من عوامل الربط بين أنحاء الدولة ومختلف أطرافها فى العصور الوسطى ، الأمر الذى مكن السلطة المركزية فى القاهرة من متابعة أخبار البلاد والعباد من أقصى أطراف الشمال حتى أقصى أطراف الجنوب ، فضلا عن الوقوف على أخبار القوى المجاورة من الأعداء والأصدقاء جميعاً . . .

وفى ختام عرضنا لنظم الحكم والإدارة فى مصر العصور الوسطى كما صورها القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى — نشير إشارة سريعة إلى ماجاء فى تلك الموسوعة من معلومات قيمة عن الإقطاع والنظام الإقطاعى فى مصر . ذلك أن الدولة الأيوبية ومن بعدها دولة المماليك قامتا على أسس إقطاعية واضحة ، استعانت بها الدولتان لإعداد جيوش على أسس إقطاعية ، تمكن السلاطين والحكام من مواجهة الأخطار المهددة لهم . على أن القلقشندى اختار أن يتكلم عن الإقطاع فى الدولة الإسلامية منذ عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ، وما كان يكتب فى الإقطاعات فى ذلك الوقت ثم زمن الخلفاء الراشدين والعباسيين ببغداد والفاطميين بمصر (٢) . ويضيق بنا المجال فى هذا العرض الموجز عن تتبع كافة المعانى والمعلومات العديدة التى أوردها القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى عن الإقطاع فى مصر فى عصرى الدولتين الأيوبية والمماليكية ، والأثر الخطير له فى النظم الإداريه والاقتصاديه والاجتماعية والسياسية ، ولكن تكفى الإشارة العابرة إلى بعض المبادئ

---

(١) صبح الأعشى ، ج١٤ ص٣٨٩ — ٣٩٤ .

(٢) صبح الأعشى ، ج١٣ ، ص١٠٤ — ١٤٣ .

الخطيرة والمعلومات الجديدة التى وردت فى كتاب «صبح الأعشى» عن الإقطاع والنظام الإقطاعى فى مصر العصور الوسطى ، علماً بأن القلقشندى يظهر أسفه العميق لأن الأمور على أيامه خرجت عن القواعد الشرعية ، فلم يعد الحكام يلتزمون بحكم الشريعة فى الإقطاع « وعمت بذلك البلوى والله المستعان فى الأمور كلها »(١) .

ولم يقف الأمر فيما كتبه القلقشندى عند حد ذكر صـور للكتب والتواقيع التى كانت تكتب عن السلاطين إلى الأمراء المقطعين ، وما كانت تحويه هذه التواقيع من معان عميقة ووصايا للمقطع بمراعاة العدالة فى الرعية وحسن تصريف شئون البلاد المقطعة ...(٢) وإنما يشير القلقشندى إلى أن الإقطاع فى عصر المماليك لم يقتصر على الأرض ، وإنما أقطعت سائر الأموال كالخراج والجزية والمكوس والضرائب وغيرها (٣) . والمعروف أن أرض مصر قسمت فى عصر المماليك إلى أربعة وعشرين قيراطا ، أربعة للسلطان وعشرة للأمراء وعشرة للأجناد . على أن ظروفاً عديدة فى ذلك العصر استدعت إعادة التوزيع الإقطاعى ، وهى العملية التى كانت تسمى الروك – بمعنى فك الزمام ومسح الأرض وتعيين حدودها وإعادة توزيعها بين المقطعين – وأشهرها الروك الحسامى نسبة إلى حسام الدين لاجين ، والروك الناصرى نسبة إلى الناصر محمد . وبتوزيع الإقطاعات تسجل كافة البيانات الخاصة بها فى ديوان الجيش أو ديوان الإقطاع ، الذى يصفه القلقشندى بأنه « مظنة الإقطاعات » (٤) . فإذا أقطع أحد الأمراء أرضا فإنه « يتصرف فيها كيف شاء »(٥) ، على قول القلقشندى. ويفهم من صبح الأعشى أن منح الإقطاع كان محوطا بمجموعة من الحقوق والواجبات الإقطاعية ، المتبادلة بين السلطان من ناحية والشخص

---

(١) صبح الأعشى ، ج١٣ ، ص١١٧ .
(٢) صبح الأعشى ، ج١٣ ، ص١٤٤ ومابعدها .
(٣) صبح الأعشى ، ج٦ ، ص٤٥٠ .
(٤) صبح الأعشى ، ج١٣ ، ص١٥٣ .
(٥) صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٥٠ .

المقطع من ناحية أخرى : وأول واجب على المقطع هو أن يحلف يمين الولاء للسلطان ، ويقوم كاتب الإنشاء بتسجيل أسماء من حلفوا فى أوراق خاصة ، تحمل فى ديوان الإنشاء «لتخلد فيه» على قول القلقشندى ،(١) كذلك يلتزم المقطع بدفع الخراج المقرر على إقطاعه لأن هذا الخراج من أهم مصادر بيت المال ، فى الوقت الذى صارت الإقطاعات « هى جل البلاد فى الوجهين البحرى والقبلى (٢) » . وكان السلطان يقول للمقطع فى التوقيع الصادر منه إليه «وقد اخترناك لخدمتنا على بصيرة(٣)» ، مما يشير إلى أن المقطع كان ملزما بخدمة السلطان وخاصة تقديم الطاعة والخدمة العسكرية . ومن ناحية أخرى كان المقطع يحظى بحقوق ، منها ما هو أدبى مثل الألقاب العديدة التى أضفاها السلاطين على المقطعين ، فضلا عن مراعاة قواعد بروتوكول خاصة فى مكاتباتهم (٤) . هذا عدا مظاهر التشريف التى أضفيت على المقطعين — وخاصة كبار الأمراء — مثل دق الطبول على أبوابهم . أما الحقوق المادية للمقطع ، فأهمها الخلع والملابس والخيول والأطعمة التى كانت تصرف لهم فى مختلف المناسبات (٥) .

* * *

هذا عرض موجز لبعض ما استطعنا ذكره فى هــذه العجالة عن نظم الحكم والإدارة فى مصر فى ضوء ما ذكره القلقشندى فى موسوعته صبح الأعشى . فإذا تركنا هذا الجانب ونظرنا إلى الجانب الاقتصادى وجدنا أنفسنا أمام ثروة ضخمة من المعلومات التى حواها كتاب صبح الأعشى والتى تجعل منه فى نظرنا مرجعاً هاماً لتاريخ مصر الاقتصادى فى العصور الوسطى . ونستطيع أن نقسم المعلومات التى نستقيها من صبح الأعشى فى هذا الجانب إلى عدة أقسام هى : الزراعة ، المعاملات الداخلية ، المالية العامة ، التجارة الخارجية :

---

(١) صبح الأعشى ، ج١٣ ، ص٣١٩ .
(٢) صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٤٥٨ .
(٣) صبح الأعشى ، ج١٣ ، ص١٥١ .
(٤) صبح الأعشى ، ج٥ ، ص٤٨٨ ، ٤٩٤ — ٤٩٥ .
(٥) صبح الأعشى ، ج٦ ، ص ٥٢ — ٥٣ .

أما عن الزراعة فإن القلقشندى يشير إلى النيل وأهميته للبلاد والعباد بوصفه الشريان الذى ينقل الماء والحيـــاة إلى أرض مصر ، ويربط بين ذلك وبين الاهتمام بأمر الجسور المنتشرة فى أنحاء البلاد لتنظيم عملية الرى وضمان وصول مياه الفيضان إلى كافة الأراضى الزراعية . ويقسم القلقشندى هذه الجسور إلى قسمين : أولها الجسور السلطانية « وهى الجسور العامة الجامعة للبلاد الكثيرة ، التى تعمر فى كل سنة من الديوان السلطانى بالوجهين القبلى والبحرى ، ولها جراريف ومحاريث وأبقار مرتبة على غالب البلدان بكل عمل من أعمالها . وقد جرت العادة أن يجهز لكل عمل فى كل سنة أمير بسبب عمارة جسوره ، ويعبر عنه بكاشف الجسور فى العمل الفلانى ... » ويضيف القلقشندى أن لهذه الجسور خولة ومهندسين لكل عمل ، يقومون بخدمة كاشف الجسور (١) . أما النوع الثانى من الجسور ، فهى الجسور البلدية ؛ ويفهم من كلام القلقشندى أن هذا النوع تستفيد منه منطقة معينة محدودة ، لا البلاد كلها . ولهذا لا تتكفل الدولة بصيانتها والإشراف عليها — كما هو الحال فى الجسور السلطانية — وإنما « هى خاصة ببلد دون بلد ، ويتولى عمارتها المقطعون بالبلاد من الأمراء والأجناد وغيرهم ، من أموال البلاد الجارية فى إقطاعهم »(٢) .

ويتكلم القلقشندى عن أنواع الأراضى فى مصر ، ومدى خصوبتها والإقبال على زراعتها : وبناء على هذا تتفاوت الرغبة فيها وتختلف قيمتها باختلاف قيمة ما يزرع فيها . ثم يقسمها — نقلا عن ابن مماتى — إلى ثلاثة عشر نوعا ، أولها الباق « وهو خير الأرضين وأغلاها قيمة وأوفاها سعراً وقطيعة ؛ لأنها تصلح لزراعة القمح والكتان . وآخرها السباخ « وهو أرض غلب عليها الملح ، فملحت حتى لم ينتفع بها فى زراعة الحبوب ، وهى أردى الأرضين » (٣)

(١) صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٤٤٨ — ٤٤٩ .
(٢) صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٤٤٩ .
(٣) صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٤٥٠ — ٤٥٢ .

وفيما عدا ذلك فإن عناية حكام مصر بأمر الزراعة ــ وخاصة فى العصرين الأيوبى والمماليكى ــ ظهرت ضمنا فى كثير من التواقيع والمناشير الإقطاعية التى يوصى فيها السلطان الأمير المقطع بتعمير البلاد المقطعة له وتأمينها « وإهداء الغبطة إلى أفئدة أهلها حتى تسمع باغتباطها، وعند ذلك يتحدث كل منهم بلسان الشكور » (١) .

هذا عن الزراعة ، أما المعاملات بين الناس فكانت تتم وفق وحدات خاصة فى الموزونات والمكيلات والمقيسات . ويقول القلقشندى فى صبح الأعشى إن وحدة الموازين فى حاضرة البلاد ــ وهى القاهرة والفسطاط ــ كانت الرطل المصرى ، وهومائة وأربعة وأربعون درهما ، وأوقيته اثنا عشر درهما ، وعنه يتفرع القنطار المصرى وهو مائة رطل . ويفهم من كلام القلقشندى أن الرطل لم يكن واحداً فى جميع أنحاء الدولة ، وإنما اختلف من مكان إلى آخر . أما المكيلات ، فكان وحدتها القدح ، وكان « بمصر أقداحا مختلفة المقادير أيضا كالأرطال ، ولكل ناحية منها قدح مخصوص بحسب إردبها . » على أن الوحدة السائدة بالعاصمة كانت القدح المصرى وهو مائتان واثنان وثلاثون درهما ، وكل ستة عشر قدحا تسمى ويبة ، وكل ستة وتسعين قدحاً تسمى إردبا . ومرة أخرى يؤكد القلقشندى أنه بنواحى مصر فى الوجهين القبلى والبحرى أرادب متفاوتة يبلغ مقدار الإردب فى بعضها إحدى عشرة ويبة بالمصرى (٢)

أما المقيسات فتشمل الأراضى والأقمشة : وقال القلقشندى إن الأرض صنفان : أرض الزراعة وتقاس بالقصبة الحاكمية نسبة إلى الحاكم بأمر الله الفاطمى ، وطولها ثمانية أذرع بذراع اليد التى تساوى ست قبضات بقبضة إنسان معتدل ، وكل قبضة أربعة أصابع : أما أرض البنيان فتقاس بذراع يعرف بذراع العمل ، طوله ثلاثة أشبار ،

---

(١) صبح الأعشى ، ج١٣ ، ص ١٤٧ .

(٢) صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٤٤٥ .

بشبر رجل معتدل . وأما الأقمشة فيقول القلقشندى أنها تقاس فى القاهرة بذراع طوله ذراع بذراع اليد وأربع أصابع مطبوقة « ويزيد عليه ذراع القماش بالفسطاط بعض الشيء، وربما زاد فى بعض نواحي الديار المصرية أيضا نحو ذلك . ولغير القماش من الأصناف أيضا كالحصر وغيرها ذراع يخصه » (١) .

ويعطينا القلقشندى فكرة عن الأسعار فى عصره ، فيقول: إن سعر إردب القمح بلغ خمسة عشر درهما ، والأرز فوق ذلك ، واللحم حوالى نصف درهم للرطل ، والدجاج الجيد منه درهمين إلى ثلاثة للطائر ، والسكر الرطل بدرهم ونصف والمكرر منه بدرهمين ونصف . ويقول القلقشندى: إن هذه الأسعار بقيت إلى ما بعد سنة ٧٨٠ ﻫ «عندما غلت الأسعار وتزايدت فى كل صنف من ذلك وغيره (٢)» .

أما عن المالية العامة لمصر فى العصور الوسطى ، فيحكى القلقشندى كثيرا من المعلومات الطريفة عنها فى كتابه صبح الأعشى ، والمعروف أن المالية العامة تشمل الإيرادات والمصروفات . أما الإيرادات فعبارة عن الموارد الأساسية لبيت المال فى ذلك العصر . وهنا نجد القلقشندى يقسم لنا هذه الموارد إلى قسمين : شرعية وغير شرعية : فالموارد الشرعية أولها المال الخراجى ، أى ضريبة الأرض أو الخراج، وكان أكثر خراج الوجه القبلى — على أيام القلقشندى — غلالا عينية من قمح وشعير وحمص وفول وعدس وبسلة : والأغلب أن يؤخذ عن خراج كل فدان من الأصناف المذكورة ، ما بين إردبين إلى ثلاثة ، بكيل تلك الناحية . هذا فى حين أن خراج معظم بلاد الوجه البحرى دراهم ، أى نقداً وليس عينا . والمورد الثانى من الموارد الشرعية لبيت المال كان ما يتحصل مما يستخرج من المعادن مثل الزمرد والشب والنطرون ، وجميعها احتكرها سلاطين مصر لشدة طلب الأوربيين عليها

---

(١) صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٤٤٦ — ٤٤٧ .

(٢) صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٤٤٧ — ٤٤٨ .

« وليس لأحد أن يبيعه أو يشتريه سوى الديوان السلطانى ، ومتى وجد مع أحد شيء من صنفه استهلك (صودر) (١) » . وبعد ذلك يأتى المورد الثالث لبيت المـــال وهو الزكاة . وقد أصبح الوضع فى عصر المماليك أن من تجب عليهم الزكاة صاروا يفرقونها بأنفسهم ، ولم يبق ما يؤخذ من الناس فى صورة زكاة إلا نوعان : الأول ما يؤخذ من التجار على ما يدخلون به إلى البلاد من ذهب أو فضة ، وهذه الضريبة تبلغ حوالى ٢ أو٢ ونصف فى المائة . والثانى ما يؤخذ من مواشى أهل برقة ـــ من الغنم والإبل ـــ عند وصولهم إلى البحيرة للرعى (٢) . أما المورد الرابع فهو الجوالى أى الجزية المقررة على أهل الذمة فى كل سنة ، وكانت ضئيلة القيمة فى عصر القلقشندى ، إذ تراوحت بين خمسة وعشرين درهما وعشرة دراهم تستأدى معجلة (مقدما) فى شهر رمضان من كل عام . والمورد الخامس هو ما يؤخذ من تجار الكفار الواصلين فى البحر إلى الديار المصرية ، وقد بلغت هذه الضريبة الخمس فى عصر المماليك « وربما زاد ما يؤخذ منهم على الخمس أيضا . (٣) » وبعد هذا يأتى المورد السادس لبيت المال وهو المواريث الحشرية ، ويقصد بها مال من يموت وليس له وارث خاص . ولهذه الجهة ناظر يولى من قبل السلطان ويحمل المتحصل منها إلى بيت المال . (٤) أما المورد السابع لبيت المال فهو ما يتحصل من دار الضرب بالقاهرة ، وكان يضرب بها ثلاثة أصناف ، هى الذهب والفضة النقرة والفلوس النحاس . ويقصد بهذا المورد الضريبة التى تؤخذ من صاحب الذهب أو الفضة أو النحاس مقابل ضرب معدنه وتحويله إلى دنانير أو دراهم أو فلوس ، بعد ضبط عيارها (٥) .

هذا عن الموارد الشرعية لبيت المـــال ، أما عن الموارد غير

---

(١) صبح الأعشى ، ج٣ ، ص ٤٥٩ ـ ٤٦٠ .

(٢) صبح الأعشى ، ج٣ ، ص ٤٦١ ـ ٤٦٢ .

(٣) صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٤٦٣ .

(٤) صبح الأعشى ، ج٣ ص٤٦٤ .

(٥) صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٤٦٥ ـ ٤٦٨ .

الشرعية فيقصد بها القلقشندى المكوس المتنوعة التى لا يوجد لها سند شرعى يبرر فرضها . ومعظم هذه المكوس التى ذكرها القلقشندى مفروضة على المتاجر — وبخاصة التوابل — التى كان الكارمية يجلبونها إلى مصر ، فضلا عما كان يؤخذ بحاضرة الديار المصرية — الفسطاط والقاهرة — من مكوس وضرائب ، مثل «مكوس الملاهى والقراريط على الأملاك المبيعة » . وكان صلاح الدين الأيوبى قد أبطل هذه المكوس غير الشرعية ، ولكنها عادت أشد ما تكون — وخاصة فى عصر المماليك — « فعمت البلوى بهذه المكوس ، وخرجت فى التزيد عن الحد »(١) .

أما عن السياسة النقدية ، فنجد القلقشندى يوضح لنا فى كتابه « صبح الأعشى» أنواع العملة المتداولة فى مصر على عصر سلاطين المماليك ، وهى الدنانير الذهبية والدراهم الفضية والفلوس النحاسية . والمفروض فى علم الاقتصاد أن الذهب هو أساس النقد دائماً ، وبه تقوم بقية النقود من فضة ونحاس . وقد أشار القلقشندى إلى أن العبرة فى وزن الدنانير بالمثاقيل ، وضابطها أن كل سبعة مثاقيل زنتها عشرة دراهم من الدراهم الآتى ذكرها ، والمثقال معتبر بأربعة وعشرين قيراطاً . وقد لجأ بعض سلاطين المماليك إلى ضرب دنانير ذهبية يتعامل بها الناس ، من ذلك أن الأمير صلاح الدين بن عرام — نائب الإسكندرية فى عهد السلطان الأشرف شعبان بن حسين — ضرب دنانير زنة كل منها مثقال نقش على أحد وجهيها « محمد رسول الله » ، وعلى الوجه الآخر « ضرب بالإسكندرية فى الدولة الأشرفية شعبان بن حسين عز نصره » . كذلك ضرب الأمير يلبغا السالمى — فى عهد السلطان الناصر فرج بن برقوق — دنانير زنة كل واحد منها مثقال ، كتب فى وسطها كلمة « فرج » . على أنه يفهم من القلقشندى أن الدنانير التى سكت فى مصر فى عصر

---

(١) صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٤٧٠ ـ ٤٧١ .

سلاطين المماليك تعرضت للتلاعب ، ولم تكن ثابتة على حال واحد « وربما كان منها مازنته مثقال ونصف أو مثقالان ، وربما كان نصف مثقال أو ربع مثقال ، إلا أن الغالب فيها نقص أوزانها ، وكأنهم جعلوا نقصها فى نظير كلفة ضربها . . . (١) » .

وفى الوقت الذى اعترى الدنانير المماليكية ذلك الخلل ، وتعرضت لتلاعب السلاطين والأمراء بغية الربح غير المشروع ، مما أفقدها ثقة المتعاملين ، يذكر القلقشندى أن البندقية ضربت فى القرن الثالث عشر للميلاد (السابع للهجرة) عملة ذهبية عرفت باسم الأفرنتية أو الدوكات ، امتازت بعيارها الصحيح ووزنها الثابت ، وسمكها المحدد ، مما جعل الناس يقبلون على التعامل بهـا . وقد وصف القلقشندى فى صبح الأعشى هذه العملة الأوربية ، فقال: إنها «معلومة الأوزان ، كل دينار منها معتبر بتسعة عشر قيراطاً ونصف قيراط من المصرى . . . وهذه الدنانير مشخصة على أحد وجهيها صورة الملك الذى تضرب فى زمنه ، وعلى الوجه الآخر صورتا بطرس وبولس الحواريين اللذين بعث بهما المسيح عليه السلام إلى رومية . ويعبر عنها بالأفرنتية جمع أفرنتى وأصله أفرنسى ... ويعبر عنه أيضاً بالدوكات ، وهذا الاسم فى الحقيقة لا يطاق عليه إلا إذا كان ضرب البندقية من الفرنجة ، وذلك أن الملك اسمه عندهم دوك...»(٢) . ولم يلبث أن انتشر الدوكات البندقى وعم استعماله فى مصر والشام وغيرهما من بلدان المسلمين ، بعد أن حاز ثقة المتعاملين ، الأمر الذى أزعج سلاطين المماليك ، فحاول السلطان الناصر فرج بن برقوق عمل دنانير جديدة « على زنة الدنانير الأفرنتية المتقدمة الذكر » ، بمعنى أنه جعلها ثابتة الوزن ، وبزنة مثقال تماماً . وقد عرفت هذه الدنانير بالناصرية ، نسبة إلى السلطان الناصر فرج ، وكثر وجودها

---

(١) صبح الأعشى ، ج٣ ، ص ٤٤٠ — ٤٤١ .

(٢) صبح الاعشى ، ج ٣ ، ص ٤٤١ .

وعم استعمالها ، ولكنها كانت مع ذلك تقل بمقدار عشرة دراهم عن الدنانير الإفرنتية . وهكذا ظل « صرف الذهب بالديار المصرية لايثبت على حال ، بل يعلو تارة ويهبط أخرى بحسب ما تقتضيه الحال» ، على قول القلقشندى(١) :

أما الدراهم الفضية أو الدراهم النقرة ، فالمفروض فيها أن يكون ثلثاها من فضة وثلثها من نحاس ، والعبرة فى وزنها بالدرهم ، وهو معتبر بأربعة وعشرين قيراطاً ، « والدرهم من الدينار نصفه وخمسه ، وإن شئت قلت سبعة أعشاره ، فيكون كل سبعة مثاقيل عشرة دراهم »(٢) .

وأما الفلوس النحاسية — ومفردها فلس — فكانت أقل أنواع العملات . ويذكر القلقشندى أن السلطان الناصر حسن عنى بضرب فلوس جيدة سنة ٧٥٩ هـ اشتهرت بالجدد جمع جديد ، زنة كل فلس منها مثقال « فجاءت فى نهاية الحسن ، وبطل ما عداها من الفلوس ، وهى أكثر مايتعامل به أهل زماننا » . ولكن الفلوس هى الأخرى تعرضت للتلاعب ، فأنقص وزنها عن المثقال «حتى صار فيها ما هو دون الدرهم ، وصار تكوينها غير مستدير » . واختلف تقييمها بالميزان « فكانت توزن بالقبان كل مائة وثمانية عشر رطلا بالمصرى : بمبلغ خمسمائة درهم ، ثم أخذت فى التناقص لصغر الفلوس ونقص أوزانها ، حتى صار كل مائة وأحد عشر رطلا بمبلغ خمسمائة . » ثم حدث للفلوس ما يتكرر حدوثه حتى العصور الحديثة عندما يغلو سعر المعدن المصنوعة منه ، إذ يذكر القلقشندى أن خلو النحاس وقلة الوارد منه إلى الديار المصرية أدى إلى اختفاء الفلوس النحاسية ، حيث أقبل التجار على جمعها للاستفادة مما فيها من معدن . هذا على أن كثيرا من التجار حملوا الفلوس النحاسية المضروبة فى مصر إلى الحجاز واليمن

(١) صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٤٤٢ .

(٢) صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٤٤٣ .

وغيرهما من البلاد ، الأمر الذى « يوشك إن دام هذا أن تنفد الفلوس من الديار المصرية ، ولا يوجد ما يتعامل به الناس !! (١) » .

على أن ثمة جانباً خطيرا فى تاريخ مصر الاقتصادى — هو جانب التجارة — لا يبدو صريحا فى كتاب صبح الأعشى ، وإن كان من الممكن بشىء من المثابرة والمتابعة استخلاص كثير من المعلومات الهامة التى تلقى ضوءا ساطعا على التجارة الخارجية لمصر فى العصور الوسطى ، وخاصة فى عصر سلاطين المماليك . والمعروف أن مصر كانت دائما أبدا — فى مختلف عصور التاريخ — معبرا هاما من معابر التجارة بين الشرق والغرب ، ولذا كان من الطبيعى قبل شق قناة السويس ، أن تكون لها موانى نشيطة على ساحل البحر الأحمر — أو القلزم — تستقبل تجارة الشرق وخاصة من التوابل ، لتنقل إلى القاهرة وموانى البحر المتوسط ، حيث يفد التجار الأوربيون يجلبون بضائع بلادهم من جهة ويشترون توابل الشرق من جهة أخرى . وهنا نجد القلقشندى فى صبح الأعشى يوضح لنا طريق التجار عبر مصر ، فيقول : إن التجار الكارمية كانوا يحملون بضائعهم فى بحر القلزم من جهة الحجاز واليمن وما والاهما إلى عيذاب والقصير ، ومن هناك تنقل البضائع عبر الصحراء الشرقية حتى قوص « ومن قوص إلى فندق الكارم بالفسطاط فى بحر النيل » (٢) :
أما موانى مصر على البحر الأحمر ، فقد حددها القلقشندى بأربع ، أولاها عيذاب وكان رؤساء المراكب يفضلونها لوقوعها مقابل جدة فكان يسهل التعدية إليها ، وإلى الشمال من عيذاب يقع القصير وهو أقل أهمية من عيذاب وإن كانت بعض السفن تفضله « لقربه من قوص وبعد عيذاب منها » . وفى الشمال يوجد الطور ، وكانت له أهمية قديمة ، ولكن التجار قاطعوه « لما فيه من الشعب (المرجانية) الذى يخشى على المراكب بسببه » . وظل أمر الطور مهملا حتى كانت سنة ٧٨٠ هـ عندما عنى بأمره الأمير صلاح الدين

---

(١) صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٤٤٤ .
(٢) صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٤٦٨ .

ابن عوام ، فعمر فيه السفن وعندئذ قصده الناس ، ووصلت إلى الطور « مراكب اليمن بالبضائع ورفضت عيذاب والقصير » . وأخيرا كان ميناء السويس على القرب من مدينة القلزم ، ولكن هذا الميناء ظل مهملا « والدخول إليه نادر ، والعمدة على ساحل الطور كما تقدم(١) » .

هذا عن ثغور مصر ومنافذ تجارتها الخارجية على ساحل البحر الأحمر فى العصور الوسطى ، أما على ساحل البحر المتوسط ، فكان لمصر ثغران كبيران ، أولهما دمياط « وهى مدينة حسنة عند مصب الفرقة الشرقية من النيل فى بحر الروم ، ذات أسواق وحمامات » . ولا يخفى علينا أن دمياط كانت ميناء مصر الأول على البحر المتوسط طوال شطر كبير من العصور الوسطى ، لوقوعها على مصب النيل مما أدى إلى سهولة ارتباطها بداخلية البلاد من ناحية ، ولقربها من بلاد الشام من ناحية أخرى . ولعل نشاط دمياط التجارى وأهميتها الاقتصادية جعلتها مطمعا للصليبيين « فتسلطت عليها الفرنج ، وملكتها مرة بعد مرة » ، على قول القلقشندى . ولعل تعرض دمياط لحملتين صليبيتين كبيرتين فى النصف الأول من القرن السابع الهجرة (الثالث عشر للميلاد) جعل المسلمون يخربون « أسوارها فى سنة ثمان وأربعين وستمائة (١٢٥٠ م) خوفا من استيلائهم (الفرنج) عليها » . (٢)

وهكذا تجمعت عدة عوامل لتجعل الإسكندرية بعد منتصف القرن السابع للهجرة (الثالث عشر للميلاد) ميناء مصر الأول على البحر المتوسط حتى صارت « أجل ثغور الديار المصرية » . وقد أفاض القلقشندى فى وصف الإسكندرية على أيامه ، وما بها من قصور ومنشآت وبساتين وغيرها . وكان أن أصبحت الإسكندرية مقصد التجار « وإليها تهوى ركائب التجار فى البر والبحر ، وتمير من قماشها جميع أقطار الأرض ، وهى فرضة بلاد المغرب ، والأندلس ، وجزائر الفرنج ، وبلاد الروم والشام » . (٣) غير أن نشاط الإسكندرية الاقتصادى جعلها مطمع

---

(١) صبح الأعشى ، ج٣ ، ص ٤٦٨ ــ ٤٦٩ .

(٢) صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٤٠٦ .

(٣) صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٤٠٨ .

الصليبيين فى أواخر العصور الوسطى، فصرفوا النظر عن دمياط ليوجهوا ضربة قاسية إلى الإسكندرية سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٥ م) عندما هاجمها بطرس لوزجنان ملك قبرص . ويشير القلقشندى إلى ما فعله الصليبيون فى تلك السنة بالإسكندرية ، « حين طرقها العدو المخذول من الفرنج سنة سبع وستين وسبعمائة ، واجتاح أهلها وقتل وسبى » . ويربط القلقشندى بين تلك الحملة الصليبية التى تعرضت لها الإسكندرية ، وبين تحويلها من مجرد ولاية صغيرة إلى « نيابة كبرى تضاهى نيابة طرابلس وحماة وما فى معناهما » . (١)

هذا عن ثغور مصر وموانيها التجارية فى العصور الوسطى. أما عن علاقات مصر التجارية مع دول الشرق والغرب جميعا فى تلك العصور ، فنجد عنها الشيء الكثير فى كتاب صبح الأعشى ، وذلك بين ثنايا الكتب الواردة إلى الأبواب السلطانية أو الصادرة عنها إلى ملوك وحكام الشرق والغرب. ويضيق بنا المجال عن تتبع عشرات الكتب التى أوردها القلقشندى والتى لا تخلو معظمها من إشارات إلى علاقات تجارية بين حكام مصر من ناحية وتلك الدول من ناحية أخرى . ولكن يكفى أن نضرب مثلين ، أحدهما برسالة من الشرق ، والآخر برسالة من الغرب . أما الأولى فيقول القلقشندى : إنها وصلت إلى مصر سنة ٦٨٢ هـ (١٢٨٣ م) من صاحب مملكة سيلان « وهى من جملة ممالك الهند » يقول فيها : « إن عنده الجواهر واللآلئ والفيلة والقماش الكثير من البز وغيره ، وكذلك البقَّم والقرفة وجميع ما يطلب الكارم . وأن عنده فى كل سنة عشرين مركبا يسيرها إليه ، فيطاق مولانا السلطان التجار إلى البلاد » . (٢) أما الرسالة الثانية فبعث بها ميكائيل دوق البندقية سنة ٨١٤ هـ (١٤١١م) ، يقول فيها مخاطبا سلطان مصر « السلطان المعظم ملك الملوك (فرج الله) ناصر الملة الإسلامية ، خلد الله سلطانه . يقبل الأرض بين يديه نقولا

(١) صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٤٠٨ .

(٢) صبح الأعشى ، ج٨ ، ص٧٧ .

دوج البنادقة ، ويسأل الله أن يزيد عظمته ؛ لأنه ناصر الحق ومؤيده ، وموئل الممالك الإسلامية كلها . وينهى ما عنده من الشوق والمحبة لمولانا السلطان ، وأنه لم تزل أكابر التجار والمحتشمين والمترددين من الفرنج إلى الممالك الإسلامية شاكرين من عدل مولانا السلطان وعلو مجده ، وتزايد الدعاء ببقاء دولته . وقد رغب التجار بالتردد إلى مملكته الشريفة بواسطة ذلك ... » (١).

أما عن موقف حكام مصر من ذلك النشاط التجارى الذى هيأه لهم موقع بلادهم ، فيبدو مما ذكره القلقشندى أنهم عملوا على الاستفادة منه استفادة كاملة . وثمة رسالتان على جانب خطير من الأهمية وردتا فى صبح الأعشى ، وهما جديرتان بعناية الباحثين نظرا لما فيهما من معان عميقة توضح حرص حكام مصر على إغراء التجار الأجانب على القدوم إلى مصر ببضائعهم ومتاجرهم ، لبيعها من ناحية وابتياع ما يلزمهم من ناحية أخرى . أما عن الرسالة الأولى فصادرة عن السلطان المنصور قلاون سنة ٦٧٨ هـ للقاضى جمال الدين بن بصاصة ناظر ثغر الإسكندرية ، وفيها يوصى السلطان ناظر الثغر بأن يحرص على « معاملة التجار الواردين إليه بالعدل الذى كانوا ألفوه ، والرفق الذى نقلوا أخباره السارة عنه ، فإنهم هدايا البحور ، ودوالبة الثغور ، ومن ألسنتهم يطلع على ما تجنه الصدور ، وإذا بذر لهم حب الإحسان نشروا له أجنحة مراكبهم كالطيور. وليعتمد معهم ما تضمنته المراسيم الشريفة المستمرة الحكم إلى آخر وقت ، ولا يسلك معهم حالة توجب لهم الحزائن والتظلم والمقت ، وليواصل بالحمول إلى بيت المال المعمور ، وليملأ الخزائن السلطانية من مستعملات الثغر وأمتعته وأصنافه لكل ما تستغنى به عن الواصل فى البرور والبحور ، وليصرف همته العالية إلى تدبير أحوال المتاجر بهذا الثغر ، بحيث ترتفع رءوس أموالها وتنمى ، وتجود سحائب فوائدها وتهمى » (٢) ومن الواضح أن هذه

(١) صبح الأعشى ، ج٨ ، ص١٢٣ — ١٢٤ .
(٢) صبح الأعشى ، ج١١ ، ص ٤١٩ — ٤٢١ .

الرسالة تعتبر فى حد ذاتها نموذجا رائعا ودليلا قاطعا على مدى حرص حكام مصر — وخاصة فى عصر سلاطين المماليك — على تقديم كافة التسهيلات للتجار الأجانب المترددين على الثغور المصرية ، وذلك لجذبهم إلى البلاد ، مما يعود عليهم بالنفع والفائدة .

أما الرسالة الثانية ، فهى عبارة عن منشور أصدره السلطان المنصور قلاون إلى تجار الصين والهند والسند واليمن والعراق وبلاد الروم . . يغريهم على القدوم إلى مصر بمتاجرهم وأموالهم ، ويعدهم بتوفير الأمن والطمأنينة والعدالة وحسن المعاملة لهم » . . . ومن يؤثر الورود إلى ممالكنا إن أقام أو تردد ، النقلة إلى بلادنا الفسيحة أرجاؤها ، الظليلة أفياؤها وأفناؤها ، فليعزم عزم من قدر الله له فى ذلك الخير والخيرة ، ويحضر إلى بلاد لايحتاج ساكنها إلى ميرة ولا إلى ذخيرة ؛ لأنها فى الدنيا جنة عدن لمن قطن ، ومسلاة لمن تغرب عن الوطن . . فمن وقف على مرسومنا هذا من التجار المقيمين باليمن والهند ، والصين ، والسند ، وغيرهم ، فليأخذ الأهبة فى الارتحال إليها ، والقدوم عليها ، ليجد الفعل فى المقال أكبر ، ويرى إحسانا يقابل فى الوفاء بهذه العهود بالأكثر ... ومن أحضر معه بضائع من بهار وأصناف تحضرها تجار الكارم ، فلا يخاف عليه فى حق ، ولايكلف أمراً يشق ... «.(١)

ونحن إذا اعتمدنا على الوثائق السابقة الواردة فى كتاب صبح الأعشى للاستشهاد بحرص حكام مصر على تشجيع التجارة والتجار وإكرام وفادتهم فى مصر وتوفير العدالة وحسن المعاملة لهم ، فلا يفوتنا أن نشير إلى بعض وثائق أخرى أوردها القلقشندى تشير إلى ما كان يتعرض له أحيانا التجار الأوربيون من الظلم وسوء المعاملة فى مصر . من ذلك أن دوق البندقية أرسل سنة ٨١٤ هـ يشكو مما حدث فى العام السابق ، من « أن مولانا السلطان مسك قنصل البنادقة والمحتشمين من التجار بثغر الإسكندرية المحروس ، وزنجرهم بالحديد ، وأحضرهم إلى القاهرة ،

---

(١) صبح الأعشى ، ج١٣ ، ص ٣٤٠ ، ٣٤١ .

وحصلت لهم البهدلة بين جنوسهم ، والضرر والقهر الزائد ، وكسر حرمتنا بين أهل طائفتنا ... » (١) ورأينا الخاص فى هذا الصدد ، أن الطابع الغالب كان الإحسان إلى التجار الأجانب ، وحسن استقبالهم ومعاملتهم . أما ما عدا ذلك فلا يعدوا حالات قليلة نادرة كانت صدى مباشراً للتوتر السائد بين المسيحيين والمسلمين فى عصر الحروب الصليبية وذيولها .

. . .

أما عن الحياة الاجتماعية فى مصر فى العصور الوسطى ، فنخرج من كتاب صبح الأعشى بصورة واضحة عن مظاهر الترف والثراء التى أحاطت بالبلاط ، سواء فى عصر الخلفاء الفاطميين أو عصر سلاطين المماليك . ولعل الظاهرة التى تسترعى الانتباه هى أن القلقشندى فى صبح الأعشى لايخص الدولة الأيوبية بجزء مستقل من كتابته ، وإنما يدمج الدولة الأيوبية فى الدولة المماليكية ، ويتكلم عما كان عليه « ترتيب المملكة من ابتداء الدولة الأيوبية وإلى زماننا » . وربما كان السر فى ذلك هو ما سبق أن أشرنا إليه من أن كثيرا من النظم والأوضاع التى سادت أيام المماليك إنما كانت فى حقيقة الأمر استمرارا لأصول ظهرت أيام الأيوبيين. على أن ثمة حقيقة أخرى هامة ينبغى أن نضعها دائما موضع الاعتبار ، هى أن الدولة الأيوبية كانت وليدة الحروب الصليبية ، وجاء ظهورها نتيجة لتيار الجهاد الدينى ضد الصليبيين ، وبالتالى فإن هذا التيار الدافق حال دون الإسراف فى مظاهر الترف والفخفخة التى أحاطت بالبلاط الفاطمى من ناحية والبلاط المماليكى من ناحية أخرى .

وثمة ملحوظة أخرى ، هى أننا فى دراستنا لكتاب صبح الأعشى لاستخلاص صورة عن الحياة الاجتماعية بمصر فى العصور الوسطى ، تواجهنا حقيقة هامة هى أن القلقشندى لا يهتم إلا بإبراز ما يتعلق بحياة الحكام دون غيرهم من طبقات الشعب . ولا يخفى علينا أن القلقشندى

---

(١) صبح الأعشى ، ج٨ ، ص١٢٣ - ١٢٤ .

كتب كتابه صبح الأعشى فى غرض معين هو صناعة الإنشاء ، وأن ديوان الإنشاء فى حد ذاته يمثل جهازا من أرفع أجهزة الدولة وأكثرها ارتباطاً « بالأمور السلطانية »(١) بحيث أن صاحبه « يكاد ألا يكون عند الملك أخص منه ولاألزم لمجالسته »(٢) . وهكذا لا ننتظر من القلقشندى مهما يستطرد فى كتابه أن يتعرض كثيرا لأوضاع عامة الشعب والمظاهر الاجتماعية العامة للأمة ، وإنما هو يتكلم عن الخلفاء والملوك ، فإذا أشار إلى الأعياد الدينية والقوميـــة ، فإنه يفعل ذلك ليصف دور الخليفة أو السلطان فى تلك الأعياد ، من حيث موكبه وملبسه وما ينعم به فى تلك المناسبات على رجال دولته ... وإذا ترك جانب الخليفة أو السلطان حينا ، فحسبه أن يتكلم عن « أعيان المملكة »(٣) . ممن لهم صلة مباشرة بالسلطان . وربما أشار القلقشندى إلى بعض فئات — مثل أهل الذمة — ولكن تلك الإشارات العابرة إنما تأتى فى مجمل كلامه عن الوزارة أو ضمن رسالة تصل إلى السلطان من أحد ملوك العالم المسيحى يوصيه خيرا بالقبط فى مصر . . . فهى إشارات سريعة عابرة ، قد تكون لها أهميتها ولكنها غير مقصودة .

وهكذا نجد فى كتاب صبح الأعشى وصفا رائعا لحياة الخلفاء الفاطميين العامة والخاصة ، وما أحاط بهذه الحياة من مظاهر الثراء والإسراف. فإذا كان مجلسه فى الشتاء علق المجلس بستور الديباج وفرش بالبسط الحرير ، وإن كان فى الصيف ، علق بالستور الدبيقية وفرش بطبرى طبرستان المذهب(٤) . أما إذا خرج الخليفة الفاطمى فى موكب ، فكانت تعد له ولرجاله مائة فرس مسومة ، عليها سرج موشاة بالذهب والفضة ، وبعضها مرصع بالجواهر ، وفى أعناق الخيل أطواق الذهب وقلائد العنبر ، وفى أرجلها خلاخل الذهب والفضة . . (٥) أما الأسمطة

(١) صبح الأعشى ، ج١ ، ص٩٠ .
(٢) صبح الأعشى ، ج١ ، ص١٠١ .
(٣) صبح الأعشى ، ج٤ ، ص ٣٩ .
(٤) صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٤٩٩ .
(٥) صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٥٠٤ .

الفاخرة الشهيرة التي كانت تمد بقصر الخليفة ، فأشهرها فى رمضان والعيدين ، وكانت تنصب الخليفة مائدة من فضة تعرف بالمدورة ، عليها الأوانى الذهبيات والصينى الحاوية للأطعمة الفاخرة ، ويعمر السماط بواحد وعشرين طبقا عظاما ، فى كل طبق واحد وعشرون خروفا من الشوى ، وفى كل واحد منها ثلثمائة وخمسون طيرا من الدجاج والفراريج وأفراخ الحمام ... عدا الحلوى المائعة والأطعمة الفاخرة ... (١)

فإذا انتقلنا إلى عصر سلاطين المماليك وجدنا الصورة أتم ما تكون ظهوراً ، إذا أفاض القلقشندى فى وصف حياة السلاطين ، وتكلم فى إسهاب عن البيوت السلطانية كالشراب خاناه والفراش خاناه والطشت خاناه ... وما كانت تحويه من آلات وما تضمه من موظفين وغلمان. وبلغ الأمر بسلاطين المماليك أنهم جلبوا الثلج من بلاد الشام لتبريد الماء زمن الحر صيفا ؛ وذلك « لكمال الرفاهية والأبهة » ، فقرروا له هجنا تحمله فى البر وسفنا تحمله فى البحر ، حتى يصل إلى القلعة حيث يحفظ بالشرابخاناه . وذكر القلقشندى أن السفن الخاصة بنقل الثلج ، من الشام بلغت على أيامه حوالى سبع ، كانت تأتى إلى دمياط ، ثم ينقل الثلج فى النيل إلى ساحل بولاق ، ومن هناك تحمله البغال إلى الشرابخاناه بالقلعة . أما الهجن المخصصة لنقل الثلج فكانت لها مراكز خاصة أشبه بمراكز البريد(٢). وفى القصر السلطانى كانت تمد الأسمطة الفاخرة عدة مرات يومياً ؛ ويشرف على هذه الأسمطة الأمير الجاشنكير ، ومهمته أن يأكل قبل السلطان خوفا من أن يدس عليه السم فى أكله أو شربه . (٣) واشتهر سلاطين المماليك وأمراؤهم بولعهم الشديد بألعاب الفروسية والصيد والرياضة على اختلاف أنواعها « لما فى ذلك من تمرين النفوس على اكتساب التأييد وحصول المسرة بكل ظفر جديد » (٤) وثمة

---

(١) صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٥٢٧ – ٥٢٨ .
(٢) صبح الأعشى ، ج١٤ ، ص٣٩٥ – ٣٩٧ .
(٣) صبح الأعشى ، ج٥ ، ص٤٦٠ ، ٣٦٦ .
(٤) صبح الأعشى ، ج١٤ ، ص١٦٦ .

رسائل فى الصيد ذكرها القلقشندى تعطينا صورة قوية واضحة عن أهمية رياضة الصيد فى المجتمع المماليكى ، وما أضفاه عليها المماليك من مظاهر العناية والعظمة ، (١) فضلا عما فى هذه الرسائل من وصف لطريقة الصيد واستخدام الجوارح الصائدة ؛ سواء فى صيد الطير أو صيد الوحوش.(٢)
ومن الرياضات المحببة إلى المماليك أيضا لعب الكرة ، وقد وصف القلقشندى هيئة السلطان عند خروجه للعب الكرة فى الميدان الأكبر ، كما ذكر أن السلاطين اعتادوا أن ينعموا على أمرائهم بالخيول والحوائص الذهبية فى تلك المناسبة (٣)

وبالإضافة إلى ما فى كتاب صبح الأعشى من أوصاف ذات قيمة علمية بالغة للبلاط والحياة الرسمية والمواكب السلطانية وحياة السلاطين الخاصة والعامة ، فإنه يتضمن أيضا معلومات طريفة عن زى أعيان المملكة ، سواء أرباب السيوف من الأمراء ، أو أرباب الوظائف الدينية كالقضاة والعلماء ، أو مشايخ الصوفية ؛ أو أرباب الوظائف الديوانية . (٤) كذلك نجد القلقشندى يحكى الكثير عن المناسبات والأعياد الدينية والقومية ، وما كان يحدث فيها أحيانا من انحرافات اجتماعية . (٥) وثمة إشارات فى كتاب صبح الأعشى إلى بعض الأمراض الاجتماعية التى عرفها المجتمع المصرى فى تلك العصور ، مثل الرشوة والزنا واللواط وشرب الخمور . وغيرها . (٦)

أما عن أحوال أهل الذمة ــ وخاصة النصارى ــ ووضعهم الاجتماعى فى مصر فى العصور الوسطى ، فيبدوا مما كتبه القلقشندى وأورده فى كتابه صبح الأعشى من وثائق أن وضعهم لم يكن سيئا على طول الخط ، مثلما يحرص بعض الكتاب على تصويرهم . فالقلقشندى يذكر

---

(١) صبح الأعشى ، ج١٤ ، ص١٦٥ ومابعدها .
(٢) صبح الأعشى ، ج١١ ، ص١٦٧ ــ ١٧١ .
(٣) صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٤٧ ، ٥٤ ــ ٥٥ .
(٤) صبح الأعشى ج٤ ، ص٣٩ ــ ٤٣ .
(٥) صبح الأعشى ، ج٨ ، ص ٣١٣ .
(٦) صبح الأعشى ، ج٨ ، ص٣٠٣ ــ ٣٠٤ .

أن الخليفة الحافظ لدين الله الفاطمي اتخذ بهرام النصراني الأرمني وزيرا له ، حتى إذا ما أغضب هذا الوضع المسلمين فر بهرام إلى الشام ، وكتب إلى الخليفة الحافظ « يطلب أهله وجماعته من الأرمن الذين كانوا معه في جملة جند الديار المصرية » . (١) وهذه القصة في حد ذاتها توضح لنا أن هناك جالية من المسيحيين عملت في خدمة الخلافة الفاطمية ، وأن بعض أفراد هذه الجالية وصلوا إلى أرقى مناصب الدولة . كذلك جاء في كتاب صبح الأعشى أنه حدث أيام الخليفة الآمر بأحكام الله الفاطمي أن « امتدت أيدي النصارى ، وبسطوا أيديهم بالخيانة ، وتفننوا في أذى المسلمين وإيصال المضرة إليهم » . واتخذ الخليفة المذكور كاتبا منهم ، فاستبد وطغى « وصادر عامة من بالديار المصرية ، من كاتب وحاكم وجندي وعامل وتاجر . . . » (٢) . وبرغم ما هو معروف من تعرض أهل الذمة في بعض أوقات عصر المماليك للاضطهاد ، فإن القلقشندي أتى برسالة أرسلها امبراطور القسطنطينية سنة ٨١٤ هـ إلى سلطان المماليك ، يوصيه خيرا بأقباط مصر ؛ ويعترف له أن البطاركة أرسلوا إليه يذكرون له حسن معاملة السلطان لهم ، « وكذلك على البطاركة والنصارى والكنائس على حكم مَعْدَلة السلطان ومحبته ، والوصية بهم ، ومعاونتهم ، وأجراؤهم ، على جاري عوائدهم ، من غير تشويش على ما ألفوه من إنصافكم أولا وآخراً لأجل محبتكم لنا ومحبتنا واستمرار العناية بهم ، مع أن البطاركة عرفونا أن مولانا السلطان يبرز مرسومه بمراعاتهم والإحسان إليهم ... » (٣)

. . .

أما عن السياسة الخارجية لمصر في العصور الوسطى ، فهنا نجد أنفسنا أمام ثروة ضخمة موزعة توزيعا غير متكافئ بين مختلف أجزاء كتاب صبح الأعشى . ذلك أن الهدف الأساسي من هذا الكتاب

---

(١) صبح الأعشى ، ج٨ ، ص ٣٦٠ .
(٢) صبح الأعشى ، ج١٣ ، ص ٣٦٩ .
(٣) صبح الأعشى ، ج٨ ، ص ١٢١ – ١٢٢ .

هو أن يكون دراسة لفن صناعة الإنشاء ولنظام العمل فى ديوان الإنشاء نفسه ، ومن ثم حرص القلقشندى فيه على أن يأتى بأمثلة لاحصر لها للمكاتبات المتبادلة بين حكام مصر من ناحية وبقية حكام العالم — مسلمين ومسيحيين — من ناحية أخرى ، وساعد القلقشندى على ذلك عمله بديوان الإنشاء نفسه ، مما مكنه من الوقوف على عديد من الخطابات والرسائل المتبادلة بين الطرفين ، وهو أمر لم يتسير لسائر الكتاب والمؤرخين .

وثمة حقيقة تسترعى انتباهنا عندما نتصفح كتاب صبح الأعشى لنقف على علاقات مصر الخارجية فى العصور الوسطى ، هى أن غالبية المكاتبات والمراسلات والوثائق التى أتى بها إنما ترتبط بعصر سلاطين المماليك بالذات . وقد يكون بعض السر فى هذا أن ذلك العصر هو عصر القلقشندى نفسه ، الذى عاش فيه وعاصر أحداثه واطلع فى ديوان الإنشاء على خباياه وأسراره ، وأسهم بيده فى كتابة بعض وثائقه . ولكننا ينبغى أن نضيف إلى ذلك حقيقة هامة هى أن عصر سلاطين المماليك فى مصر يمثل أنشط عصور التاريخ المصرى فى السياسة الخارجية — على الأقل فى العصور الوسطى — ، لأن مصر فى ذلك العصر كانت تبدو فى نظر كافة الدول الإسلامية فى المشرق والمغرب قاعدة الخلافة العباسية ، والقوة الضاربة التى تزود عن الإسلام والمسلمين ، فلا أقل من أن يتجه إليها ملوك المسلمين وحكامهم يخطبون ودها وينشدون تأييدها ، ويطلبون مساعدة حكامها ضد خصومهم وأعدائهم . ومن ناحية أخرى بدت مصر فى ذلك العصر فى نظر القوى غير الإسلامية وبخاصة المسيحية فى صورة مركز المقاومة الإسلامية وقلب العالم الإسلامى النابض والقوة المتحكمة فى أفضل طرق التجارة بين الشرق والغرب ، فإن لم يكن الاتصال بها ضروريا فى شئون السياسة والحرب ، فلا غنى عن الاتصال بها فى عالم التجارة والمال .

وفيما يتعلق بالروابط بين مصر والدول العربية الآسيوية ، أشار القلقشندى فى صبح الأعشى إلى بعض المكاتبات التى أرسلها السلطان صلاح الدين الأيوبى إلى الخليفة العباسى ببغداد يستنصره على الصليبيين ويخبره أن البابا قد استثارهم فى الغرب ضد المسلمين «واستخرج منهم كل منخور ، وأغلق دونهم الكنائس ، ولبس وألبسهم الحداد » حتى يستعيدوا بيت المقدس من المسلمين . ثم شرح له صلاح الدين كيف أن الصليبيين — فى الحملة الصليبية الثالثة — وصلوا إلى عكا « يمدهم البحر بمراكب أكثر عدة من أمواجه »(١) أما فى عصر المماليك فقد حدث أن سقطت الخلافة العباسية فى بغداد وأحياها الظاهر بيبرس فى القاهرة ، ومن ثم فقد أصبح الخليفة العباسى على مقربة من السلطان « ولا يكاد يفارق السلطان سفراً ولا حضراً مفارقة توجب الكتابة إليه » (٢) .

أما عن اليمن فقد ارتبطت بمصر ارتباطا قويا فى أوائل عهد الدولة الأيوبية ، عندما فتحتها جيوش صلاح الدين يوسف ونجد فى كتاب صبح الأعشى نص رسالة أرسلها صلاح الدين إلى أخيه سيف الإسلام (طغتكين) فى اليمن سنة ٥٨٤ هـ يخبره بما أحرزه من نجاح فى حروبه ضد الصليبيين ، ويطلب منه العودة ليستعين به على قتالهم(٣). واستمرت العلاقة قائمة بين مصر واليمن عقب قيام سلطنة المماليك فى مصر إذ بادر السلطان المظفر قطز بالكتابة إلى صاحب اليمن يبشره بالانتصار على التتار فى عين جالوت(٤) . كذلك أرسل السلطان المنصور قلاون كتابا إلى صاحب اليمن مبشرا إياه بنجاح جيوش المماليك فى فتح صافيتا وغيره من الحصون الصليبية التى استولى عليها المسلمون (٥). وثمة خطاب آخر ذكره القلقشندى أرسله المنصور قلاون

---

(١) صبح الأعشى ، ج٧ ، ص ١٢٧ — ١٢٨ .

(٢) صبح الأعشى ، ج٧ ، ص ١٢٦ .

(٣) صبح الأعشى ، ج٧ ، ص٣٤٠ .

(٤) صبح الأعشى ، ج٧ ، ص٣٦٠ .

(٥) صبح الاعشى ، ج ٧ ، ص ٣٥٣ — ٣٥٧ .

إلى صاحب اليمن يعزيه فى ولده الملك الصالح (١). أما الناصر محمد ابن قلاون فقد أرسل رسالة إلى صاحب اليمن يشكره فيها على تهنئته بنجاح عساكر المماليك فى غزو أرمينية الصغرى ، ويستحثه على إرسال الأموال من اليمن لاستخدامها فى الجهاد ، « وهذه المملكة اليمنية قد اجتمع فيها من الأموال مايربى عن الحصر والحد ، ويزيد على الإحصاء والعد ، لاينفق منها شيء فى الجهاد » (٢) ؛ وكان أصحاب اليمن يردون على هذه الرسائل معربين عن ولائهم لسلاطين المماليك كمايبدو من الرسالة التى أرسلها الأشرف إسماعيل صاحب اليمن إلى الظاهر برقوق سنة ٧٩٨ هـ يطلب فيها السماح له بالحج وتسفير المحمل (٣) .

ويفهم من كتاب صبح الأعشى أن ثمة مكاتبات دارت بين سلاطين المماليك من ناحية « وصاحب الهند والسند » من ناحية أخرى. كما تشير الرسائل التى أوردها القلقشندى أن حدة العنف مع مغول فارس أخذت تخف وتهدأ بعد أن اعتنق حكام مغول فارس الإسلام (٤) . أما أشراف الحجاز فكانت تربطهم رابطة التبعية بسلاطين المماليك . كذلك يروى القلقشندى أن هناك روابط ربطت عرب البحرين بسلطنة المماليك ، فكان « منهم قوم يصلون إلى باب السلطان وصول التجار يجلبون جياد الخيل وكرام المهارى واللؤلؤ وأمتعة من أمتعة العراق والهند ، ويرجعون بأنواع الحبـــاء والإنعام والقماش والسكر وغير ذلك » (٥) .

أما عن الدول الإسلامية ، فى شمال أفريقية فيفهم من كتاب صبح الأعشى أن حكامها ربطتهم بسلاطين المماليك فى مصر روابط المودة. وربما ضايق سلاطين المماليك أن بنى حفص فى تونس اتخذوا ألقاب

---

(١) صبح الأعشى ، ج٧ ، ص٣٥٧ — ٣٦٠ .
(٣) صبح الأعشى ، ج٨ ، ص ٧٢ — ٧٦ .
(٢) صبح الأعشى ، ج٧ ، ص ٣٤٤ — ٣٥٢ .
(٤) صبح الأعشى ، ج٧ ، ص٢٣٦ ومابعدها .
(٥) صبح الأعشى ج٧ ، ص٣٧٠ .

الخلافة والإمامة ، وهو الأمر الذى ظهر فى بعض عبارات ذكرها القلقشندى عندما قال عن بنى حفص أنهم « يدعون » النسب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (١) . ولكن يبدو من الخطابات المتبادلة بين بنى حفص من ناحية وسلاطين المماليك من ناحية أخرى أن الطرفين حرصا على تبادل أخبار الجهاد ضد المسيحيين فى المشرق والمغرب (٢) ؛ هذا عن العلاقة بين سلطنة المماليك ودولة الحفصيين فى تونس ، أما عن علاقة المماليك ببقية بلاد المغرب الإسلامى ، مثل بنى زيان فى تلمسان وبنى مرين فى فاس ، فيلاحظ أنها تأثرت بما كان هناك من صداقة بين سلطنة المماليك ، وبنى مرين ، فى الوقت الذى ساءت العلاقات بين بنى زيان وبنى مرين . يدل على ذلك ما جاء فى كتاب صبح الأعشى من رسائل أرسلها بنو مرين إلى سلاطين المماليك يبشرونهم بما أحرزوه من انتصارات على خصومهم بنى زيان ، وكيف أن سلاطين المماليك — وبخاصة الناصر محمد بن قلاون — أرسلوا ردودا تفيض بعبارات المحبة والإخلاص لبنى مرين (٣) . وفى الوقت نفسه أرسل أصحاب تلمسان إلى سلاطين المماليك رسائل يعبرون عن ودهم ، ولم تخل رسائلهم من مرارة لتأييد سلاطين مصر لخصومهم بنى مرين « وقد وجب شكركم علينا من كل الجهات ، واتصلت المحبة والمودة طول الحياة ، غير أن فى قلوبنا شيئا من ميلكم إلى غيرنا . . . » (٤) . ولا أدل على قوة الرابطة بين سلطنة المماليك فى مصر وملوك المغرب العربى ، من أن هؤلاء الأخيرين كانوا يقفون موقف المترقب عندما دهم خطر التتار المشرق العربى أيام هولاكو ثم أيام تيمورلنك (٥) .

---

(١) صبح الأعشى ، ج٧ ، ص٣٧٧ .

(٢) انظر نص الخطابات المتبادلة بين السلطان الظاهر برقوق من ناحية والمتوكل على الله أحمد من ناحية أخرى . صبح الأعشى ، ج٧ ص ٣٧٩ — ٣٨٤ ، ج٨ — ص ٧٩ — ٨٤ .

(٣) صبح الأعشى ، ج٧ ص ٣٨٩ ومابعدها ، ج٨ ص٩٩ .

(٤) صبح الأعشى ، ج٨ ، ص ٨٦ .

(٥) صبح الأعشى ، ج٧ ص ٤٠٧ — ٤١١ ، ج٨ ص ٧٩ — ٨٤ .

فإذا تركنا شمال إفريقية واتجهنا إلى غربها ، وجدنا عدة دول إسلامية هى البرنو والكانم والتكرور ، وجميعها ذكرها القلقشندى وأشار إلى ماكان بينها وبين مصر من صلات فى العصور الوسطى . من ذلك أن ملك البرنو أرسل رسالة إلى السلطان الظاهر برقوق يشكو له عرب جذام المجاورين له ، لأنهم أخذوا جماعة من أقاربه باعوهم فى الأقطار ، وطلب البحث عنهم وعدم بيعهم بمصر والشام (١) . أما مملكة الكانم فقد قال عنها القلقشندى : إن ملوكها من بيت قديم فى الإسلام . وقال عن مملكة مالى: إنها تسمى باسم أكبر مدنها التكرور وأن ملكها منسأ موسى وصل إلى الديار المصرية حاجاً أيام السلطان الناصر محمد بن قلاون واجتمع به ، فأكرمه السلطان الناصر محمد (٢) .

هذا عن غرب إفريقية ، أما شرقها فكانت به الحبشة ، وهى دولة مسيحية ربطتها بمصر فى تلك العصور روابط قوية نظراً لتبعية كنيسة الحبشة للكنيسة المرقسية بالإسكندرية . ويفهم من كتاب صبح الأعشى أن ملك الحبشة كان كلما خلا منصب المطرانية فى بلاده ، بادر بإرسال رسالة إلى سلطان مصر يرجوه أن يأذن لبطريرك الإسكندرية بإرسال مطران جديد إلى الحبشة (٣) ؟

وعندما يتكلم القلقشندى «عن ملوك الكفار ببلاد الشرق» فإنه يركز كلامه على مملكة الكرج من ناحية ومملكة أرمينية الصغرى من ناحية أخرى . ويشير القلقشندى إلى مابين هاتين المملكتين وبين سلطنة المماليك من عداء ، بسبب تأييدهما للمغول فى فارس ، حتى وصفهم بأنهم «للعساكر الهولاكوهية عتاد وذخر» ، وبأن «لملوك البيت الهولاكوهى عليهم حكم قاهر» (٤) .

---

(١) صبح الاعشى ، ج ٨ ، ص ٨ .
(٢) صبح الأعشى ، ج٨ ، ص ٩ – ١٠ .
(٣) صبح الأعشى ج٨ ، ص٤١ – ٤٢ .
(٤) صبح الأعشى ، ج٨ ، ص٢٧ – ٣٠ .

أما فيما يتعلق بالدولة البيزنطية فيبدو من صبح الأعشى أن الطابع الغالب على العلاقات بينها وبين سلطنة المماليك كان طابع المهادنة والسلم . ولايخفى علينا أن البيزنطيين وقفوا موقفا معاديا من الصليبيين بالشام ، الأمر الذى جعلهم يجنحون لمسالمة سلاطين المماليك . وثمة نسخة للاتفاق بين الطرفين وردت من جهة امبراطور الدولة البيزنطية سنة ٦٨٠ هـ ونسخة أخرى صدرت عن السلطان المنصور قلاون فى نفس العام يتعهد فيها كل طرف باحترام مصالح الآخر « لتدوم المحبة » بين الطرفين (١) .

كذلك ذكر القلقشندى صورة خطاب من الامبراطور مانويل باليولوجى إلى السلطان الناصر فرج بن برقوق سنة ٨١٤ هـ يخطب وده ويوصيه خيرا بالأقباط فى مصر (٢) .

ويهتم القلقشندى اهتماما خاصا بالعلاقات السياسية بين مصر والقوى المسيحية فى غرب أوربا ، وخاصة فى إيطاليا وأسبانيا وفرنسا . وتسترعى نظرنا فى كتابة القلقشندى تلك المرونة فى تعريب المصطلحات والألقاب الفرنجية ، فلفظ **Constable** كتبه القلقشندى كندسطبل ، ولفظ **vassal** كتبه فصل ، ولفظ **Doge** كتبه دوج ودوك ، ولفظ **Captain** كتبه قبطان ، ولفظ **Podesta** كتبه بودشطا ولفظ **Consuls** كتبه كناصله ، ولفظ **Corsairs** بمعنى قراصنة كتبه كرسالية ، وألفونس كتبه الأدفونش ، والبرتغال كتبه برتقال ، **Roi du France** كتبه ريدفرنس .

ونستخلص من كتاب صبح الأعشى أن ثمة روابط عديدة ربطت سلطنة المماليك بجنوا والبندقية ونابلى فى إيطاليا (٣) ، وطليطلة وبرشلونة وأرغونة فى أسبانيا ، فضلا عن البرتغال (٤) .
ويبدو أن أخبار سقوط عكا فى قبضة المماليك فى أواخر القرن

---

(١) صبح الأعشى ، ج١٤ ، ص٧٢ — ٧٨ .
(٢) صبح الأعشى ، ج٨ ، ص١٢١ — ١٢٢ .
(٣) صبح الأعشى ، ج٨ ، ص ٤٦ — ٨ ٤ .
(٤) صبح الأعشى ، ج٨ ، ص٣٣ — ٣٦ .

الثالث عشر للميلاد ، جعلت حكام الممالك المسيحية فى أسبانيا يسارعون إلى عقد اتفاقيات مع السلطان الأشرف خليل بن قلاون ، وهى الاتفاقيات التى ذكر القلقشندى صورا هامة فريدة منها . (١) أما ملك فرنسا فيذكر القلقشندى أنه أرسل رسولا إلى مصر يفاوض سلطانها لتسليمه بيت المقدس مقابل مائتى ألف دينار تعهد بدفعها سنويا ولكن السلطان غضب لطلبه .(٢)

ويضيق بنا المقام عن تتبع مختلف العلاقات بين كافة القوى فى الشرق والغرب وبين مصر فى العصور الوسطى ،وهى العلاقات التى أشار إليها القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى بطريق مباشر أو غير مباشر . على أننا نخرج من الوثائق التى ذكرها القلقشندى بملحوظة هامة هى تقدم الحكام المعاصرين فى فن السياسة وتمسكهم بآداب المعاملة الديبلوماسية ، وقدرتهم على إخفاء نواياهم ومشاعرهم تجاه خصومهم : من ذلك ماجاء فى صبح الأعشى من نص رسالة فريدة أرسلها صلاح الدين الأيوبى إلى الملك بلدوين ملك مملكه بيت المقدس يعزيه فى وفاة أبيه ، ويهنئه بجلوسه على عرش بيت المقدس بدله ، ويصف « مانالنا من الوحشة لفراق ذلك الصـــديق وخلو مكانه ، وكيف لايستوحش رب الدار لفرقة جيرانه (٣) ! ! » ومرة يروى القلقشندى عن صاحب طليطلة (الأدفونش) سوء نواياه وخبثه ، ومع ذلك فإن « مكاتباته متواصله ، والرسل بيننا وبينه ماتنقطع على سوء مقاصده ، وخبث سره وعلانيته » . وكان سلاطين مصر عندما يكاتبونه يلقبونه بالملك « الجليل ، الهمام ، الأسد ، الباسل : : محب المسلمين ، صديق الملوك والسلاطين ! ! » (٤)

* * *

---

(١) صبح الأعشى ، ج١٤ ، ص٦٣ – ٧٠ .

(٢) صبح الأعشى ، ج٥ ، ص ٣٦ .

(٣) صبح الأعشى ، ج٧ ، ص ١١٥ و ١١٦ .

(٤) صبح الأعشى ، ج٨ ، ص٣٥ .

وبعد ، فهذه عجالة قصيرة عن بعض الجوانب التى يمكن أن نستفيذ فيها من كتاب صبح الأعشى فى دراسة تاريخ مصر فى العصور الوسطى ، وكل جانب من هذه الجوانب يمكن أن يكتب فيه الكثير مما لا يتسع له هذا البحث الموجز ؛ بل إن كل وثيقة من عديد الوثائق التى تضمنها كتاب صبح الأعشى يمكن أن تكون موضوعا لدراسة طويلة مفصلة ؛ هذا عدا جوانب أخرى لها خطورتها فى دراسة تاريخ مصر فى العصور الوسطى ، وأعرضنا عن ذكرها بعد أن تعهد بعض الزملاء بالكتابة فيها ، مثل الحياة العلمية والدينية ، والعلاقة بين المسلمين والصليبيين فى ضوء وثائق صبح الأعشى .

ومرة أخرى نكرر ماسبق أن ذكرناه فى بداية هذا البحث من أن كتاب صبح الأعشى هو فى حقيقة أمره موسوعة علمية ضخمة ، يخرج منها القارئ بجديد فى كل مرة يعيد فيها قراءته . إن مايحويه هذا الكتاب من مادة غزيرة أعظم من أن يحيط بها فرد فى سهولة .

٣

فن الكتابة عند القلقشندى

بقلم: الدكتور جمال محرز

من المعروف أن أهل الحجاز هم الذين اشتقوا الخط العربى من الخط النبطى وأن الهيئة النبطية للخط ظلت غالبة على كتاباتهم وأنهم لم يتمكنوا من التخلص منها إلا بعد مضى قرنين من الزمان من تاريخ اشتقاقه أى فى المدة الواقعة بين منتصف القرن الثالث الميلادى ونهاية القرن السادس الميلادى ؛

ونحن نعلم أن النبى صلى الله عليه وسلم اهتم بأمر تعليم المسلمين القراءة والكتابة فنراه يشترط لفك الذين يعرفون القراءة والكتابة من أسرى موقعة بدر أن يعلم كل منهم عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة .

واقتدى المسلمون بالرسول واهتدوا بتعاليمه فاهتموا بأمر الخط أعظم اهتمام وأولوه عناية فائقة فوجدت المدارس لتعليمه واشتهرت الفسطاط بمدارسها ونبغ عدد من الكتاب فى الخط وعكف بعضهم على اشتقاق أنواع جديدة من الأنواع التى كانت معروفة فى عهده وهكذا تعددت أنواعه وأشكاله وحفظت لنا المصادر أسماء بعض من اشتهروا بجودة الخط فنذكر أن رياسة الخط جودة وإحكاماً انتهت فى العصر الطولونى إلى أبى طبطب المحرر للترجمة أن أهل مدينة السلام كانوا يحسدون أهل مصر على أبى طبطب وابن عبد كان؛يعنى كاتب الإنشاء لابن طولون ويقولون :بمصر كاتب ومحرر ليس لأمير المؤمنين بمدينة السلام مثلهما ، واشتهر فى العصر الفاطمى ابن الصيرفى بحسن الخط واستخدمه بدر الجمالى ؛

وذاع صيت كثير من الناس فى الخط فيما تلا ذلك من عصور نكتفى

بذكر بعضهم ممن استطاعوا أن يكونوا لهم مدرسة فى الخط ؛ فمن هؤلاء الحسن أبو على الجوينى الكاتب البغدادى المولد وقد رحل إلى القاهرة وأقام بها وتوفى عام ٥٨٦ هـ — ١١٧٢ م ، وابن العفيف وقد أسس مدرسة للخط فى القرن الرابع عشر الميلادى وهو عماد الدين الأنصارى الشافعى المتوفى سنة ٧٣٦هـ وسنة ١٣٣٥م ، ومنهم ابن الصائغ مؤسس مدرسة تنسب إليه فى القرن الخامس عشر الميلادى وهو عبد الرحمن بن يوسف الزين القاهرى .

ومن مظاهر اهتمام المسلمين بالخط وأمره وضعهم المؤلفات عنه وعن أنواعه والنسبة الفاضلة فيه نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر كتاب القلم وهو رسالة فى خط الكتابة لإسحق بن إبراهيم اليربرى المعروف بابن العديم من القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) وكتاب منهاج الإصابة فى أدوار الكتابة للشيخ شمس الدين محمد بن أحمد ابن على الزفتاوى المولود سنة ٧٥٠ هـ سـنة ١٣٤٩ المكتوب المجود بالفسطاط وله مختصر فى قلم الثلث ، ومنها العناية الربانية فى الطريقة الشعبانية وهى ألفية من نظم الشيخ زين الدين شعبان بن محمد بن داوود الآسارى محتسب الفسطاط ، وممن كتب عن الخط القلقشندى فى صبح الأعشى .

وقد أمدنا القلقشندى بمعلومات قيمة عن الخط ولعل أفضل ما نفعله فى هذا المقال هو أن نستعرض ما حفظه لنا القلقشندى فى كتابه المذكور :

وأول ما نلاحظ قبل أن يتكلم عن القلم أو الخط بمعنى آخر وما يجب أن يتوفر له من شروط ليصبح خطاً محققاً نراه يتحدث عن الخط وما ورد بشأنه فى القرآن الكريم « اقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم » ومثل « والقلم وما يسطرون » ثم يذكر ما ورد على لسان البعض كقول عبيد الله بن العباس « الخط لسان اليد » وقول جعفر بن يحيى « الخط سمط الحكمة وبه تفصل شذورها وينتظم منثورها » وقول مسلم بن الوليد « من عجائب الله

تعالى فى خلقه وإنعامه عليه من فضله تعليمه إياهم الكتابة المفيدة للباقين والمخاطب للعيون بسرائر القلوب على لغات متفرقة فى معان معقولة بحروف مؤلفة من ألف وباء وجيم وذال متباينات الصور مختلفات الجهات لقاحها التفكير ونتاجها التأليف تخرس منفردة وتنطق مزدوجة بلا أصوات مسموعة .

ثم ينتقل إلى حديث عن بيان حقيقة الخط فيقول : إنه علم تتعرف منه صور الحروف المفردة وأوضاعها وكيفية تركيبها خطا أو مايكتب منها فى السطور وكيف سبيله أن يكتب ومالا يكتب وإبدال ما يكتب منها فى الهجاء وبماذا يبدل ، ثم يعقد فصلا لبيان المقصود من وضعه والموازنة بينه وبين اللفظ فيقول : إن المقصود من وضعه أداء المعنى المشعور به للمسمع إذ لا وقوف على ما فى الذهن ووضع الخط لأداء اللفظ المقصود فهمه للناظر فيه ، فإذا أردت إيقافك أحدا على ما فى ذهنك من المعانى تكلمت بألفاظ وضعت له ، وإذا أردت تأدية ألفاظ لذلك الإيقاف إلى أحد بغير شفاه نقشت النقوش الموضوعة لتلك الألفاظ ، فيطالع تلك النقوش ، ويفهم منها تلك الألفاظ ، ومن الألفاظ تلك المعانى .

أما الموازنة بين الخط واللفظ فالأصل فى ذلك أن الخط واللفظ يتقاسمان فضيله البيان مشــتركان فيه من حيث أن الخط دال على الألفاظ ، والألفاظ دالة على الأوهام ، وهما يعبران عن المعانى ، إلا أن اللفظ معنى متحرك واللفظ معنى ساكن ويستمر فى عقد المقارنات بين الخط واللفظ ، والتشابه بينهما بدرجة كبيرة جداً حتى أطلق على القلم اسم اللسان ، فقالوا : الأقلام ألسنة الإفهام ، والقلم أحد اللسانين .

ويحدثنا بعد ذلك عن وضع الحروف سواء الحروف بصفة عامة أو حروف اللغة العربية ، فيورد النظريتين ؛ النظرية التوقيفية التى تنسب وضع الحروف إلى آدم عليه السلام ، والنظرية الاصطلاحيه التى تنسب وضع الحروف إلى جماعة من طى .

وينتقل من هذا إلى عدد الحروف وجهة ابتدائها وكيفية ترتيبها وصور الحروف العربية وتداخل أشكالها والحث على تحسين الخط والطريق إلى تحسينه ويقول : « إن الوجه الصحيح فى تصحيح الحروف أن يبدأ أولا بتقويمها مفردة مبسوطة لتصبح كل صورة منها على حالها ثم يؤخذ بالرباعى ثم بالخماسى فإن هذه هى أمثلة الأسماء والحروف وأن يعتمد فى التمثيل إلى توقيف المهرة فى الخطوط العارفين بأوضاعها ورسومها واستعمال آلاتها ، فإن لكل خط من الخطوط قلما من الأقلام يصلح لذلك الخط ، وهذه الأقلام المختلفة نظير آلات الصنائع المختلفة التى يصنع الصانع لكل آلة منها جزءاً من صناعته لا يصنع به غيره ولا يعول على كتابة خط من الخطوط نقل مثاله بنفسه فإن ذلك لا يكفيه إذ لو كان ذلك كافيا لاستغنى فى جميع الصنائع عمن يوقف عليها ».

ويتلو ذلك الحديث عن هندسة الحروف ومعرفة اعتبار صحتها مبتدئاً من الألف إلى الياء واصفا كل حرف وما يجب أن يتوفر فيه من اشتراطات ليكون خطا محققا .

ويمكن أن نقول : إن أساس الخط عندهم عملية هندسية أساسها النقطة والدائرة فمن النقطة تتكون الألف وما شابهها ومن الدائرة الجيم وما شابهها ويتكلم عند حديثه عن الحروف حرفا حرفا ما يجب أن يتوافر فيه من عدد النقط أو أجزاء الدائرة كما يمدنا هذا الفصل من كتابه بأوصاف الحروف أو أجزائها مثل الخط المنتصب للألف ، والخط المنتصب والمنسطح للباء ، والخط المنكب ، ونصف الدائرة للجيم والمنكب والمنسطح للدال والمنتصب والمقـوس للسين وهكذا ، وهو فى هذا يورد النسبة بين كل جزء وآخر حتى تأتى الكتابة محققة .

ثم يتكلم بعد ذلك عن معرفة ابتداء الحروف وانتهائها ، فبدأ

بالحروف التى تبدأ بنقطة ، ثم الحروف التى تبدأ بشظية ، ثم بحلقة ، ثم ما يختم بنقطة القلم ، ثم ما يختم بشظية وما يختم فى ختمه إرسالا مبينا حروف كل نوع »

ثم ينتقل بعد ذلك إلى الحديث عن بعض ما يجب على الكاتب اعتباره عند الكتابة ثم حركة اليد بالقلم فى أثناء الكتابة فيقول نقلا عن بعض الكتــاب « كل خط منتصب ينبغى أن يكون الاعتماد فيه من القلم على سنيه معا وكل خط يمنة إلى يسرة ينبغى أن يمال القلم فيه نحو اليسرة قليلا ، وكل خط من يسرة إلى يمنة ينبغى أن يمال رأس القلم إلى اليمنة قليلا وكل شظية ينبغى أن تكون بالسن اليمنى من القلم ، وكل نقطة ينبغى أن تكون بسنى القلم ، وكل تقعير كما فى النون وتعريقة الصاد يجب أن تكون بالسن الأيمن ، وكل رسالة يجب أن تكون بسن القلم اليمنى ، وكل تعريج كما فى عراقة الجيم والعين يجب أن يكون بسن القلم اليسرى ، وكل ما أخذ فيه من يمنة إلى يسرة كاللام ونحوها ينبغى أن يمال فيه رأس القلم إلى اليسرة قليلا ، وكل ما أخذ فيه من يسرة إلى يمنة كرأس الجيم ينبغى أن يمال رأس القلم فيه إلى يمنة قليلا وكل خط منتصب يجب أن يكون انتهاؤه إرسالة ، وطول كل سنة من السين ونحوها مثل سدس ألف خطها »

أما تناسب الحروف ومقاديرها فى كل قلم فينقل عن إخوان الصفاء من رسالة الموسيقى ويقول « ينبغى لمن يرغب أن يكون خطه جيدا وما يكتبه صحيح التناسب أن يجعل لذلك أصلا يبنى عليه حروفه ؛ ليكون دلك قانونا له يرجع إليه فى حروفه لا يتجاوز ولا يقصر دونه ، ومثال ذلك فى الخط العربى أن تخط ألفاً بأى قلم شئت وتجعل غلظه الذى هو عرضه مناسبا لطوله وهو الثمن ، ليكون الطول مثل العرض ثمان مرات ثم تجعل البركار على وسط الألف ، وتدير دائرة تحيط بالألف لايخرج دورها عن طرفيه : فإن هذا الطريق والمسلك يوصلان إلى معرفة مقادير الحروف على النسبة ، ولا تحتاج فى مقاييسك ما تقصده إلى شىء يخرج عن الألف وعن الدائرة التى تحيط به »

وهكذا يستمر فى الحديث عن باقى الحروف ، ويتكلم بعد ذلك عن الحروف التى تروس والتى تطمس والتى تفتح .

ثم ينتقل بعد ذلك إلى الحديث عن الأقلام المستعملة فى ديوان الإنشاء فى زمانه ومقدار قطع الورق المناسب لكل قلم ويذكر أنها سبعة أقلام هى : الطومار ، ومختصر الطومار ، والثلث ، وخفيف الثلث ، والرقاع ، والمحقق والغبار .

أما عن قطع الورق فيذكر أن الطومار الكامل من مقادير قطع الورق أصل عمله وهو المسمى بالفرخة ، أما مختصر الطومار فله قطع البغدادى الكامل ، والثلث لقطع الثلثين ، وخفيف الثلث لقطع النصف ، والرقاع لقطع العادة ، والغبار القطع الصغير من ورق الطير .

ويذكر أن الطومار يكتب به السلطان علاماته على المكاتبات والولايات ومناشير الإقطاع وأن المحقق استحدثت كتابته فى تغراوات كتب القانات. أما الغبار فيكتب به بطائق الحمام والملطفات وما فى معناه .

ثم يتحدث عن الأصل فى تسمية قلم الثلث وما فى معناه من الأقلام المنسوبة إلى الكسور والثلثين والنصف ويقول : «إن الأصل فى ذلك أن للخط الكوفى أصلين من أربع عشرة طريقة وهو قلم الطومار ، وهو قلم مبسوط كله ليس فيه شىء مستدير ، وقلم غبار الحلية وهو قلم مستدير كله ليس فيه شىء مستقيم فالأقلام كلها تأخذ من المستقيمة والمستديرة نسباً مختلفة ، فإن كان فيه من الخطوط المستقيمة الثلث سمى قلم الثلث وإن كان فيه من الخطوط المستقيمة الثلثان سمى قلم الثلثين .

وثمة رأى آخر وهو أن قلم الطومار مساحة عرضه أربع وعشرون شعرة من شعر البرذون ، وقلم الثلث منه بمقدار ثلثه وهو ثمانى شعرات وقلم النصف بمقدار نصفه وهو اثنتا عشرة شعرة ، وقلم الثلثين بمقدار ثلثيه وهو ثمان عشرة شعرة ويتبع ذلك بإيراد أمثلة للأقلام السبعة المختلفة التى ذكرها ، والحروف المختلفة بالنسبة لمواقعها فى الكلمات ثم يتحدث عن أوجه تجويد الكتابة وتحسينها بالكلام عن حسن التشكيل وحسن الوضع ؛ فاحسن التشكيل خمسة

شروط هي : التوفية بمعنى أن يوفى كل حرف من الحروف حظه من الخطوط التي يركب منها من مقوس ومنحنى ومنسطح ، والثاني الإتمام وهو أن يعطى كل حرف قسمته من الأقدار التي يجب أن يكون عليها من طول أو قصر أو دقة أو غلظ ، والثالث الإكمال وهو أن يؤتى كل خط حظه من الهيئات التي ينبغي عليها من انتصاب وتسطيح وانكباب واستلقاء وتقويس ، والرابع الإشباع وهو أن يؤتى كل خط حظه من صــدر القلم حتى يتساوى به فلا يكون بعض أجزائه أدق من بعض ، ولا أغلظ إلا فيما يجب أن يكون كذلك من أجزاء بعض الحروف مثل الألف والراء ونحوهما ، والخامس الإرسال وهو أن يرسل يده بالقلم في كل شكل يجرى بسرعة من غير احتباس يضرسه ولا توقف يرعشه .

أما عن حسن الوضع فهناك أربعة أشياء لازمة وهي : الترصيف أي وصل كل حرف متصل إلى حرف والتأليف وهو جمع كل حرف غير متصل إلى غيره على أفضل ما ينبغي ويحسن ، والثالث التسطير وهو إضافة الكلمة إلى الكلمة حتى تصير سطراً منتظم الوضع كالمسطرة ، والرابع وهو مواقع المدات المستحسنة من الحروف المتصلة .

وآخر ما يذكره القلقشندى عن الخط فصل عن مراعاة فواصل الكلام ؛ إذ يقول إن الخط إذا كان متميز الفصول وصل معنى كل فصل منه إلى النفس على صورته ، وإذا كان متصلا دعا إلى إعمال الفكر في تخليص أغراضه ، ويذكر أن الفواصل دائرة عند النساخ وبياض عند كتاب الرسائل .

ويختم كلامه بمراعاة حسن التدبير في قطع الكلام ووصله في أواخر السطور وأوائلها .

ونراه يتحدث بعد هذا عن لواحق الخط ، وهي : النقط والشكل .

هذا عرض مجمل لما احتواه كتابه صبح الأعشى للقلقشندى من معلومات وبيانات وتعاليم عن الخط وأنواعه والشروط التي يجب اتباعها لتجويده وتحسينه ونستطيع أن نقف من هذا كله على مقدار العناية والأهمية التي وجهها الكتاب والخطاطون المجيدون وغيرهم ، لتوفير كل ما يكون من شأنه أن يساعد الكتاب على تحسين خطوطهم وتجويدها .

ومما لاشك فيه أن هذه العناية قد أتت ثمارها ، وتوفر للبلاد الخطاطون المجيدون الذين رأسوا ديوان الإنشاء، وتولوا تحرير الوثائق والكتب والمواثيق فضلا عن تحرير المخطوطات، والمصاحف الثمينة الغالية التي تزدان بها معارض دور الكتب والمتاحف المختلفة وتحتفظ بعض المصاحف المملوكية بدار الكتب بأسماء محرريها ، فثمة مصحف باسم السلطان برقوق قام بتحريره عبد الرحمن الصائغ، ومصحف آخر باسم السلطان فرج حرره موسى بن إسماعيل الكتاني، كما أن مصحفاً ثالثاً يحمل اسم كاتبه هو موسى بن إسماعيل بن أحمد الجرجاني .

٤

ديوان الإنشاء.. نشأته وتطوره

بقلم: الدكتور حسن حبشي

اهتم المسلمون منذ ظهر الإسلام بالمراسلات التى عرفت فيما بعد بالمراسلات الديوانية ، ثم اتخذت كلمة «الإنشاء» سمة خاصة بها ، وأصبح لهذه الكلمة الأخيرة معنى وظائفى ، أى أنها أضحت «وظيفة» لها شروطها الخاصة ومراسمها الذاتية ، بل يمكن القول بأن الشروط التى تطلب توافرها فيمن يشغلها بلغت حداً لم تبلغه أية وظيفة أخرى اللهم إلا «الخلافة» حين وضع الفقهاء لها شروطاً لا تنعقد إلا بها(١) ، ولعل من أقدم الرسائل ذلك الكتاب الذى يقال إن الرسول عليه السلام أنفذه إلى هرقل يدعوه للإسلام ، هذا بالإضافة إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم اتخذ له منذ البداية «كتّاباً» يكتبون عنه فيما يصدر عنه من رسائل وفيما يكاتب به أمراءه وأصحاب سراياه من الصحابة ، وكذلك من قرب من السلاطين والملوك يدعوهم إلى اعتناق الإسلام ، ومعنى هذا أن الكتابة وجدت «كفن» ، و «الكاتب» كوسيلة للترجمة عما يراد الإفصاح عنه للمرسل إليهم : إلقاء كان أو رداً ، وقد استكثر الرسول من الكتاب حين جاوزوا الثلاثين عداً ، فإذا وضعنا هذا العدد من الكتاب فى الذهن جاز لنا القول بأنهم كانوا يؤلفون فى مجموعهم بذرة أول «ديوان إنشاء» وضع فى الإسلام ، وإن لم يتخذ هذا الاسم مدلولا عليه ، ثم تطور بتقدم الأيام حتى بلغ ذروة التنظيم فى العصر المملوكى نظراً لاتساع رقعة الدولة وتعدد جهات اختصاصها واتصالاتها لاسيما الخارجية منها بصورة جعلت من القائمين بالكتابة الديوانية هيئة خاصة ، وهذا ما حمل القلقشندى على إفراد كتابه الضخم «صبح الأعشى فى صناعة الإنشا» لهذا الموضوع ،

---

(١) راجع فى هذا الموضوع كتاب الماوردى للأحكام السلطانية .
Rosenthal: Political Thought in Medieval Islam.

ولقد قام هذا الكتاب فى أصله على «مقامة» كتبها هو بنفسه وسماها «الكواكب الدرية فى المناقب البدرية» وهى التى أدرجها فى صبحه(١)، وإن كان هناك من يردها إلى محاولة من جانبه للنسج على منوال الحريرى والهمذانى(٢) ، وليس من شك فى أن قوام مادة «الإنشاء» — من حيث التطور التاريخى والنهج التقليدى فى الكتابة ، إنما يعتمد على إدراك القلقشندى لهذا الفن .

ولو رجعنا إلى المدلول التاريخى للفظ «الديوان» لوجدنا الأوائل القدامى قد ردوه على اختلاف فيما بينهم إلى أصلين ، أولها الأصل الفارسى ، ولقد أشار إلى ذلك الماوردى فى الأحكام السلطانية ، فذكر أن هناك وجهين للأصل الفارسى للتسمية —أحدهما أن كسرى مر ذات يوم على كتاب ديوانه وهم يحسبون مع أنفسهم ويجمجمون فيما بينهم ، فتعجب منهم وقال عنهم « ديوانه » أى « المجانين » ، أما القول الآخر فهو أن « الديوان » بالفارسية اسم للشياطين «فسمى الكتاب بذلك لحذقهم بالأمور ، ووقوفهم على الجلى منها والخفى » ، وهذا الأصل الفارسى لم ينكره بعض علماء اللغة كالأصمعى ، وتابعه الجوهرى فى الصحاح .

أما ثانى هذين الأصلين فهو الأصل العربى على سعة فى مدلوله واستعماله ، ومهما يكن الاختلاف فى مرده اللغوى فالثابت أن العرب منذ أربعة عشر قرنا عرفوا هذا الديوان وإن كان إذ ذاك فى صورة أولية ، أشار إليها القلقشندى فى قوله « إنها لم تكن فى الشهرة وتواتر الكتابة فى زمانه» (صلى الله عليه وسلم) ؛ ومعنى هذا كله أن الديوان قديم الإنشاء ؛ وأن الشخصية البارزة فيه هى شخصية « الكاتب » أو « المنشىء » الذى تبوأ منذ بداية ظهوره مكانة سامية ، فهو « الأمين على السر الذى يفضى به إليه بما قد يحجب الخبر فيه عن غيره » ، ومن ثم شرطوه بشروط كان

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج١٤ .

Cf. C.E. Bosuvorth : A Maqama on Secretaryship : al-Qalqashaudi's al-Kawakib al-Durriya fil manaqib al-Badriyya, BSOAS., Vol. XXVII, Pt. 2, 1964, pp. 291-298.

الالتزام بها فى معظم العصور (١) ضرورة لاتخرج عنها الدولة أو الخليفة أو السلطان ، وردوها إلى أسس عشرة أولها : العدالة ، من حيث اعتبار الكتابة ولاية شرعية وهذا تكريم لها ، وثانيها : مايعرف بالتكليف، وذلك للحاجة إلى بالغ مدرك لما يقتضيه الرأى والأمر ومالايجوز فيه التعديل على الصبى ، وثالثها: الذكورة، ورابعها: الإسلام، لأن الدولة إسلامية من ناحية واعتماداً على الآية الكريمة من ناحية أخرى (ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لايألونكم خبالا ودّوا ماعنتم (٢) ، وخامسها : الحرية التى بانتفائها ينتفى الكمال والقدرة على التصرف غير المشروط أو المقيد ، وسادسها : البلاغة ، وسابعها : وفور العقل فلاولاية ولا شهادة لغير العاقل، وثامنها : العلم بمواد الأحكام الشرعية حتى لا تخرج القضية عن نطاق العدل الذى قضى به الشرع ، وتاسعها : شرف النفس ، وعاشرها : الكفاية لما يقتضيه منصب الكتابة من تولى الرجل المناسب .

وإذا كانت بعض الوظائف تتطلب فى وقتنا الحاضر مايعرف بالمقابلة الشخصية فقد كانت هناك صفات أخرى تطلبها القوم يومذاك فى الكاتب منهـا :

صباحة الوجه وفصاحة اللفظ ، وطلاقة اللسان ، وإيثاره الجد على الهزل ، وتوقد الفهم وحسن الإصغاء ، وإيثاره الشغل على الفراغ ، ثم بعد ذلك ملازمته لمجلس الملك أو السلطان إذا كان جالساً ، وملازمته للديوان إن لم يكن جالساً « ليتأسى به سائر كتاب الديوان وكى لايجدوا رخصة فى الغيبة عن ديوانهم» على حد تعبير قوانين ديوان الإنشاء لمن يشغل وظيفته، كما تطلبوا فيه كتمان السر ، الأمر الذى يصر القلقشندى على خطورته ويراه ضرورة لا يمكن التجاوز عنها فيمن يشغل وظيفة كاتب الإنشاء فيقول عنها « هذه الصفة هى الشرط اللازم والواجب المحتم » ، وأورد عن المأمون فى هذا الصدد قوله: « الملوك تحتمل كل شىء إلا ثلاثة أشياء : القَدْحُ

---

(١) نخلى المسئولون عن بعض الشروط فى العصر الفاطمى .

(٢) قرآن كريم ، سورة آل عمران ، ٣ : ١١٨ .

فى الملك، و إفشاء السر ، والتعرض للحُرَم » وقد ثبت هذا المعنى فى الأذهان وأصبح أمراً مألوفاً يعد التجاوز عنه نقضاً لا يجوز معه انعقاد الوظيفة حتى ليشير القلقشندى إلى أن العامة فى مصر يبدلون « الباء » فى كاتب السر « بميم » فيقولون « كاتم السر » ويرد ذلك إلى رأيين إما لأنه يكتم سر الملك ، و إما من باب إبدال الباء بالميم على لغة ربيعة ، ثم يعقب على ذلك قائلا : « ولكنهم لا يعرفون الثانى » وهذا ترجيح منه لفكرة كتمان السر .

* * *

هذه هى بعض صفات الكاتب فى الديوان ، فما هو شأن الديوان فى العصور الإسلامية ؟ . . لقد سار الخلفاء الراشدون على نهج الرسول ، فاتخذ كل منهم كاتباً أو أكثر ، فلما قامت الدولة الأموية أصبح أمر هذا الديوان مفوضاً إلى كاتب يقيمه خليفة الوقت الذى كان هو ذاته « يوقع على القصص ويحدثها بنفسه ، أما الكاتب فيكتب ما يبرز إليه من توقيعه ، ويصرفه بقلمه على حكمه » أى أن التوقيع كان لصاحب السلطة العليا ، أما التصريف فلمتولى مهمة الكتابة ، وظل لفظ « الكاتب » يطلق طوال عصر بنى أمية على متولى هذا الديوان حتى ولى الخلافة أبو العباس السفاح فاستوزر أبا سلمة الخلال وأصبح هذا الفعل نهجاً يسلكه من جاء بعده من خلفاء بيته ، على أن أهمية المكاتبات فى هذا العصر أدت إلى نقلة جديدة فى ديوان الإنشاء لم تكن من قبل ، تلك هى إضافة ديوان الرسائل هذا تارة إلى الوزير حيث يتولى أموره ويصرفها بنفسه ، وقد يفرد عنه — أى عن الوزير — تارة أخرى بكاتب ينظر فى أمره ، وفى هذه الحال الثانية يقوم كاتب ديوان الإنشاء باعتماد ما يرد إليه من ديوان الوزارة ويمشى على ما يلقى إليه من توقيع الوزير الذى ينفذ إشارة الخليفة . وقد وجد بفضل الكتابة فى الديوان جماعة من البلغاء أسهموا بقدح معلى فى الأدب مثل يحيى بن خالد وزير الرشيد ، وابن العميد وأبى إسحاق الصابى .

على أن العناية باللغة وفنون الأدب والبلاغة والتمثل بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأشعار القدماء وأمثالهم : ما لبثت أن زحزحت عن

مكانتها تبعاً لتدهور الأوضاع السياسية وضعف قوة العرب ، فحل محلها — بعد سقوط الخلافة العباسية سنة ٦٥٦ هـ — كتابات ديوانية بالمغولية والفارسية حين آلت مقاليد الأمور لهؤلاء الأعاجم ، ولم يكن من المتوقع بطبيعة الحال إلا أن يبطل رسم الكتابة المعتبرة ، وهذا هو الذى ألم بالكتابة الديوانية فى غير مصر التى عرفت الديوان بصورة أو بأخرى منذ عهد بعيد فرعته وليداً ، واهتمت به حتى اكتمل عوده فى النهاية ، وانتظمت قواعده ، واعتبرت أصوله فى العصر المملوكى ؛ ويمكن إجمال هذه المراحل فيما يلى :

كانت المرحلة الأولى فى قيام الديوان فى مصر مصاحبة للفتح العربى لها ولم يكن من المنتظر أن تحدث طفرة فى الكتابة ، فمصر قريبة العهد بالحكم البيزنطى ورسومه وتقاليده ووظائفه ، كما يغلب اللسان القبطى على العامة وبعض الخاصة ، بيد أن البلاد كانت قد دخلت فى مرحلة جديدة هى مرحلة الاستقرار العربى وما يتطلبه الحكم الجديد من مراسلات مع الخلافة ومعاملات مع الشعب ، إلى جانب ما كان لابد من وجوده من التنظيمات الإدارية البيزنطية ، ومن ثم فليس لنا أن ننتظر انتقالا كلياً مما جرى عليه القوم إلى تعريب كامل ، لذلك لم تبذل عناية كبرى بشأن ديوان المراسلات ، ولقد فسر القلقشندى صرف الهمة عن الديوان إلى أن المسئولين اقتصروا منذ بداية الفتح العربى حتى أوائل الدولة الطولونية على « المكاتبات لأبواب الخلافة ، والنزر اليسير من الولايات » .

على أن سمات ديوان الإنشاء أخذت فى الانبثاق فى الفترة الممتدة من أوائل الدولة الطولونية حتى نهاية الإخشيدية ، لكن هذه السمات كانت أشبه ببراعم لم تتفتح أزاهيرها إلا فى العهد التالى ، وهو عهد الخلافة الفاطمية ، وهذا هو دور الاستقلال الأول فى تاريخ مصر الإسلامية ووقوفها تجاه الخلافة العباسية موقف النضال والعداء ، وإذ كان الفاطميون جد حريصين على تدعيم سلطانهم فى نفوس الجماعات التى تدين لهم بالطاعة وكذلك بين الأمم : وإذا كانت مصر قد أصبحت ذات علاقات تجارية

وسياسية مستقلة بكثير من الدول والولايات مابين إسلامية ونصرانية فلا مشاحة إذا اهتم الفاطميون بديوان الإنشاء ، وإن استعملوا فيه بصورة واضحة جماعات من المسلمين والذميين على السواء ، وكان هذا حدثاً جديداً يكاد يزعزع الشرط الرابع من الشروط التى كان من المطلوب توافرها فى « الكاتب » ، وتطالعنا فى هذا العصر أسماء أفراد من غير أهل الإسلام مثل ابن سوردين النصرانى وأبى سعيد العميدىّ وابن أبى الدم اليهودى .

وكان متولى ديوان الإنشاء أو الرسائل أو الكتابة — وكلها تسمية لمسمى واحد — من أجلّ الكتاب بلاغةً ومنزلةً ، ويخاطب « بالأجل » ويلقب حينذاك « بكاتب الدست » ، وكانت المكاتبات تسلم إليه مختومة ، وأصبحت له رسوم معينة تقتضيها مكانته عند الفاطميين الخلفاء ، فهو عندهم « أول أرباب الإقطاعات فى الكسوة والرسوم والملاطفات » . هذا إلى أن له حاجباً من الأمراء الشيوخ ، ويحمل دواته أستاذ من خواص الخليفه عند حضوره إلى مجلس الخلافة .

ثم جاءت الدولة الأيوبية ، فكان مجيئها بداية فترة جديدة فى ديوان الإنشاء لما جرى خلالها من تطور ملحوظ ، إذ نلاحظ لأول مرة ما عمد إليه صلاح الدين من جمعه الوزارة وديوان الإنشاء للقاضى الفاضل ، وكأنه كان فى ذلك ناظراً إلى ما حدث عند قيام الخلافة العباسية من جمع الوزير بين الوزارة والكتابة ، وقد بدا ذلك الجمع بين الاثنين أمراً مقرراً فى أغلب الأحيان زمن الأيوبيين الذين أرادوا فى الوقت ذاته محو رسوم الفاطميين فى هذا المجال ، فلم يستعملوا سوى المسلمين ، ولا تطالعنا فى هذه الفترة أسماء لأصحابها عرق قريب أو بعيد فى الذمية .

فلما انتهت ولاية الأيوبيين وقامت دولة المماليك أو الدولة التركية كما تسمى أحياناً أصبح كاتب ديوان الإنشاء فى المكانة المرموقة فى الدولة ، يصاحب السلطان فى حله وترحاله ويرافقه فى حملاته ، ويعرف من أسرار الحكومة ماقد يخفى فى كثير من الأحيان على صفوة الخاصة من خاصة السلطان .

وثم صفة أخرى هى أن صاحب ديوان الإنشاء أصبح ينقل من مصر إلى دمشق ، حدث هذا لأول مرة للقاضى شرف الدين عبد الوهاب ابن فضل الله الذى كتب فى مصر للأشرف بن قلاون وأخيه الناصر محمد فى سلطناته الثلاث ، وللعادل كتبغا ، والمنصور لاجين ، والمظفر بيبرس ؛ ثم نقله الناصر محمد بن قلاون إلى كتابة السر بدمشق :

وتطالعنا فى هذه الفترة أسماء كثيرين من كتاب ديوان الإنشاء قد يرجع البعض منهم إلى أسرة واحدة ، ويأخذ كل منهم نفسه بالاهتمام بالفنون اللازمة المهيئة إياه لشغل وظيفة كاتب السر ؛ وكان الواحد فى بعض الأحيان يستعمل ولده بالنيابة ، أو يوليه استقلالا ، كما حدث من القاضى محيى الدين بن فضل الله حيث فوض أمر الديوان ، استقلالا لولده القاضى علاء الدين سنة ٧٣٨ هـ ، ولم تكن هذه الظاهرة تعنى إيثار ذوى القربى أو ترجع إلى عصبية أسرية ، ولكن يمكن تفسيرها باهتمام العائلة بالآلات اللازمة لكتابة الإنشاء ، نظراً لما تدره الكتابة على شاغليها من كسب مادى ومعنوى ومكانة مرموقة فى المجتمعين المصرى والشامى ، وهى مكانة ترقى بصاحبها إلى مجالسة السلطان .

ولم يكن ثم لقب واحد متفق عليه فى بداية هذه الدولة يطلق على كاتب ديوان الإنشاء فكان « يعبر عنه بكاتب الدست حينا وكاتب الدرج حيناً آخر » ثم أطلق لقب « كاتب السر » لأول مرة زمن المنصور قلاون ، أطلقه على القاضى فتح الدين عبد الظاهر ، ومن ثم نزل لقب « كاتب الدست » درجة فأصبح يطلق على من دونه من كتاب الديوان « والألقاب كالأشخاص منها ما يهرم فيموت ومنها ما يخلى مكانه لجديد »

وإذ كانت القاهرة مركز سلطان الديار المصرية الشامية وفيها الخليفة وإذ كانت هناك دواوين لكتابة الرسائل فى كل ولاية ونيابة فقد أطلق على متوليه فى مصر لقب «صاحب دواوين الإنشاء» بالجمع فى بعض الأحيان تعظيما له لمحاورته السلطان والخليفة ، أما كاتب ديوان الإنشاء . بدمشق فيسمى « بمتولى ديوان الإنشاء بالشام » ، وأما متوليه

فى حلب وحمص وحماه وطرابلس وصفد فيسمى «بصاحب ديوان المكاتبات» مضافاً إلى النيابة الموجود بها . أما النيابات الصغرى كغزة والكرك والإسكندرية فيقال لمتولى ديوان كل منها « كاتب الدرج » .

وهناك ظاهرة أخرى تطالعنا فى بداية الدولة الجركسية هى اصطناع جماعة من غير أهل مصر وإن كانوا من المتعممين ، فقد عهد برقوق فى سلطنته الأولى بالديوان إلى القاضى أوحد الدين عبد الواحد التركمانى ، وفى ولايته الثانية إلى علاء الدين الكوكى ثم لبدر الدين محمود الكلستانى .

* * *

كان للديوان فى مصر رسوم وتقاليد معتبرة منها ما يتعلق بموظفيه ومنها ما يتعلق بمحفوظاته : صادرة ، أو واردة ، وقد ارتفعت منزلة صاحب ديوان الإنشاء فى مصر فبعد أن كانت مهمته فى العصور الأولى مقصورة على أن يكتب بأسلوبه ما يلقى به إليه أصبحت له اختصاصات معينة يتصرف فيها بحكمته ووفق قواعد مرعية هى نتاج تجارب سابقة موصولة فى حقل الكتابة والمراسلات الديوانية ، ولعل أهم ما أضيف إليه من الاختصاصات هو مراعاة الألقـاب والمراتب والدعاء فى المكاتبات والولايات وهذا أمر منظور فيه إلى تعقيدات نظم الحكم والسلطنة فى الدول والإمارات المختلفة يستوى فى ذلك منها الإسلامية وغير الإسلامية ، فليس له أن يزيد أحداً فى لقبه عما لقبه به الحاكم ، ولذلك نص القلقشندى على أنه ينبغى على صاحب الديوان « أن ينزل كل واحد من الكاتبين وأرباب الولايات منزلته على مايقتضيه مصطلح الزمان من علو وهبوط » وحينئذ عليه أن يحتاط فى ذلك ويؤاخذ كتاب الإنشاء بما حدد لهم من غير إفراط ولا تفريط ، فالملوك والسلاطين يسمحون ببدرات المـال ولا يسمحون بالدعوة الواحدة ، وإن نظرة واحدة للألقاب التى تفتتح بها المراسلات سواء ما ورد منها فى القلقشندى أو فى غيره من المصادر والمراجع أو مازال منها مخفوطا ليمكن الاستدلال منها على مكانة الكاتب وملته ومذهبه .

يضاف إلى هذا أنه ينبغى على الكاتب أن يتصفح ما يخرج من الديوان من الولايات والمناشير والمكاتبات فإنه « إذ أزل الكاتب فى شىء زل بسببه متولى الديوان ، بل السلطان بل الدولة بأسرها » ومعنى هذا أنه لا يجوز أن يلقب أحداً دون لقبه وإلا أنزله من مكانته وترتب على ذلك أمران أحدهما أن يستقر فى الأذهان أن الدولة الصادر منها الكتاب لا تعرف مجريات الأحداث والأمور خارج حدودها وأنها تعيش فى عزلة وثانيها أن مخاطبة المخاطب بلقب دون لقبه فيه حط من منزلته وما يترتب على هذا الخلط من تغير نفسانى قد يؤدى إلى تراخ فى العلاقات أو تؤثر فيها ، ثم إن لصاحب ديوان الإنشاء حق الدخول على السلطان حتى فى أوقات لا يسمح فيها بالدخول لأحد عليه ، وله أن يأخذ فى مثل هذه الحظات اثنين هما طارق الليل فشر ما جاء به ولو كان خيراً ما جاء فى تلك الساعة ، ورسول الثغر فإنه إن أبطأ ساعة أفسد عمل سنة فليدخله عليه ولو كان فى لحافه .

* * *

لم يبلغ ديوان الإنشاء فى أى مملكة من الممالك الإسلامية ما بلغه ديوان الإنشاء فى الديار المصرية من حيث التنظيم وتعدد الوظائف واختصاص كل واحدة بعمل معين وتطورها فى بعض الأحيان ، ونستطيع على هدى ما جاء فى ثنايا صبح الأعشى أن نقسم هذه الوظائف إلى فترتين أولاهما ما كان سائداً فيها حتى بداية العصر المملوكى وثانيهما وظائف العهد المملوكى .

وبناء على ما يذكره القلقشندى فقد كان هناك فى كلتا الحالتين صاحب الديوان وكان تحت إدارته فى العهد الأول سبعة كتاب دونه منزلة وإن كانوا كلهم فى الأهمية بالدرجة القصوى وهم :

١ ــ كاتب يتولى الإنشاء من نفسه ويبدع فى العبارة بقدر ما أتاحته له بلاغة اللغة وتمكنه منها وحفظه للأشعار والمؤثورات والحكم العربية وفوق كل ذلك وجوب حفظه للقرآن الكريم والأحاديث النبوية فكان تلقى إليه الكلمة الواحدة والمعنى المفرد فيتولاه من حيث الصياغة وحسن التعبير ووضوح الفكرة والإطناب حيث ينبغى الإطناب وتضمين ما يؤيدها من

آى الذكر الحكيم والاستشهاد بالأحاديث الشريفة والتمثل بالأشعار الرائعة والحكمة البليغة ، أى أنه كان يتطلب فيه أن يكون مالكاً لمقاليد البلاغة والفصاحة قادرا بملكته البيانية على إدارة اللغة والألفاظ وفن التلاعب بالمعانى تلاعباً يمكنه من مدح المذموم وذم الممدوح ، ولم يكن ذلك بالأمر الذى يعاب عليه أو يقدح فى مكانته ، بل كان — فى كثير من الأحيان — ميزة يرقى بها إلى المكانة السامية والوظيفة الرقيقة والمنصب الجليل فى الديوان، أما الثانى فكاتب يكتب عن السلطان واشترط فيه إلى جانب البلاغة أن يكون على دين مولاه وأن يكون « عالماً بقدر طبقة المكتوب إليه »

٣ — وأما الثالث فكاتب يكتب مكاتبـــات أهل الدولة وكبرائها وولاتها ووجوهها من النواب والقضاة ، وأن ينشئ تقليدات ذوى الخدم الصغار ، ويشترط فيه أن يكون كريم النفس عفيفها لايقع تحت إغراء يدخله فى تجربة تودى به إلى إفشاء سر أو التشدق بأمر قبل صدوره لأنه كما يقول القلقشندى يعلم بالوالى قبل توليه والمصروف قبل صرفه.

٤ — وأما الرابع فكاتب يكتب المناشير ، ولقد تطلبت كثرتها — لاسيما فى الدولة المملوكية — كثرة عددية من الكتاب الذين يتولون هذا الضرب من الكتابة فيستقل كل واحد أو جماعة منهم بمجموعة خاصة وهذه الكثرة العددية تحتمها ضرورة توفير نسخ متعددة للنسخة الأصل مطابقة لها تمام المطابقة حتى فى التنقيط والضبط بتعبير هذا العصر « مخلدة فى الديوان ، لاتغادر المبيضة بحرف لتكون موجودة فيما لو احتيج إليها » :

٥ — وأما الخامس فكاتب يبيض ما يبيضه المنشىء ، ويشترط فيه حسن الخط .

٦ — وأما السادس فكاتب تقتصر مهمته على النظر فيما قد كتب أى أنه أشبه بالمراجع حتى يؤمن عثرات القلم وسهو البال من خطأ لغوى أو إعجام أو تصحيف أو سقوط حكمة أو حرف يغير المعنى أو حذف لفظة أو إضافتها مما قد يتبدل معه المقصود ويفسر الموضوع على غير وجهة

والظاهر أنه كان يشترط فيه فوق كل شيء إتقان علم اللغة وحفظ القرآن والحديث .

٧ — وأما السابع فكاتب يكتب التذاكر والدفاتر الخاصة بمتعلقات الديوان ، وكان عدد أفراد هذه الطائفة كبيرا كما يستدل من تعدد المهام الموكولة إليهم ، شأنهم فى ذلك شأن رجال الفئة السالفة وتنقسم وظيفة الكاتب منهم فى هذا الضرب إلى أقسام لعل أهمها هو قيامه بوضع جزازات أو تذاكر منفصل بعضها عن بعض تشتمل على أهم ما يتضمنه كل كتاب من الكتب الصادرة من الديوان أو الواردة إليه أى أنه يستفرغ كل ما فى الرسالة من أمور يفصل بعضها عن بعض فإذا احتيج لمسألة خاصة بذاتها أمكن العثور عليها فى يسر وسهولة ، وتكون لكل تذكرة علامة باسمها أى ذات عنوان شاملة لاسم مرسلها والمصدرة إليه وعليها تاريخ المكاتبة .

ومن وظيفة الكاتب فى هذه الطبقة أيضا أن يضع دفترا بالألقاب المختلفة ومراتب مخاطبة كل شخص وما يجب أن يدعى له به فى السجلات والمكاتبات والمناشير والتوقيعات حتى لا يخاطب فرد بلقب غير لقبه عظم أو صغر هذا اللقب ، ففى كليهما حط من مكانته ومن مكانة الدولة ويشمل هذا الدفتر أوراقا منفصلة ، فتكون لكل شخص ورقة خاصة به متضمنة تاريخه وألقابه ووظائفه وما أنعم به عليه من إقطاع وخلع . وتاريخ صرفه واسم من صرف به، فإن ولى وصرف من يومه تضمنت الورقة الولاية والصرف وإن تعددتا ، وهذا يتطلب السرعة فى إعداد هذه التذاكر ولا يقتصر على تذكرة . ومن ثم كان لنا أن نتوقع أن العمل فى ديوان الإنشاء كان مستمراً ليــلا ونهاراً والغرض من هذا الدفتر أن يكون موجوداً لدى كتاب الإنشاء إذ لا تتسع الذاكرة مهما كانت واعية أن تحفظ فى دقة كل ما يتعلق بهذه الأمور ، وإذا كان كتاب هذه الطائفة كثيرين فقد وكل إليهم إلى جانب هذا كله وضع دفتر بالأحداث الجليلة مع ذكر تواريخها، وليس من شك فى أن المنفعة جليلة وهى عندى أشبه بالجزازات التى يدونها الباحث الحديث حين يجمع مادة من مختلف المراجع والمصادر

الأصلية ، ومن ثم لاينبغى عليه إن أراد كتابة بحثه إلا أن ينسق بين بعضها والبعض الآخر :

وليس من شك فى أنه لو عثر اليوم على هذه الجزازات أو بعضها لأمكن التنسيق بينها و إلقاء ضوء كشاف على تاريخ مصر السياسى والاجتماعى والاقتصادى والحربى وعلاقات مصر بمختلف الدول حينذاك وفى هذا يقول القلقشندى : إنه لو جمع من هذا الدفتر وسابقه تاريخ لاجتمع .

ويقوم كاتب التذاكر أيضاً بعمل فهرست منفرد للكتب الصادرة والواردة يومياً وشهرياً وسنوياً مع ذكر ورودها وصدورها وخلاصة مضمونها فإن كان الأمر هاماً نسخه الكاتب بأكمله وسلمه على حده للخازن :

وخامسها : عمل فهرست للإنشاءات والتقاليد والمناشير ويجرى هذا الفهرست على حساب الشهور كل شهر على حدة ، فإذا حال الحول ودارت السنة استجد آخر على نحوه ، على أن هناك كتبا ترد على ديوان الرسائل المصرى تكون بلسان غير العربية ، كالتركى والفارسى لذلك يوكل إلى فرد بارع فى لسان المكتوب متمكن منه حاذق له بالقيام بترجمته إلى العربية (رواية برقوق) ، وإذ كانت هذه الرسائل غير العربية كثيرة فقد تطلب ذلك عمل فهرست لجمع هذه الأصول وترجمتها ويتضمن هذا الفهرست محتويات كل كتاب واسم من قام بترجمته إلى العربية لتكون العهدة عليه ويكون لما جاء من فهم لترجمته مسئولا :

* * *

هذه هى طائفة موظفى الديوان « من الكتاب » ونلاحظ فيها تكوينا هرميا قمته صاحب الديوان وقاعدته طائفة كبيرة من الكتاب كل منهم حجر فى هذا البناء ، على أنه يوجد إلى جانبهم فى الديوان أيضاً وظيفتان هما :

١ ـ وظيفة الخازن الذى يؤتمن على حفظ كل المراسيم والمناشير

والقرارات والمعاهدات ، وهذا ما يعرف بالأرشيف فى العصر الحديث مصطلحا ووظيفة ، وقد اشترطوا ألا يتم النسخ إلا فى حضور الخازن وأن يكتب الكاتب أمامه ما يفيد اسم الجهة التى ورد منها الكتاب وتاريخ وروده وتاريخ الرد عليه ، فإن لم يكن ثم جواب عليه قالوا « أخذ الخازن على المنشور خط صاحب الديوان نفسه أنه لاجواب عنه » وذلك لتبرأ ذمته ولا يتهم فى وقت من الأوقات أنه أخفاه أو يدعى أنه لم يعلم به .

٢ — أما الوظيفة الثانية فكانت وظيفة صاحب الديوان وهو الذى يتخذه صاحب الديوان نفسه حتى لا يصبح مكانه مجمعا لكل من أرد الدخول عليه ، فيصرفه ذلك عن تصريف مهام الأمور ومراجعة مختلف كتاب الديوان ؛

أما فى القرن الثامن ومستهل القرن التاسع للهجرة فقد أصبح ديوان الإنشاء يتألف من طبقتين فقط هما :

١ — كتــاب الدست ، وكانوا يجلسون بين يدى الســلطان وتحت كاتب السر ، وقد بدأ هذا التنظيم زمن الظاهر بيبرس حيث جعلهم ثلاثة على رأسهم القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر ، وهذا مما يدل على سر مكانتهم لدى السلطنة على أن هذا العدد أخذ فى الزيادة حتى إنهم بلغوا العشرة زمن الأشرف شعبان بن حسين ثم جاوزوا العشرين فى أخريات أيام القلقشندى وقد أدت هذه الزيادة العددية إلى أن انخرط فى سلك كتاب الدست جماعات ممن ليسوا بأهل لأن يكونوا بينهم ؛

٢ — أما الفئة الثانية فتعرف بكتاب الدرج ومهمتهم كتابة ما يوقع به كاتب السر أو كتاب الدست أو إشارة الأمير أو الوزير أو الدوادار من المكاتبات والتقاليد والتواقيع والمراسيم والمناشير وغيرها ، وقد نسبوا إلى كتابتهم هذه المكتوبات فى الدرج وهو فى عرف الوقت بنوع من الورق المستطيل المركب من عدة أوصال تبلغ العشرين وتكون متلاصقة ؛ وينفى القلقشندى إطلاق لقب الموقعين على كتاب الدرج ، وإنما يقول : إنه يجوز أن

يطلق عليهم «كتاب الإنشاء» لأنهم يكتبون ما ينشأ من المكاتبات ، ولقد كثر عددهم حتى بلغ مائة وثلاثين ، وإن يكن أبرعهم قد شاركوا كتاب الدست فى التقاليد والتواقيع على أنهم لم يعودوا يهتمون بحسن اللفظ وبلاغة العبارة ، بل إنهم مهتمون بتلفيق كلام المتقدمين فى بعض الظروف والأحوال ؛

٥

الجانب الأثري في كتاب "صبح الأعشى"

بقلم : الدكتور أحمد دراج

يفرد القلقشندى فى كتابه «صبحى الأعشى» فصلا عن قواعد الديار المصرية المستقرة ، وهى ثلاث :

القاعدة الأولى — الفسطاط

القاعدة الثانية — القاهرة

القاعدة الثالثة — القلعة

وهذا الفصل ؛ وهو الأول من الباب الثالث ، بالجزء الثالث من الكتاب ، لا يشغل سوى صفحات معدودة ، أى من صفحة ٣٢٠ حتى ٣٧٩

والقلقشندى ، فى حديثه عن هذه القواعد ، إنما يتحدث عن حاضرة الديار المصرية فى عصره . وذلك أن الحديث عن صناعة الإنشاء — وهى الهدف الأصلى من تأليف كتابه صبح الأعشى — اقتضى منه التحدث عن حاضرة البلاد باعتبارها مقراً لديوان الإنشاء :

وقدأخذالقلقشندى هذه الفكرة عن أستاذه شهاب الدين أحمد بن محيى الدين ابن فضل الله العمرى ، الذى عبر عنها فى موسوعته «مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار» بقوله : [وأكابر المدن المشهورة بهذه المملكة قاعدة الملك الكبرى القاهرة ، وقد تقدم القول على أنها هى والقلعة والفسطاط ثلاث مدن صارت مدينة واحدة . (١)]

(١) نقل لنا كازانوفا فى كتابه «تاريخ ووصف قلعة القاهرة» ، وصف القلعة عن النسخة الخطية بالمكتبة الأهلية بباريس (القسم العربى ، رقم ٢٣٢٥) لكتاب مسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى . وقد بدأ ابن فضل الله العمرى وصفه للقلعة بهذه العبارة التى أوردناها بالمتن — انظر :

CASANOVA : Histoire et description de la Citadelle du Caire, t. VI, Fasc. 4 dans Mém. Mission Arch. Fr. du Caire), Paris, 1894, pp. 667-672.

كما أخذ عنه هذا المعنى من جاء بعد القلقشندى من مؤرخى القرن التاسع الهجرى . وعلى رأس هؤلاء السيوطى ، الذى يقول فى هذا الصدد ؛ [وحاضرة مصر تشتمل على ثلاث مدن عظام ، الفسطاط وهى بناء عمرو بن العاص ، وهى المسماة عند العامة بمصر العتيقة ، والقاهرة بناها جوهر القائد لمولاه الخليفة المعز ، وقلعة الجبل بناها قراقوش للملك الناصر صلاح الدين أبى المظفر يوسف بن أيوب .[1]]

ومعروف أن القلعة أصبحت مقراً للحكم منذ أن انتقل للإقامة بها الملك الكامل ، ابن أخ صلاح الدين ، بعد أن كمل بناؤها على يديه فى سنة ٦٠٤ هـ . فقد كان من الطبيعى أن يفكر صلاح الدين فى أن يقيم بجوار (قلعة الجبل) وفى حماها ، أى أن يبنى له قصراً بجوارها ؛ غير أنه لم يقدر له أن ينفذ ذلك المشروع ، إذ شغلته أحداث سورية والجهاد ضد الصليبيين عن ذلك . ومن ثم وقع إتمام ذلك المشروع على كاهل ابن أخيه الملك الكامل ، وما إن تم له ذلك حتى تحول من دار الوزارة الفاطمية إلى القلعة وأقام بها .

فالملك الكامل هو الذى قام ببناء القصور السلطانية وغيرها من عمائر السلطنة بجانب (قلعة الجبل) التى بناها صلاح الدين . وهذه المنشآت السلطانية احتواها سور آخر ، عرف بالسور الجنوبى لوقوعه جنوب السور الشمالى ، وهو (قلعة الجبل) ذاتها . وقد شبه كازانوفا فى دراسته عن القلعة هذا السور الجنوبى بمدينة ملكية صغيرة ، مثل فوساى أو بوتسدام ، أقيمت فى حمى (قلعة الجبل) .

واقتضت الإقامة بالقلعة على هذا النحو ، ونقل مقر السلطنة إليها ، بناء مايتطلبه نظام الحكم من عمائر ومنشآت ، سواء بقلعة الجبل (القلعة العسكرية) أو بالقلعة (المدينة السلطانية) . وهذه العمائر والمنشآت هى : الإيوان ، والجامع ، والدور السلطانية ، وباب السر الخاص بالدور السلطانية ، وباب القلة الذى يصل بين قلعة الجبل والمدينة السلطانية والأبراج ، وأبراج

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ، الجزء الثانى ، ص ٢٣٥ .

الحمام ، وخزانة الكتب وقاعة الصاحب (دارالوزارة) ، والإسطبل السلطانى الذى بنى أسفل الربوة التى أقيمت عليها المدينة السلطانية .

وكما اقتضى نقل مقر السلطنة إلى القلعة على هذا النحو أن يكون إلى جانبها الإسطبل السلطانى ؛ فقد اقتضى وجود الإسطبل السلطانى أن يكون بجانبه الميدان السلطانى وسوق الخيل . وسوق الخيل فى ذلك الوقت كانت له أهميته الكبرى ، فمنه تشترى الدولة ما تحتاجه من خيل وعتاد وكل ما يتصل بالحرب والتجهيز والإعداد لها : ولذلك نقل الملك الكامل سوق الخيل إلى ميدان الرميلة تحت القلعة بجوار الإسطبل السلطانى : كما أنشأ بجوارها الميدان السلطانى الذى كان يمتد من ميدان الرميلة حتى باب القرافه ، أحد أبواب سور القاهرة الممتد من القلعة إلى الفسطاط والذى كان يتوصل منه إلى القرافة الكبرى . وهذه المنطقة أسفل القلعة التى كانت تضم الإسطبل السلطانى وسوق الخيل والميدان السلطانى هى التى أصبحت تكون السور الثالث أو النطاق الثالث للقلعة : وكان يسمح بالدخول إلى هذا النطاق من باب السلسلة ، المواجه لمدرسة السلطان حسن : والذى كان يتوصل منه إلى الإسطبل السلطانى (١) .

وهذه الأسوار الثلاثة أو النطاقات الثلاث هى التى عرفت باسم (القلعة) التى أصبحت القاعدة الثالثة فى حاضرة الديار المصرية ، وقاعدة الحكم فى مصر الإسلامية والحديثة منذ أن انتقل إليها الملك الكامل إلى أن تركها الخديوى اسماعيل .

وإذا ما انتقلنا إلى شرح بقية النص الذى جاء على لسان ابن فضل الله العمرى ، ونقله عنه القلقشندى وغيره من مؤرخى القرن التاسع الهجرى ، لعرفنا أن وصف حاضرة الديار المصرية على هذا النحو إنما جاء تعبيرا صادقا عما استقر عليه أمر هذه القواعد الثلاث — وعلى وجه التخصيص — منذ عهد الناصر محمد بن قلاوون ، إذ فى عهده التحمت هذه القواعد

(١) انظر :

— كازانوفا : تاريخ ووصف قلعة القاهرة (الأصل الفرنسى) ، الجزء الأول ، المقدمة ، والفصل السابع ، الجزء الثانى ، الفصل ، السابع عشر .

الثلاث بعضها ببعض ، ولم تعد مدناً منعزلة يعزل بين كل منها فضاء واسع ، وإنما أصبحت مدينة كبيرة واحدة .

فعهد الناصر محمد بن قلاوون ، الطويل الأمد ، يعتبر أعظم العهود قاطبة فى تاريخ الدولة المملوكية . كما كان الناصر محمد بن قلاوون أعظم السلاطين فى زمانه وأعظمهم جاهاً وثروة . وفضلا عن ذلك فقد كان رقيق الإحساس ذواقاً للحياة المترفة الناعمة ، فدفع بحماسته المرهفة وذوقه الفنى حركة الإنشاء والتعمير دفعة قوية نشيطة . فيذكر لنا من أرخ له قائمة لانهاية لها ، مما قام بإنشائه هو ، وأمراء مملكته من جسور وقنوات وقصور ومساجد . . وغيرها من المنشآت . وبإرشاده وتشجيعه أنشئت خارج سور القاهرة المعزية أربعة أو خمسة أحياء جديدة ، وهى : بركة الفيل ، وناحية بولاق ، وساحل النيل من منية السيرج إلى جامع الخضيرى ، والقطعة التى فيما بين قبة الإمام الشافعى إلى باب القرافة ، والصحراء فيما بين القلعة وخارج باب المحروق إلى قبة النصر . وموجز القول فإن معالم مدينة القاهرة الجديدة إنما تؤرخ بعهده . (١)

إذا ما أضفنا إلى هذه الصورة ، ما حدث من استمرار حركة البناء والتعمير فيما بين القلعة والقاهرة المعزية من جهة ، والقلعة والفسطاط من جهة أخرى ، خلال الفترة الممتدة من نهاية عهد الناصر محمد بن قلاوون (ت سنة ٧٤٦ هـ) حتى زمن القلقشندى (ت سنة ٨٢١ هـ) ، لأدركنا مدى الالتحام الذى حدث بين هذه القواعد الثلاث (٢) ولأمكننا

---

(١) عن حركة البناء والتعمير فى عهد الناصر محمد بن قلاوون انظر :

ـ الدكتور زيادة : حركة البناء والتعمير فى عهد الناصر محمد ، « من كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزى » ـ المجلة التاريخية المصرية ، والمجلدان التاسع والعاشر ، ١٩٦٠ ـ ١٩٦١ ، ص ٢٤١ ـ ٢٥٠ .

ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، طبعة دار الكتب ، الجزء التاسع ، ص ١٧٨ ـ ٢١٠ .

ـ كازانوفا : المرجع السابق (الأصل الفرنسى) ، الجزء الثانى ، الفصل التاسع (منشئات محمد بن قلاوون) .

(٢) انظر الدراسة التى قام بها سالمون Salmon عن قلعة الكبش وبركة الفيل ، والتى سأشير اليها بالمتن فيما بعد

أن نتصور المدينة الكبيرة التى تكونت من هذه القواعد الثلاث : المدينة الكبيرة التى أصبحت تعرف لدى المصريين ، منذ ذلك الوقت ، بمدينة القاهرة ، والتى وصفها لنا ، كوحدة واحدة ، جميع الرحالة الأوربيين الذين زاروا مصر خلال القرن التاسع والعاشر الهجريين (١) .

* * *

إن هذا الجانب الأثرى فى كتاب « صبح الأعشى » يمثل أحد الجوانب التى لا تتصل بموضوع الكتاب مباشرة . غير أن ما كتبه القلقشندى عن القلعة باعتبارها قاعدة الحكم فى حاضرة الديار المصرية ، يعتبر أهم أجزاء هذا الجانب ، بل يعتبر من أهم ما احتواه كتابه . وهذه الأهمية تستمد وجودها من عنصرين : الأمانة فى النقل عن أستاذه شهاب الدين أحمد بن محيى الدين بن فضل الله العمرى ، والدقة والإصالة فى وصف ما أضافه إلى ما نقله نتيجة المشاهدة العيانية الطويلة .

وهذا الحكم إنما جاء بعد عدة دراسات تاريخية أثرية قام بها عدد من المستشرقين الفرنسيين ، يمثلون مدرسة ذات أسلوب عمل خاص كرست جهودها لإحياء معالم عواصم مصر الإسلامية : الفسطاط ، والقطائع ، والقاهرة (المعزية) ، والقلعة .

فهذه المدرسة تعتمد ، فى المقام الأول ، على استخراج النصوص التاريخية الخاصة بالمعالم الأثرية من المصادر المعاصرة ، حقبة حقبة ، ثم تقوم بتطبيق هذه النصوص التاريخية على الطبيعة فى ضوء ما تبقى من أحياء وآثار وأطلال ومعالم ؛ كمحاولة لإحياء المعالم الكاملة لهذه العواصم فى فترات ازدهارها ومجدها .

---

(١) انظر :

— DOPP : Le Caire vu par les voyageurs occidentaux du Moyen-Age, Extrait du B.S.R.G.E., T. XXIV, Le Caire, 1951.

— CLERGET (M.) : Le Caire. Etudes de géographie urbaine et d'histoire économique 2 vol., Le Caire 1934.

وإلى هذه المدرسة يرجع الفضل فى إحياء معالم حواضر مصر الإسلامية . فقد قام رافيس Ravaisse فى عام ١٨٨٧ بدراسة تاريخية وصفية للقاهرة المعزية منذ إنشائها حتى القرن الخامس عشر الميلادى، وهى الدراسة التى صدرت بعنوان :

—Essai sur l'histoire et sur la topographie du Caire d'après Makrizi (dans Mém. Miss. Arch. Fr., T. I et III).

وقام سالمون SALMON بدراسة مماثلة عن قلعة الكبش وبركة الفيل لإحياء معالم مدينة القطائع والجانب الجديد من مدينة القاهرة الممتد من باب زويلة حتى القلعة ، وهى الدراسة التى صدرت فى عام ١٩٠٢ بعنوان .

— Etudes sur la topographie du Caire. La Kal'at al-Kabch et la Birket a-lFil (dans Mém. de l'Ins. Fr. d'Arch. Or., T. VII, Le Caire, 1902.

وكان قد سبقه كازانوفا Casanova فى دراسته التاريخية الوصفية للقلعة التى انتهى منها فى عام ١٨٩٤ ونشرها بعنوان :

— Histoire et description de la Citadelle du Caire (dans Mém. Miss. d'Arch. Fr. du Caire, T. VI, 4ème Masc.), Paris, 1894.

وفى عام ١٩١٩ انتهى كازانوفا من دراسته لإحياء معالم مدينة الفسطاط ونشرها بعنوان :

— Reconstruction topographie de la ville Fustat ou Misr (dans Mém. de l'Inst. Fr. d'Arch. Or du Caire, T. XXXV.

هذه الدراسات جميعاً اعتمدت أساساً على كتاب « الخطط » للمقريزى ، فهو المرجع الرئيسى الذى وصل إلينا عن خطط وآثار عواصم مصر الإسلامية حتى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى على وجه التقريب . وقد أثبتت هذه الدراسات التطبيقية صحة الجانب الأكبر مما ذكره المقريزى فى خططه عن هذه المعالم والآثار الخاصة بالفسطاط

والقاهرة والقطائع وبركة الفيل ، بصرف النظر عما يوجه إليه من تهمة النقل عن غيره ، ولاسيما الأوحدى المؤرخ . (١)

إلا أن كازانوفا خرج من دراسته للقلعة وقد اهتزت ثقته بما جاء فى كتاب « الخطط » من وصف لأسوار القاهرة والقلعة . ففضلا عما لاحظه ، فى عديد من المواضع ، من إغفال المقريزى الإشارة إلى من نقل عنه ممن سبقه من المؤرخين ، فقد أخذ عليه الكثير من المتناقضات . فهو يناقض نفسه فى كثير من الأحيان ، فيما ذكره فى مواضع مختلفة من كتابه « الخطط » عن الأثر الواحد : بل فيما ذكره فى بعض الأحيان عن موضوع معين فى كتابه « الخطط » وفى كتابه « السلوك » ، وهو كتابه الرئيسى الثانى . (٢)

كما خرج من هذه الدراسة بنتيجة هامة ، وهى أن أدق وصف للقلعة هو ما كتبه شهاب الدين أحمد بن محيى الدين بن فضل الله العمرى فى موسوعته « مسالك الأبصار » وأن هذه الدقة فى الوصف إنما جاءت نتيجة عمله فى ديوان الإنشاء ، مشاركاً لأبيه الذى كانت له رئاسة الديوان ، طوال سنوات عديدة فى عهد الناصر محمد بن قلاوون .(٣) وأن كلا من القلقشندى والمقريزى نقلا عن ابن فضل الله العمرى هذا الوصف مع فارق كبير من حيث الأمانة والدقة فى النقل . فقد أغفل المقريزى الإشارة إلى ابن فضل الله العمرى ، بينما أشار القلقشندى إلى ذلك صراحة . (٤)

---

(١) انظر :

ـ الدكتور زيادة : المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى ، ص ١٠ ـ ١٢

ـ الأستاذ محمد عبد الله عنان : مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية ، الفصل الثانى ، ص ٥٢ ـ ٥٩ .

WIET : Compte rendu d'Ibn Muyussar, oJurnal Asiatique 1921.

(٢) انظر كازانوفا : المرجع السابق ، الجزء الثانى ، الفصل الحادى عشر (قلعة الفصل الثانى والثالث والرابع (أسوار القاهرة) ، الفصل الثامن (القلعة منذ عهد الملك الكامل حتى عهد الناصر محمد بن قلاوون) .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ، الجزء الأول ، ص ٩٨ ـ ٩٩ .

(٤) انظر كازانوفا : تاريخ ووصف قلعة القاهرة (الأصل الفرنسى) ، الجزء الأول ، القاهرة زمن شهاب الدين بن فضل الله العمرى) .

وفضلا عن ذلك فقد أضاف القلقشندى إلى وصف القلعة الذى نقله عن ابن فضل الله العمرى ملاحظاته الخاصة المستمدة من المشاهدة العيانية والتجربة الحية . وقد أثبت كازانوفا دقة وصحة هذه الملاحظات ، بل أوضح أنه لولا ذلك لما أمكنه أن ينتهى إلى ما انتهى إليه فى دراسته التاريخية والوصفية للقلعة . (١)

ومن حق القارىء أن نوضح له الأسباب التى جعلت وصف القلقشندى يتميز عن وصف غيره من المؤرخين ، وعلى رأسهم عمدتهم المقريزى ، بالأمانة فى النقل والدقة فى وصف الجديد الذى أضافه إلى ما نقله .

إن القلقشندى يتحدث فى مقدمة كتابه ، وكذلك فى الجزء الرابع عشر من هذا الكتاب ، عن كيفية إلتحاقه كاتباً أو موقعاً بديوان الإنشاء سنة ٧٩١ هـ . فهو ينكر صراحة أن المقامة التى سماها « الكواكب الدرية فى المناقب البدريّة » كانت جواز المرور له إلى هذه الوظيفة ، فهو يقول :

[هذه المقامة التى قدمت الإشارة إليها فى خطبة هذا الكتاب إلى أنى كنت أنشأتها فى حدود سنة إحدى وتسعين وسبعمائة ، عند استقرارى فى ديوان الإنشاء بالأبواب الشريفة ، وأنها اشتملت — مع الاختصار — على جملة جمّة من صناعة الإنشاء ، ووسمتها « بالكواكب الدريّة فى المناقب البدْرية » ووجهت القول فيها لتقريظ المقر البدرى ، بن المقر العلائى ، بن المقر المحيوى ، بن فضل الله ، صاحب ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية بالديار المصرية يومئذ] . (٢)

وبدر الدين محمد بن محيى الدين بن فضل الله هو أحد أفراد أسرة فضل الله العمرى التى تولت لأكثر من قرن من الزمان وظيفة صاحب ديوان الإنشاء ، أو كاتب السر فى دولتى المماليك البحرية

(١) انظر كازانوفا : المرجع السابق ، الجزء الثانى ، الفصل الثالث عشر (القلعة زمن القلقشندى والمقريزى) .

(٢) صبح الأعشى ، الجزء الأول ، المقدمة ، ص ٨ ، الجزء الرابع عشر ، ص ١١٠ وما بعدها .

والبرجية . وقدشغل أفراد هذه الأسرة هذه الوظيفة عن جدارة أدبية ، (١) وإلى أحد أفرادها وهو القاضى شهاب الدين أحمد بن محيي الدين يرجع الفضل فى وضع المصطلح الشريف الخاص بأصول المكاتبات والمراسلات وغيرها من أعمال ديوان الإنشاء . (٢)

هذا وقد شغل بدر الدين محمد بن محيي الدين بن فضل الله وظيفة كاتب السر ثلاث مرات . الأولى من رمضان ٧٦٩ هـ حتى شوال ٧٨٤ هـ ، أى إلى أن عزل منها بعد شهر واحد تقريباً من تولية الظاهر برقوق عرش السلطنة . (٣) والثانية من ٤ من ذى الحجة ٧٨٦ هـ حتى ١٤ من صفر ٧٩٢ هـ وخدم فيها الظاهر برقوق ، والمنصور حاجى خلال السنة الأخيرة منها ، وبعد أن نجح الظاهر برقوق فى استعادة عرشه فر بدر الدين إلى دمشق خشية أن يتهمه السلطان بالتآمر مع المتآمرين على خلعه . وفى السنة قبل الأخيرة من هذه الفترة (سنة ٧٩١ هـ) ألحق القلقشندى بديوان الإنشاء بعد أن امتدحه فى المقامة التى أهداها إليه.(٤) وفى المرة الثالثة تولى رئاسة ديوان الإنشاء فى سلطنة الظاهر برقوق أيضاً، فى الفترة من شوال ٧٩٣ هـ حتى ٢٠ شوال ٧٩٦ هـ ، وهو اليوم الذى أدركته فيه الوفاة . (٥)

ومن هذا يتضح أن بدر الدين محمد بن محيي الدين بن فضل الله

---

(١) صبح الأعشى ، الجزء الأول ، ص ٧ ــ ٨ ، ص ٩٨ ــ ٩٩ .

ــ تولى رئاسة ديوان الانشاء من بين أفراد هذه الأسرة خمسة أشخاص وهم :

١ ــ القاضى شرف الدين عبد الوهاب بن فضل الله .

٢ ــ القاضى محيى الدين بن فضل الله ، ومعه ابنه القاضى شهاب الدين أحمد وكان يقرأ البريد على السلطان وينفذ المهمات .

٣ ــ القاضى محيى الدين بن فضل الله ومعه ابنه القاضى علاء الدين وكان كأخيه شهاب الدين أحمد يقرأ البريد على السلطان وينفذ المهمات .

٤ ــ القاضى علاء الدين بن محيى الدين بن فضل الله استقلالا .

٥ ــ القاضى بدر الدين محمد بن محيى الدين بن فضل الله .

(٢) صبح الأعشى ، الجزء الأول ، المقدمة ص ٧ .

(٣) WIET : Les secrétaires de la Chancellerie en Egypte sous les Sultans circassiens, No. I, pp. 1-2.

ــ تولى برقوق عرش السلطنة فى ١٩ رمضان ٧٨٤ هـ .

(٤) WIET : Op. cit., No. III, pp. 3-4.

(٥) WIET :Op. cit., No. V, pp. 4-5.

هو صاحب الفضل على القلقشندى فى إلحاقه بالعمل بديوان الإنشاء ، كما أن القلقشندى خدم فى الديوان مرءوساً له فى فترتين من الفترات التى تولى فيها رئاسة الديوان . وما من شك أن القلقشندى يحمل له فى قلبه كثيرا من التقدير والاعتراف بالفضل والجميل . وتجلى كل ذلك فى إشارته ، فى كثير من المواضع فى كتابه إلى أفرادهذه الأسرة ، وعلى رأسهم شهاب الدين أحمد بن محيي الدين صاحب كتاب « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » وكتاب « التعريف بالمصطلح الشريف» .(١)

وأما صحة الملاحظة المستمدة من المشاهدة العيانية ، والتى أعطت وصفه القلعة صفة الأصالة والدقة فقد جاءت نتيجة عمله بديوان الإنشاء بالقلعة فترة طويلة من الزمن . وربما يرد على هذا القول بأن المقريزى عمل أيضاً موقعاً بديوان الإنشاء أثناء الفترة الأولى التى تولى فيها رئاسة الديوان بدر الدين محمد بن محيي الدين بن فضل الله . غير أنه يرد على ذلك بأن مدة عمل المقريزى فى هذه الوظيفة كانت قصيرة ، فهذا ما يتضح مما جاء على لسانه فى وصفه لقاعة ديوان الإنشاء بالقلعة . ففى هذا الصدد يقول :

[وأنا جلست فيها عند القاضى بدرالدين محمد بن فضل الله العمرى أيام مباشرتى التوقيع السلطانى إلى نحو السبعين والسبعمائة] . (٢)

بل إن هذه الحقيقة التى ذكرها المقريزى عن نفسه موضع شك كبير ، فالمعروف أنه ولد فى سنة ٧٦٦ هـ (٣) وهذا يعنى أنه عندما ترك العمل بديوان الإنشاء حسبما جاء بالنص المنقول عنه ـــ كان يبلغ زهاء الأربع أو الخمس سنوات . وفضلا عن ذلك ، فانه إذا سلمنا بوجود خطأ فى النص فيما يختص بالتاريخ الذى ذكره ، فمن المعروف أن المقريزى شغل بعد تركه لهذه الوظيفه عدداً من الوظائف بمصر ،

---

(١) GAUDEFROY—DEMOMBYNES : La Syrie à l'époque des Mamlouks, Introduction, pp. III-IV.

(٢) الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢٢٥ .

(٣) الدكتور زيادة : المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى ، ص ٦ .

كان آخرها وظيفة محتسب القاهرة والوجه البحرى للمرة الثالثة فى سنة ٨٠٧ هـ ، وكان هذا آخر العهد به بحياة الوظائف إلى أن توفى فى سنة ٨٤٥ هـ (١) :

وأما صاحبنا القلقشندى فقد ظل يعمل كاتباً بديوان الإنشاء بالقلعة مدة طويلة ، تبلغ — على وجه اليقين — ربع قرن من الزمان ، وربما تصل إلى الثلاثين عاماً . فالقلقشندى — كما سبق أن أوضحنا — التحق بالعمل فى ديوان الإنشاء سنة ٧٩١ هـ . وقد نقل عنه كل من أرخ لسيرته ما ذكره هو عن استقراره فى هذا الديوان فى هذه السنة ، إلا أن أحداً منهم لم يُشِرْ إلى السنة التى اعتزل فيها الخدمة بالديوان. (٢) وأقصى مااستطعنا أن نعرفه عن سيرته أنه انتهى من تأليف كتابه « صبح الأعشى » فى شهر شوال سنة ٨١٤ هـ . (٣)

وكنت دائم التساؤل ، كيف تسنى للقلقشندى أن ينقل إلى موسوعته هذا العدد الضخم والذى لاحصر له من المكاتبات والرسائل ؛ وغيرها من المقامات الخاصة بفنون الكتابة وصناعة الإنشاء ، فضلا عما احتوته من فصول عديدة عن النظم والمعاملات والآثار والاجتماع وغيرها من جوانب الحياة المختلفة فى مصر الإسلامية . إن الجواب المنطقى على هذا التساؤل هو أن القلقشندى لا بد وأن يكون قد شغل وظيفة الكتابة فى ديوان الإنشاء فترة طويلة من الزمن استطاع خلالها أن يحصل على

---

(١) شغل المقريزى وظيفة الحصبة ثلاث مرات ، الأولى فى سنة ٨٠١ هـ ، والثانية فى سنة ٨٠٢ هـ ، والثالثة فى سنة ٨٠٧ هـ .

انظر : السلوك ، المخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس ، القسم العربى ، رقم ١٧٢٨ ، ورقة ١٠ ب ، ١٦أ ، ١٩أ ، ٤٨ب .

(٢) السخاوى : الضوء اللامع ، الجزء الثانى ، رقم ٢٥ ، ص ٨

— ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، الجزء السابع ، ص ١٤٩ .

— كما ترجم للقلقشندى كثيرون كابن حجر ، وابن تغرى بردى وغيرهم ، الا أنهم لم يضيعوا جديدا فى هذا الصدد .

(٣) ورد ذلك على لسان الأستاذ محمد عبد الله عنان أثناء القاء حديثه عن القلقشندى فى الندوة التى أقيمت لهذا الغرض بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية .

الدكتور زيادة : المرجع السابق ، ص ٨ .

نسخ مما تحت يده من معلومات وحقائق تتعلق بهذه الجوانب المختلفة جميعاً .

ومن ثم قرأت معظم ما استطاعت أن تصل إليه يدى من تراجم له، وهى كثيرة ، غير أنى لم أجد فى إحداها بغيتى . ولذا انتقلت أقلب صفحات كتاب صبح الأعشى ، جزءاً جزءاً ، علنى أجد على لسان القلقشندى ما يوضح حقيقة أمره ، وبعد جهد جهيد وجدت ما أبحث عنه وعرفت مما أورده عن نفسه أنه ظل — على وجه اليقين — يعمل بديوان الإنشاء حتى سنة ٨١٦ هـ وربما ظل يعمل به حتى أدركته الوفاة فى سنة ٨٢١ هـ .

ففى الجزء التاسع ، صفحة ٢٢ ، يذكر القلقشندى عن نفسه :

[قلت : وكتبت للمقرالبدرى، محمود الكُلستانى، الشهير بالسّراى، مهنئاً له باستقراره فى كتابة السر الشريف بالديار المصرية فى الدولة الظاهرية برقوق فى سلطنته الأولى .

رَفعْتَ للمجد مذ وُليت بنيــانا وشدّت للفضل بعد الوهْن أركانا(١)]

هذا ومن المعروف أن بدر الدين محمود الكلستانى تولى كتابة السر بعد أن شغرت بوفاة بدر الدين محمد بن فضل الله فى شوال سنة ٧٩٦هـ، وظل يشغل هذه الوظيفة حتى ١٠ جمادى الأولى سنة ٨٠١ هـ : (٢)

وفى الجزء الرابع عشر ، صفحة ١٩١ ، يذكر أيضاً عن نفسه :

[قلت : وهذه رسالة أنشأتها فى تقريض المقر الفتحى ، أبى المعالى فتح الله صاحب دواوين الإنشاء الشريف بالديار المصرية والممالك الإسلامية ، أدام الله تعالى معاليه ، فى شهور سنة أربع عشرة وثمانمائة، وهى: . . . . (٣)] :

---

(١) يلى ذلك بقية أبيات القصيدة :

(٢) WIET : Op. cit., No. VI, pp. 5-6.

(٣) يلى ذلك نص الرسالة وتشغل عدة صفحات ، من صفحة ١٩١ حتى صفحة ١٩٧ .

وفتح الدين فتح الله تولى رئاسة ديوان الإنشاء مرتين. المرة الأولى من شهرجمادى الأولىسنة ٨٠١ هـ حتىشهرربيع الأول سنة ٨٠٨ هـ(١)، والمرة الثانية من ٧ ذى الحجة سنة ٨٠٨ هـ حتى شوال سنة ٨١٥ هـ . (٢)

وفى الجزء التاسع ، صفحة ٤٢ ، يقول أيضاً عن نفسه :

[قلت : ومما كتبت به تهنئة بالصوم للمقرّ الأشرفى الناصرى محمد بن البارزىّ كاتب السِّر الشريف المؤيدى، بالممالك الإسلامية ، فى سنة ست عشرة وثمانمائة نظماً :

أيا كاتب السر الشريف ومن به تميس نواحى مصر تيهاً مع الشّام (٣)]

ومحمد بن البارزى تولى كتابه السر فى ١٣ شوال سنة ٨١٥ هـ وظل بها حتى أدركته الوفاة فى ٨ شوال سنة ٨٢٣ هـ (٤) .

وعلى هذا النحو نستطيع أن نستنبط أن القلقشندى ظل قائماً بالعمل فى ديوان الإنشاء حتى نهاية سنة ٨١٦ هـ على أقل تقدير ، وربما حتى تاريخ وفاته فى سنة ٨٢١ هـ فليس لدينا أى نص ينفى ذلك أو يؤيده . ويترتب على هذه الحقيقة حقيقة أخرى ، وهى إن القلقشندى وإن كان قد انتهى من تأليف كتابه « صبح الأعشى » فى شوال سنة ٨١٤ هـ إلا أنه ظل يضيف إليه طوال السنوات الباقية من حياته طالما كان لايزال يعمل بديوان الإنشاء .

ومن هذه الشواهد يتضح أيضاً أن القلقشندى عاش طول حياته الوظيفية مادحاً لرؤساء ديوان الإنشاء . غيرأنه من حق القلقشندى علينا ألا أترك هذه الملاحظة ليفهم منها القارئ والسامع ما يقلل من قدره ومكانته ، إذ يتعين على المؤرخ أن يضع فى اعتباره قبل الحكم على الأشخاص طبيعة الفترة التى عاشوها . وهذه الفترة من حياة القلقشندى

---

(١) WIET : Op. cit., No. VII, pp. 6-7.

(٢) WIET : Op. cit,, No X, pp. 14-16.

(٣) يلى ذلك بقية أبيات القصيدة .

(٤) WIET : Op. cit., No. XI, pp. 16-18.

الوظيفية تعتبر من أخطر الفترات التي عرفها تاريخ مصر المملوكية ، بل من أظلمها وأكثرها اضطراباً .

فقد عاصر القلقشندي وهو في بداية عمله بديوان الإنشاء الأحداث التي أدت إلى خلع الظاهر برقوق من عرش السلطنة ، وتولية المنصور حاجي أحد أحفاد الناصر محمد بن قلاوون مكانه ، ثم عودة برقوق إلى عرش السلطنة بعد مضي سنة من خلعه منها (٧٩١ — ٧٩٢ هـ) . وشهد أيضاً الفترة الأخيرة من سلطنة برقوق بما صحبها من اضطرابات حاكها ضده المتطلعون إلى عرش السلطنة من أفراد المماليك(١) . وهذه الفترة هي التي شهدت أيضاً بداية المجاعة الطويلة المتقطعة التي استمرت من سنة ٧٩٦ هـ حتى سنة ٨٠٩ هـ والتي صحبها في السنوات الأخيرة منها ازدياد حدة المجاعة وانتشار الوباء . (٢) كما صاحبتها منذ مطلع القرن التاسع الهجري الأحداث والمحن المتصلة بغزو تيمورلنك لبلاد الشام وتهديده مصر بالغزو. وأخيراً يأتي عهد الناصر فرج الذي امتلأ كله من بدايته حتى نهايته (٨٠١ — ٨١٥ هـ) بالاضطرابات الدموية وتآمر كبار الأمراء بمصر والشام على التخلص منه بسبب صغر سنه وقت أن تولى السلطنة ، ولرفضهم الاعتراف بمبدأ توريث السلاطين السلطنة لأبنائهم من بعدهم : لأويكفي لإبراز مدى دموية هذا العهد أن الناصر فرج قتل بيده ، في سنة واحدة ، سمائة وعشرين أميراً من أمراء المماليك ، وجرد ضد المتآمرين عليه بالشام ثمان تجريدات عسكرية أنفق على كل منها أكثر من مليون دينار . وأنه عزل عن العرش ثم تمكن من العودة اليه ، وأنه قتل إحدى زوجاته بيده بطريقة وحشية تدل على مزاجه الدموي وتعطشه لسفك الدماء . وأخيراً انتهت حياته بالقتل وهو بدمشق ،

---

(١) انظر ابراهيم علي طرخان : مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ، ص ١٥ — ٢٤ .

(٢) المقريزي : اغاثة الأمة بكشف الغمة ، نشر الدكتور زيادة والدكتور الشيال ، ص ٤٣ .

— WIET et HAUTECOEUR : Les Mosquées du Caire, t. I, p. 82.

وكان قد خرج إليها على رأس حملة ليؤدب أحد الخارجين عليه . (١) وفضلا عن هذا كله ، فهذه الفترة هى التى شهدت فيها مصر الضائقة الاقتصادية التى ازدادت حدة وعنفاً عند مطلع القرن التاسع الهجرى ودفعت بالبلاد نحو التدهور الاقتصادى (٢) .

وأخيراً حسْب القلقشندى فى ظل هذه الظروف أن استطاع أن يحافظ على وظيفته ، التى ظل قابعاً بها أكثر من ربع قرن من الزمان. وليس ثمة شك أنه كان أحق برئاسة ديوان الإنشاء من الكثيرين الذين تولوها أثناء فترة عمله به ، (٣) غير أنه كان يفتقر إلى المؤهلات التى تؤهله لشغل هذه الوظيفة حسب معيار ذلك العصر (٤) ، وحسبه ذلك فخراً .

وقبل أن أُنهى الحديث عن هذه النقطة ، لايفوتنى أن أشير إلى ما ذكره المقريزى عن ديوان الإنشاء . فهو — بالإضافة إلى ما سبق أن قلته عن طول مدة عمل القلقشندى بالديوان — يلقى المزيد من الضوء على الطريقة التى صنف بها القلقشندى كتابه . يقول المقريزى :

[وكان بجوار قاعة الصاحب بقلعة الجبل ديوان الإنشاء، ويجلس فيه كاتب السرِّ وعنده موقّعو الدَّرْج وموقّعو الدَّسْت فى أيام المواكب

---

(١) انظر :

— WIET : L'Egypte arabe, pp. 521-524, 526-532, 533-540.
— WIET et HAUTECOEUR : Op. cit., pp. 80-82.

— ابراهيم على طرخان : المرجع السابق ، ص ٢٥ — ٣٠ .

(٢) انظر :

— المقريزى : اغاثة الأمة بكشف الغمة ، ص ٤٣ وما بعدها .
— DARRAG : L'Egypte sous le règne de Barsbay, chap. III, pp. 57-107.

(٣) انظر :

WIET : Les secrétaires de la Chancellerie :

أوحد الدين عبد الواحد الحنفى	No. II, pp. 2-3.
علاء الدين على الكركى	No. IV, p. 4.
فتح الدين فتح الله	No. VII, pp. 6-7.
سعد الدين بن غراب	No. VIII, pp. 7-13.
فخر الدين ماجد بن المزوق	No. IX, pp. 13-14.
فتح الدين فتح الله — للمرة الثانية	No. X, pp. 14-16.

(٤) انظر :

— المقريزى : اغاثة الأمة بكشف الغمه ، ص ٤٣ — ٤٥ (ولاية الخطط السلطانية والمناصب الدينية بالرشوة) .

طول النهار ، وكانت الكتب الواردة وتعليق مايكتب من الباب السلطانى موضوعة بهذه القاعة ... ... فلما زالت دولة الظاهر برقوق ثم عادت اختلت أمور كثيرة ، منها أمر قاعة الإنشاء بالقلعة وهجرت وأخذ ما كان فيها من الأوراق وبيعت بالقنطارونسى رسمها .(1)]

ومن هذا النص السابق ذكره للمقريزى ، يستخرج المؤرخ سبباً آخر للتدليل على مدى قدرة القلقشندى على دقة الملاحظة فى الجديد الذى أضافه إلى وصف القلعة . فمن هذا النص نعرف مكان قاعة دار الإنشاء بقلعة الجبل ، أى بالقلعة العسكرية التى بناها صلاح الدين : فديوان الإنشاء كان يوجد بجوار قاعة الصاحب ، وقاعة الصاحب من إنشاء الملك الكامل ، وقد عرفت بهذا الاسم لأن الوزراء كانوا يلقبون بلقب الصاحب ، وأول من لقب منهم به صفى الدين بن شكر الذى كان وزيراً للملك الكامل . (2)

وأما القلقشندى فإنه يزيدنا إيضاحاً — فى وصفه للقلعة — عن مكان قاعة الصاحب : فيقول فى معرض حديثه عن الباب الثالث (الرئيسى) للقلعة :

[وهو بابها الأعظم الذى يدخل منه باقى الأمراء وسائر الناس ، يتوصل إليه من أعلى الصوة المتقدم ذكرها ، يرقى إليه فى درج متناسبة حتى يكون مدخله فى أول الجانب الشرقى من القلعة . ويتوصل منه إلى ساحة مستطيلة ينتهى منها إلى دركاه جليلة يجلس بها الأمراء حتى يؤذن لهم بالدخول ، وفى قبلى هذه الدركاه دار النيابة ، وهى التى يجلس بها النائب الكافل للحكم إذا كان ثم نائب ، وقاعة الصاحب وهى التى يجلس بها الوزير وكتاب الدولة ، وديوان الإنشاء وهو الذى يجلس فيه كاتب السر وكتاب ديوانه ، وكذلك ديوان الجيش وسائر الدواوين السلطانية . وبصدر هذه الدركاه باب يقال له باب القلة يدخل منه إلى دهاليز

---

(1) الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢٢٥ — ٢٢٦ .

(2) انظر كازانوفا ، المرجع السابق (الأصل الفرنسى) ، الجزء الأول ، الفصل السابع .

فسيحة على يسرة الداخل منها باب يُتوصل منه إلى جامع الخطبة المتقدم ذكره ... ... ويُتوصل من ظاهر هذا الجامع إلى باب الستارة ودور الحريم السلطانية ... ... (١)]

ومن هذا النص نعرف أن قاعة الصاحب كانت تقع بقلعة الجبل بجوار باب القلة . وباب القلة هذا هو الذى يصل بين قلعة الجبل ، أى القلعة العسكرية (السور الشمالى) وبين المدينة السلطانية التى أقامها الملك الكامل بجانبها (أى السور الجنوبى) والنطاق الثالث الذى أنشىء أسفل القلعة ليضم الأصطبل السلطانى وغيره من المنشآت الملحقة بالقلعة . أى أن دار ديوان الإنشاء التى كان يعمل بها القلقشندى ، كانت تقع فى مكان وسط بالقلعة ككل . ومن هذا المكان يستطيع القلقشندى أن يلم بكل ما يجرى فى أقسام القلعة وأسوارها الثلاثة ، ويعرف دقائق وصف كل مكان بها .

وربما يظن المرء أن الأمر كان فى غاية اليسر والسهولة ، وأن أى إنسان يدخل القلعة أو يعمل بها كان يستطيع أن يلم بدقائق وصفها فالدخول إلى القلعة والخروج منها كان يسير وفق نظام محكم دقيق ، نظراً للوضع الذى آلت إليه القلعة على يد الملك الكامل وخلفائه من الأيوبيين ، والمماليك خاصة . فقد أصبحت مقر الحكم وحاضرة البلاد ، فضلا عن إقامة السلاطين وخواص كبار الأمراء والمماليك بها.

فقد كان يتوصل إلى قلعة الجبل (القلعة العسكرية) من بابها الرئيسى الذى عرف بباب المدرج وبباب سارية . ونظراً لأهمية هذا الباب ، فقد كان المتصرف عليه نائب القلعة ، الذى كان يعرف أيضاً باسم والى باب القلعة . وكان يتوصل إلى المدينة السلطانية من باب السر ، ويختص الدخول والخروج منه بأكابر الأمراء وخواص الدولة . كما كان يتوصل إليها من باب القلة بعد أن يجتاز المرء باب المدرج ويعبر الساحة التى تصل بينهما ثم يسمح له بعبور باب القلة بعد أن يكون قد استجوب على يد والى

---

(١) صبح الأعشى ، الجزء الثالث ، ص ٣٧٤ - ٣٧٥ .

هذا الباب ، الذى كان يعرف باسم والى باب القلة . ولم يكن هذا الوالى يقل أهمية من حيث المنصب عن نائب القلعة . أما النطاق الثالث أسفل القلعة فقد كان يتوصل إليه عن طريق باب السلسلة الذى كان يقع فى مواجهة مدرسة السلطان حسن . (١) كما أن العمل بالقلعة كان يجرى وفق رسوم دقيقة صارمة ، سواء من حيث العمل بالدواوين أو من حيث المجالس والمواكب السلطانية . (٢)

لقد أوضحت فى هذا العرض العوامل التى أدت إلى إبراز قيمة الجانب الأثرى الذى تضمنه كتاب صبح الأعشى ، وعلى وجه التخصيص وصفه للقلعة . وبذلك أكون قد أسهمت فى إيضاح أحد الجوانب الهامة لهذا الكتاب ، وأسهمت أيضاً بالمشاركة بجهد متواضع بجانب الجهد الكبير الذى قام به المستشرق الفرنسى كازانوفا Casanova فى دراسته للقلعة .

وسبق أن قلت : إن كازنوفا عرف قيمة وصف القلقشندى للقلعة بعد أن أخضعه للدراسة المقارنة الدقيقة ، ولذلك وضعه فى مكان الصدارة من النصوص التى اعتمد عليها فى دراسته التاريخية الوصفية للقلعة . (٣) غير أن منهج البحث والخطة التى وضعها لنفسه ليسير فى دراسته للقلعة منذ بنائها على يد صلاح الدين حتى عهد الخديوى اسماعيل ، جعلته لايتطرق إلى عدد من المسائل الفرعية التى لا تمس موضوع بحثه إلا بقدر محدود . ومن هذه المسائل الفرعية القضية التى نحن بصددها ، وهى الأسباب التى أدت إلى إبراز قيمة وصف القلقشندى للقلعة . من حيث الأمانة فى النقل ، والأصالة والدقة بالنسبة للجديد الذى أضافه إلى ما نقله عن غيره .

---

(١) انظر كازانوفا : المرجع السابق (الأصل الفرنسى) ، الجزء الثانى ، الفصل السادس عشر (وصف عام للقلعة منذ عام ١٧٩٨ حتى نهاية القرن التاسع عشر) ، ملحق (ولاة القلعة فى عصر سلاطين المماليك) .

(٢) انظر :

خليل بن شاهين الظاهرى : زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، ص ٦٣ — ٦٥ ، ص ٩٦ — ٩٩ ، ص ١٠٨ — ١٠٩ .

(٣) انظر كازانوفا : المرجع السابق (الأصل الفرنسى) ، الجزء الأول ، الفصل السابع (منشآت الملك الكامل) ، الفصل التاسع (منشآت محمد بن قلاوون) ، الجزء الثانى ، الفصل الثالث عشر (القلعة زمن القلقشندى والمقريزى) .

٦

وثائق القلقشندي في "صبح الأعشى"

بقلم: الدكتور عبد القادر أحمد طليمات

١ — تعتبر الرسائل الديوانية الصادرة عن دواوين الإنشاء فى حكومات الدول الإسلامية —والتى نسميها «وثائق» من أهم المصادر التاريخية ، فهى تقع فى المرتبة الثانية من حيث توثيق الخبر ؛ أعنى أن الخبر الحبرى الذى يورده المؤرخ فى كتابه ؛ يؤخذ مأخذ الترجيح لا التعيين ، والخبر الذى يرد فى الرسائل الديوانية يعتبر أساساً للتعيين أو اليقين ، أما ما كان أثراً من الآثار فيعتبر تعيينيا يقينيا ، فالرسالة الديوانية أو الوثيقة ، إذا ما صح صدورها من ديوان الإنشاء ، يمكن أن تعتبر الحكم الفصل فى صحة خبر المؤرخ من عدمه .

فهناك أخبار عند المؤرخين ، يقف منها الدارس أو الباحث الحديث موقف المتشكك ، ولا يستطيع الفصل فيها لغرابتها بحسب نظرته للأمور ولكن هذا الشك يزول — إما سلبا أو إيجابا — إذا ماعثر على وثيقة تؤيد الخبر أو تنفيه ، ومن أمثلة الأخبار التى نعنيها ، خبر ذكره سبط ابن الجوزى فى كتابه « مرآة الزمان » عن الملك الأيوبى يوسف بن ممدود ابن الملك العادل المعروف بالجواد ، لما تقلبت به الأحوال بسبب خلافه مع أبناء أسرته ، قصد الصليبيين وأقام معهم ، وحضر معهم غزوهم «قلنسوة» وأنهم قتلوا ألفا من أهلها المسلمين وهو لا يحرك ساكنا . وليس من شك فى أن هذا الخبر يستدعى الوقوف عنده والشك فى صحته ، ولكن هناك رسالة أوردها القلقشندى فى كتابه «صبح الأعشى» أرسلها الملك الجواد نفسه إلى أمير صليبى يقال له «فرانك» (وهو فردريك الثانى ملك بيت المقدس ، كما سنرى فيها بعد) ، وهى رسالة ودية ، رداً على رسالة وصلته منه لم يذكرها القلقشندى ولا غيره . بل أكثر من هذا

فإن الخاتمة التى ختم بها الملك الجواد الرسالة ، تبين أن غيره من الأيوبيين أيضاً كانوا على علاقة ودية بالصليبيين ؛ وأن المكاتبات الودية كانت تتبادل بينهم ، ومنهم الملك الكامل ؛ حيث يختم الملك الجواد رسالته إلى « فرانك » بقوله « فأما ما ذكره المقام العالى السلطانى ، الملكى ، الكاملى الناصرى زاده الله شرفا وعلوا — من أنه لافرق بين المملكتين ، فهذا هو المعتقد فى صدق عهده ، وخالص وده » . وهذه الرسالة تعنى ، أن العلاقة بين معظم أعيان الملوك الأيوبيين ، وأعيان الملوك الصليبيين ، لم تكن كلها علاقة عداء وحروب فحسب ، وإنما كان إلى جانبها علاقة ود ، تثبتها مكاتبات ودية تتبادل بينهم .

والرسائل الديوانية كثيرا ما تغير مفهوم الدارس الحديث للأحداث فى ضوء أخبار المؤرخ . أو فى ضوء رسائل ديوانية أخرى . من ذلك الصورة المرسومة فى الأذهان ، بأن سياسة صلاح الدين الأيوبى مع الصليبيين كانت سياسة عداء بحت ، وكانت بالتالى سياسة خصومة وجفاء ، وبخاصة مع الحكام منهم ، ولكن الرسالة التى أرسلها صلاح الدين إلى « بلدوين » الخامس — ملك بيت المقدس — يعزيه فيها بوفاة والده ، ويهنئه باستخلافه على مملكة بيت المقدس بعده ، وغبطة صلاح الدين باستخلافه وتمنياته الطيبة له بالتوفيق ، تغير معالم هذه الصورة تغييرا تاما ، وتكشف عن وجود أصول للعلاقات الدبلوماسية ، شبيهة بالعلاقات الدبلوماسية الحديثة .

كذلك الرسالة التى أرسلها الملك الأيوبى المعروف بالجواد . إلى « فرانك » ملك بيت المقدس ؛ توقفنا على سياسة الأيوبيين — بعد وفاة صلاح الدين — مع الصليبيين ، وهى نفس السياسة الودية التى اتبعها صلاح الدين . وفى ضوء مثل هذه الرسائل يمكن الكتابة عن الحروب الصليبية ، كتابة تختلف كل الاختلاف عن الكتابة التى تعتمد على الأخبار الخبرية وحدها . (وسنعرض هاتين الرسالتين بعد قليل)

فالرسائل الديوانية ، من الرسائل التى لايستغنى عن الانتفاع بها

دارس التاريخ ، بل هى من المصادر الأولى الضرورية للباحث أو الدارس لكى يستوفى عن طريقها بحثه ، ويكون (بحثه) موضع التقدير والثقة :

والواقع ، أنه قد آن لدارسى التاريخ الإسلامى ، أن يجلوا فى دراساتهم ، بأن يولوا علم الوثائق أهمية خاصة ، باعتباره عمادا من أعمدة البناء التاريخى ، وباعتباره الوسيلة المؤدية إلى اليقين فى الحكم على الأخبار وروايات الإخباريين .

٢ — وقد أشبع القلقشندى كتابه بالمكاتبات الديوانية التى يمكن الاستفادة منها فى الأبحاث التاريخية على طول التاريخ الإسلامى منذ ظهور النبى — عليه الصلاة والسلام — حتى عصر القلقشندى ، فقد تضمن كتاب « صبح الأعشى » الكتب المتبادلة بين النبى وحكام عصره فى فارس وبيزنطة ومصر ، وبينه وبين الزعماء العرب فى الجزيرة العربية ، وكذلك المكاتبات الصادرة عن حكومات الخلفاء الراشدين ، والأمويين ، والعباسيين ، والبويهيين ، والسلاجقة ، والطولونيين ، والإخشيديين ، والفاطميين ، والأيوبيين ، والسلاطين المماليك فى مصر والشام ، وكذلك المكاتبات الصادرة عن حكومات المغرب والأندلس .

والمكاتبات الصادرة عن دواوين الإنشاء التى تضمنها كتاب القلقشندى متنوعة الموضوعات ، مثل :

— عهود وتقاليد ومراسيم وتوقيعات بتعيين موظفين عسكريين وإداريين وقضائيين .

— عقود صلح ومهادنات بين الحكام المسلمين وأعدائهم (كالروم ، والصليبيين ، والأسبان النصارى) .

— رسائل ودية متبادلة بين الحكام المسلمين وبعضهم بعضا ، (مثل الكتابين المتبادلين بين صاحب «فاس» والسلطان الناصر محمد بن قلاوون).

— رسائل ودية متبادلة بين الحكام المسلمين والحكام غير المسلمين المجاورين لهم (مثل الكتابين المتبادلين بين القائد أبو الفوارس ختور التركى وبين ملك الروم «وردس بن قنبر» المعروف بعسقلاروس .

– إجازات بالتدريس ، والإفتـاء ، ورسائل تهانى وتعازى ، وتقاريظ على الكتب ، والإقطاع ، والنيابة عن السلطنة . وهذه المكاتبات لهـا أهميتها القصوى للباحثين المحدثين ـ كل فى اختصاصه ، حيث يمكنه جمع مادة ومعلومات لموضوعه ، موثوق بها .

٣ – وقد يعتقد البعض ، أن القلقشندى اهتم بجمع هذه المكاتبات فى كتابه لأهميتها التاريخية ، أو ليستفيد منها الناس من الناحية الخبرية ، والحقيقة أن الأمر لم يكن كذلك ، وإنما كان اهتمام القلقشندى بجمعها لكى يستفيد منها كتاب عصره فى ديوان الإنشاء وكتاب الأجيال التالية من ناحية صنعة الإنشاء ، فهى إذن نماذج لأساليب الكتابة الديوانية يقدمها للكتاب الذين تقصر أقلامهم عن الأساليب التقليدية للكتابة الإنشائية البلاغية ، وعن أصول إنشاء مثل هذه الرسائل ، ويتبين غرض القلقشندى هذا بوضوح فى أكثر من مناسبة :

– فهو يذكر فى مقدمة كتابه الغرض من تأليفه بصفة عامة فيقول : إنه لما عين فى ديوان الإنشاء أنشأ مقامة بناها « على أنه لابد للانسان من حرفة يتعلق بها ، ومعيشة يتمسك بسببها ، وأن الكتابة هى الصناعة التى لا يليق بطالب للعلم من المكاسب سواها ... » وأنه جنح فى المقامة « إلى تفضيل كتابة الإنشاء وترجيحها . . . » ونبه فيها « على مايحتاج إليه كاتب الإنشاء من المواد ، وما ينبغى أن يسلكه من الجوادّ » وضمنها « من أصول الصنعة ما أربت على المطولات وزادت ، وأودعها من قوانين الكتابة ما استولت به على جميع مقاصدها أو كادت » ثم أشار عليه بعضهم أن يبسط ماجاء فى المقامة ، فشرع فى ذلك ، وألف كتاب « صبح الأعشى » .

– وينقد بعض الرسائل ويبدى عدم رضائه عنها لأسباب مختلفة ، مثل تعليقـه على « توقيع بتصدير الجـامع الأموى » فيقول

« وهى من تلفيق كتاب الزمان ، على أنها بالمدرس أليق منها بالمصدّر » (١) .

– ويعلق على « توقيع بتدريس المدرسة الخاتونية البرانية الحنفية بدمشق ، كتب به للشيخ « صدر الدين على بن الآدمى » بقوله : « كأنه رأى التوقيع فى الأصل ، لمن لقبه « بدرالدين » لأن « البدر » المناسب لهذا الافتتاح ، فنقله بعض جهلة الكتاب إلى « صدر الدين » كما تراه »(٢) .

– ويعلق على نسخة « أمان » بقوله : « قلت : وهذا الأمان ، أوله ملفق من كلام « التعريف »(٣) وغيره ، وآخره كلام سوقى مبتذل نازل ، ليس فيه شىء من صناعة الكلام » (٤) فيلاحظ على هذه التعليقات ، أن القلقشندى اهتم من المكاتبات بالأسلوب والعرض فقط ، فهو فى المثال الأول : يحذر الكاتب من الخلط – عند كتابة التوقيع – بين « التصدير » و « التدريس » وينبهه إلى وجوب معرفة الفرق بينهما حتى لايخطىء فى إنشائه . وفى المثال الثانى : ينبه الكاتب إلى وجوب مراعاة افتتاح التوقيع بما يطابق لقب الموقع إليه ؛ لأن لكل لقب افتتاحية خاصة تناسبه (٥) . وفى المثال الثالث : يقدم أسلوباً مبتذلا كنموذج ليتجنبه الكاتب .

– كذلك يصرح القلقشندى فى كثير من الرسائل ، بأنه دونها لتكون نموذجاً ينهج الكاتب على نهجه ، مثال ذلك ، قوله : إن التقاليد والتفاويض والتواقيع وغيرها ، الصادرة عن ديوان الإنشاء فى مصر – والتى ذكرها

---

(١) : حـ/١٢/ص/٣٥٧ .
(٢) : حـ/١٢/ص/٣٦٨ .
(٣) : يقصد كتاب « التعريف بالمصطلح الشريف » لابن فضل الله العمرى .
(٤) حـ/١٣/ص/٣٤٩ .
(٥) : مثال ذلك ، أن من لقبه « بدر الدين » يفتتح توقيعه هكذا : « أما بعد حمد الله الذى اطلع « بدر الدين » مشرقا فى منازل السعود .. » (حـ/١٢/ص/٣٦٧) . ومن لقبه « شرف الدين » يفتتح توقيعه ، هكذا : « أما بعد حمد الله الذى قسم للمنابر « شرفا » يتجدد .. » (حـ/١٢/ص/٣٧٠) .

فى كتابه – « ليس هو على سبيل الاستيعاب ، بل على سبيل التمثيل والتذكير لينسج على منواله ، وينهج على نهجه» (١) .

– ويعلق على منشور أعجبه كتب به عن الملك المنصور قلاوون لابنه الناصر محمد بقوله : « كما أن هذا المنشور منشور سلطان ، فهو فى البلاغة لحسن إنشائه سلطان المناشير » . (٢)

– ويعلق على نص هدنة لم يعجبه أسلوبها بقوله : أنه أثبتها ، «ليستمد منها الكاتب ما لعله لا يحضر بباله من مقاصد المهادنات» (٣) .

٤ – كذلك لم يكن غرض القلقشندى أن يجعل كتابه سجلا للمكاتبات التى صدرت عن الحكومات الإسلامية أو التى وردت إليها ، ودليل هذا ، أنه يذكر أنه اطلع على كتاب صدر عن الخليفة المكتفى بالله « عندما بعث محمد بن سليمان الكاتب إلى الديار المصرية فانتـزعها من يد بنى طولون واستولى عليها للخليفة ، فى نحو كراسة ، تاريخها سنة ثمان وستين ومائتين ه . . » ثم يقول : (أضربت عن ذكرها لطولها) . (٤)

– ويعلق على المكاتبات – التى ذكرها – التى صـدرت عن الأبواب الشريفة السلطانية بالديار المصرية ، والممالك الشامية ، لأرباب السيوف والأقلام وغيرهم ، من : التقـاليد ، والتفاويض ، والتواقيع ، والمراسيم – المكبرة والمصغرة « ليس هو على سبيل الاستيعاب ، بل على سبيل التمثيل والتذكير ، لينسج على منـواله ، وينهج على نهجه » (٥) . فمن هذه الأمثلة التى ذكرناها – وغيرها كثير – يتبين أن غرض القلقشندى بإيراده نصوص المكاتبات فى كتابه هو لتقديمها كنماذج لتعليم صنعة كتابة الرسائل إلى جانب الأدوات

---

(١) : حـ/١٢/ص/٢٧٩ .
(٢) : حـ/١٣/ص/١٦٩ .
(٣) : حـ/١٤/ص/٦٣ .
(٤) : حـ/٨/ص/٢٩٠ .
(٥) : حـ/١٢/ص/٢٧٩ .

الأخرى ، وهذه الأداة هى الناحية الإنشائية وما يتطلبها من جودة الإنشاء ، وبلاغة الأسلوب ، وسلامة التعبير وتكييفه بحسب مقام المرسل إليه أو بحسب المناسبة ، ووضوح الفكرة ، وحسن العرض، وترتيب النقاط .

٥ — ولكن كيفما كان الغرض الذى من أجله أورد القلقشندى الرسائل بأنواعها فى كتابه فإنها هامة جداً ، لأكثر من سبب :

— فقد تبين أن من ضمن رسائله رسائل نادرة فقدت أصولها ، فلا توجد إلا فى كتابه ، منها : الرسالة التى وجهها الملك الأيوبى (الجواد) إلى (فرانك) ملك بيت المقدس ، والتى أشرنا إليها من قبل ، فإن العثور على نصها فى غير صبح الأعشى أمر مستحيل ، وخاصة أن القلقشندى لم يذكر مصدره الذى نقلها منه (وسوف نذكر نص الرسالة فى بحثنا هذا) . ومن الرسائل النادرة أيضا : الرسالتان المتبادلتان بين أبى الحسن على بن عثمان بن يوسف بن يعقوب المرينى ، صاحب (فاس) وبين سلطان مصر الناصر محمد بن قلاوون ، ولم يذكر القلقشندى مصدره الذى نقلهما منه ، وقد حاولنا العثور على المظان التى يحتمل أنها ذكرتهما ، حتى علمنا من السيد أمين عبد المجيد أن القلقشندى ينفرد وحده بهما (١) ، فعندئذ أوقفنا البحث اعتماداً على قوله ،

— يمكن ضبط الرسائل الموجودة فى المصادر المختلفة على مثيلاتها التى فى « صبح الأعشى » من حيث اللفظ ، أو النقص ، أو تحديد تاريخ الرسالة ، والعكس بالعكس بالنسبة لرسائل القلقشندى ، وقد أجرينا نحن مقابلة على رسالتين وردتا فى « صبح الأعشى » على مثيلاتهما فى مصادر أخرى ، وتبين من المقابلة اختلاف فى بعض الألفاظ ، كذلك وجدنا نقصاً فى رسالتى القلقشندى ، فأما إحداهما ، فهى الرسالة الصادرة عن محمد بن طغج الإخشيد إلى إمبراطور الروم ؛

---

(١) يقوم السيد أمين عبد المجيد باعداد موضـــوع عن بنى مرين بالمغرب الأقصى للحصول على درجة الماجستير فى التاريخ .

وأما الأخرى فهى الرسالة التى كتبها محيي الدين بن عبد الظاهر إلى الصاحب بهاء الدين ابن حنا وزير الملك الظاهر بيبرس :

٦ — ونحن بسبيل عرض أربع رسائل من رسائل القلقشندى الهامة ، والتى تعتبر نادرة ؛ لأنه ينفرد بها .

فأما الرسالة الأولى ، فهى الرسالة الودية ، التى أرسلها صلاح الدين الأيوبى إلى « بردويل » ملك بيت المقدس يعزيه فيها بوالده ، ويهنئه بالملك بعده (ولم يذكر القلقشندى تاريخها) : و« بردويل» هو « بلدوين الخامس » الذى خلف أباه « بلدوين الرابع » على ملك بيت المقدس سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥ م) وقد تحقق لنا هذا التاريخ من وجهين :

الوجه الأول : أن « بلدوين الرابع » ملك بيت المقدس بعد وفاة « عمورى » سنة ٥٧٠ هـ ، وكان صلاح الدين لم يكن قد مكن لنفسه بعد فى الشام ، ثم إن بلدوين الرابع لم يكن ابناً لعمورى : ثم لما توفى « بلدوين الرابع »سنة ٥٨١هـ خلفه ابنه بلدوين الخامس على بيت المقدس :

والوجه الآخر : أن الرسالة أرسلها صلاح الدين إلى ملك بيت المقدس قبل أن يستولى — صلاح الدين — على بيت المقدس فى سنة ٥٨٣ .

وأهمية هذه الرسالة ، ترجع إلى أنها أوقفتنا على سياسة صلاح الدين مع الصليبيين والتى لم ترد عند أى مؤرخ آخر ، ولا حتى عند المؤرخين المعاصرين لصلاح الدين كابن الأثير ، والعماد الكاتب ، وابن شداد وهى سياسة التودد إلى الصليبيين عندما يكون مشغولا بغيرهم ، ففى الفترة مابين سنة ٥٧٠هـ وسنة ٥٨١ هـ كان صلاح الدين مشغولا بحروبه مع « بنى زنكى » للاستيلاء على دولتهم فى الشام والجزيرة ، فأخذ يتودد إلى الصليبيين حتى نال بغيته من الزنكيين ، ثم اتجه بعد ذلك إلى الصليبيين يقاتلهم . والرسالة ؛ وإن كانت موجهة إلى « بلدوين الخامس » إلا أنه يفهم من مضمونها — كما سنرى من نصها — أن الرسائل

كانت متبادلة بين صلاح الدين وبين « بلدوين الرابع » أيضاً الذى يصفه صلاح الدين بـ « الصديق » ، ويتأسف « لفقده الذى عظمت به الأرزاء » . وهذا هو نص الرسالة التى يقول القلقشندى : إنها من إنشاء القاضى الفاضل (وكان رئيس ديوان إنشـاء صلاح الدين) وقد مهد القلقشندى الرسالة بقوله :

« كتب القاضى الفاضل عن السلطان « صلاح الدين يوسف بن أيوب » إلى «بردويل» أحد ملوك الفرنج ، وهو يومئذ مستول على بيت المقدس وما معه ، معزياً له فى أبيه ، ومهنئاً له بجلوسه فى الملك بعده ، ما صورته :

« أما بعد ـــ خص الله الملك المعظم حافظ بيت المقدس بالجد الصاعد ، والسعد الساعد ، والحظ الزائد ، والتوفيق الوارد ، وهنأه من ملك قومه ما ورثه ، وأحسن من هداه فيما أتى به الدهر وأحدثه ، فإن كتابنا صادر إليه عند ورود الخبر بما ساء قلوب الأصادق ، والنعى الذى وددنا أن قائله غير صادق ، بالملك العادل الأعز الذى لقّاه الله خير ما لقى مثله ، وبلّغ الأرض سعادته كما بلّغه محله ، معزٍ بما يجب فيه العزاء ، ومتأسف لفقده الذى عظمت به الأرزاء ، إلا أن الله سبحانه قد هون الحادث بأن جعل ولده الوارث ، وأنسى المصاب ، بأن حفظ به النصاب ، ووهبه النعمتين : الملك والشباب ، فهنيئاً له ما حاز ، وسقيا لقبر والده الذى حق له الفداء لوجاز ، ورسولنا الرئيس العميد مختار الدين أدام الله سلامته قائم عنا بإقامة العزاء من لسانه ، ووصف ما نالنا من الوحشة لفراق ذلك الصديق وخلو مكانه ، وكيف لا يستوحش رب الدار لفرقة جيرانه . وقد استفتحنا الملك بكتابنا وارتيادنا ، وودنا الذى هو مـــيراثه عن والده من ودادنا ، فليلق التحية بمثلهـــا وليأت الحسنة ليكون من أهلها ، وليعلم أنّا له كما كنا لأبيه : مودة صافية ، وعقيدة وافية ، ومحبة ثبت عقدها فى الحياة والوفاة وسريرة حكمت فى الدنيا بالموافاة ، مع ما فى الدين من المخالفات : فليسترسل إلينا استرسال الواثق الذى لا يخجل ، وليعتمد علينا

اعتماد الولد الذى لايحمل عن والده ما تحمّل، والله يديم تعميره ، ويحرس تأميره ، ويقضى له بموافقة التوفيق، ويلهمه تصديق ظن الصديق (١) » :

وأما الرسالة الثانية : فهى رسالة الملك « الجواد » الأيوبى ، إلى « فرانك » ولحسن الحظ ، أن القلقشندى ذكر تاريخها ، وهو شهر شعبان سنة ٦٣٠ هـ . و « فرانك » هذا ، هو « فردريك الثانى » الذى تنازل له الملك الكامل الأيوبى عن عدة بلاد ، ومنها بيت المقدس ، وذلك بموجب معاهدة الصلح التى عقدت بينهما فى (٦٢٦ هـ) ١٨ فبراير ١٢٢٩ م وبذلك أصبح « فردريك » ملكاً على بيت المقدس (٢) .

ويفهم من مضمون الرسالة ، أنها رد على رسالة أرسلها « فرانك » إلى الملك « الجواد » ، كما يفهم من مضمونها أيضا ، أن المكاتبة كانت جارية بين « فرانك » وبين الملك الكامل ، ومعنى هذا ، أنه برغم العداء الشديد بين الخصوم الألداء : المسلمين والصليبيين ، فإن العلاقات الدبلوماسية بين ملوكهم ، كان لها نصيب كبير فى سياستهم ، وكانت أداة المخاطبة بينهم هو الأسلوب المهذب الرفيع ، الذى يرتفع عن المهاترات ، ويتنزه عن الإسفاف ، كما يتبين من نص الرسالة . وقد مهد القلقشندى للرسالة بقوله :

« كتب بعض كتاب الدولة الأيوبية عن الملك « الجواد » — أحد ملوكهم — فى أيام الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر ، جواب كتاب ورد عليه من « فرانك » — أحد ملوك الفرنج — فى شعبان سنة ثلاثين وستمائة :

« وردت المكاتبة الكريمة ، الصادرة عن المجلس العالى ، المولى الملك ، الأجل ، الأعز ، الكبير ، المؤيد ، الخطير ، العالم العامل ،

---

(١) : حـ/٧/ص/١١٥ .

(٢) باركر : الحروب الصليبية ، ص/١٤٥ (ترجمة الدكتور الباز العرينى) .
بن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حـ/٩/ص/٣٧٨ .

الظهير ، العادل ، الأوحد ، المجتبى ، شمس الملة النصرانية ، جلال الطائفة الصليبية ، عضد الأمة الفرنجية ، فخر أبناء المعمودية عمدة الممالك ، ضابط العساكر المسيحية ، قيصر المعظم (فلان) معز إمام رومية ، ثبت الله لديه نعمه ، وعزز موارد جوده وديَمَه ، وأمضى صوارم عزائمه وأعلى هممه ، ولابرحت أنوار سعده تتلالا ، وأخبار مجده تبسط وتتعالى ، وسحائب الألسنة الناطقة بحمده تستهل وتتوالى ، إلى أن يتحلى جيد الضحى بعقود الليل ، وتطلع الشعرى من مطالع سهيل — فجدد الثناء على جلاله ، وأكد المديح لإحسانه وإفضاله وأنفس أسباب المودة والصافة ؛ وشدد أواخى الإخلاص والموافاة فاستبشرت النفوس بوروده ، وسرت القلوب بوفوده ، ووقف منه على الإحسان الذى نعرفه ؛ ووجد عقده مشتملا على جواهر الوداد الذى نألفه ، فشكر الله على هذه الألفة المنتظمة ، والمحبة الصادقة المكرمة ، والمجلس العالى ، الملك الأجل أعلى الله قدره ، ونشر بالخير ذكره ، أولى من أهدى المسرات ، بورود المراسم والحاجات ووصل الأنس بكريم المكاتبات ، مضمنة السوانح والمهمات .

« فأما ما ذكره المقام العالى السلطانى الملكى الكاملى الناصرى — زاده الله شرفا وعلوا — من أنه لافرق بين المملكتين ، فهذا هو المعتقد فى صدق عهده ، وخالص وده ، ولازال ملكه عاليا ، وشرفه ناميا إن شاء الله تعالى » (١) .

وأما الرسالتان الأخريان النادرتان ، وهما : رسالة أبى الحسن على المرينى ، ورد السلطان الناصر محمد بن قلاوون عليها ؛ فإنهما طويلتان جداً ، ولذلك نقتصر على ذكر مضمونهما وأهميتهما .

فأما رســالة أبى الحسن على ؛ فإنها تطلعنا على تقليد جرى عليه ولاة الأمر فى الأقطار الإسلامية ، وهو أن يقترن الود بتبادل الأخبار الجارية فى أقطارها ، ونجد أبا الحسن فى هذه الرسالة يخبر صاحب مصر بجميع

(١) : جـ/٧/ص/١١٧ .

أخبار المغرب فى فترة من أدق الفترات التى شاهدت الصراع بين بنى مرين أصحاب « فاس » وبين بنى عبد الواد أصحاب « تلمسان » من ناحية ، ثم بين بنى مرين وملوك الأسبان النصارى من ناحية أخرى (١) .

وتطلعنا رسالة محمد بن قلاوون إلى أبى الحسن ، على ما يتبع عادة عندما يقصد بعض أفراد الأسر المالكة فى المغرب إلى الحج مارّين بمصر : وقد جرى العرف بالإخبار بالأمر إلى صاحب مصر ، ثم بقيام صاحب مصر ، بفروض الود والمجاملة والاستقبال والتشييع ، مع تبادل الهدايا فى مثل هذه المناسبات . كذلك تطلعنا على إخبار السلطان ، أبا الحسن على ، على الحرب التى أعلنها على صاحب « سيس » الذى خرج عن طاعته ، وامتنع عن دفع الجزية السنوية المقررة عليه ، وما لاقاه السلطان وجيشه من متاعب ومشاق حتّى أخضعه وأعاده إلى الطاعة .

وتدل خاتمة رسالة السلطان على حقيقة هامة غير مألوفة : لم يتنبه إليها الدارسون للعصر المملوكى ، وهى أن المماليك جروا على سياسة التوفيق بين المذهب السنى والمذهب الشيعى . ولعل ذلك التوفيق كان مقصودا ؛ لأن بنى مرين باعتبارهم ورثة الموحدين ، كانوا يعطفون على الشيعة ، بينما كان قلاوون وأهل بيته سنيين ، فاقتضت المجاملة من السلطان أن يشير إلى محمد عليه الصلاة والسلام ، وإلى على بن أبى طالب ربيبه وزوج ابنته ، منتهزا فرصة تطابق إسمه (أى السلطان) وهو « محمد » على اسم النبى ، وتطابق إسم صاحب فاس وهو « على » على إسم على رضى الله عنه ، فختم الناصر دعاءه — فى ختام رسالته — « ... ويديم على الإسلام مزيد العز الذى يتجدد كل آونة ، من طلائع رايات « محمد » وبدائع آراء « على » ، بمنه وكرمه »(٢) .

٧ — وقد أجرينا مقابلة رسالتين ذكرهما القلقشندى ، على مثيلاتهما ذكرتهما مصادر أخرى ، والغرض من هذه المقابلة ، هوالتنبيه إلى عدم

---

(١) : حـ/٨/ص/٨٧ .
(١) : حـ/٧/ص/٣٩٥ .

الإعتماد على نصوص القلقشندى وحـــده ، حيث تبين أن فيها اختلافات ونقص وزيادة بالنسبة لمثيلاتها فى المصادر الأخرى ، كذلك ضرورة ضبط الرسائل — لفظاً وموضوعاً — الموجودة فى المصادر على رسائل القلقشندى .

فأما الرسالة الأولى : فهى الرسالة التى أرسلها محمد بن طغج الأخشيد الى أمبراطور الروم « أرمانوس ردا على رسالة أرسلها إليه الإمبراطور(١). ويفهم من رسالة الأخشيد ، أن رسالة إمبراطور الروم إليه ، كانت عن اقتراح تقدم به بتبادل الأسرى بين الطرفين ، ويطلب كذلك من الاخشيد أن ييسر مهمة التجار الروم الذين يقدمون إلى مصر للتجارة . وواضح أيضاً من رد الأخشيد ، أن الإمبراطور كان يعتبر نفسه أعلى مكانة من الأخشيد ، وأنه — لهذا — يتفضل عليه بالمكاتبة ، مما حمل الأخشيد إلى الإطالة فى رده على الإمبراطور ، فعدد له البلاد التى تحت حكمه ، مؤكداً له أنه لا يقل عنه مكانة .

وقد وجدنا نصاً آخر للرسالة فى الجزء الأول من القسم الخاص بمصر من كتاب « المغرب فى حلى المغرب »(٢) . وقد قابلنـــا نص القلقشندى على هـــذا النص . وخرجنا من المقابلة بين النصين بملاحظتين :

الملاحظة الأولى : وجود اختلافات لفظية كثيرة بين النصين ، بعضها أصح وأضبط فى نص القلقشندى ، وبعضها الآخر أصح وأضبط فى نص كتاب « المغرب » .

الملاحظة الأخرى : وجود نقص فى نص القلقشندى ، وقد أشرنا إليه وإلى الاختلافات اللفظية فى الهامش . والجدير بالملاحظة أن القلقشندى نقل نص الرسالة التى ذكرها من كتاب « المغرب »

(١) لم يذكر القلقشندى رسالة «الامبراطور» الى الاخشيد ، كذلك لم نجدها فى مصادر أخرى .

(٢) الكتاب منسوب لابن سعيد الأندلسى وحده ، بينما الواقع أن مؤلفى الكتاب ستة مؤرخين . وقد حقق الجزء الأول من القســم الخـاص بمصر من الكتاب الدكـــور زكى محمد حسن وآخرون . (مطبعة جامعة فؤاد الأول ١٩٥٣ م) .

كما صرح هو بذلك ، ومع ذلك وجدت الاختلافات اللفظية الكثيرة بين النصين ، كذلك وجد النقص فى نص القلقشندى ، وسبب هـذا — بطبيعة الحال — هو تصرف النساخ عند النقل من نسخة المؤلف ، أو من النسخ التى نسخت عنها ، فاطلع القلقشندى على مخطوط من الكتاب غير المخطوط الذى اعتمده محققو الكتاب للنشر .

ولم يذكر القلقشندى تاريخ رسالة الإخشيد ، غير أنه يمكن تحديده من كتاب « المغرب » بسنة ٣٢٤ هـ أو بسنة ٣٢٥ ، حيث يذكر المؤلف — بعد ذكره نص الرسالة — الخبر التالى : « وفى هـذه السنة — وهى سنة خمس وعشرين (وثلاثمائة) ، جهز الإخشيد المراكب الحربية للمسير إلى الثغور للفداء الذى كوتب فيه ، وشحنها بنصارى الروم ممن أهدى إليه ومن اشتراه ، وأنفذ الثياب والطيب والطعام لمن يحصل فى الفداء من المسلمين » (١) . ويلاحظ أن الأخشيد تولى على مصر فى سنة ٣٢٣ أوسنة ٣٢٤ ، على اختلاف بين المؤرخين .

وقد اعتمدنا نص القلقشندى للنشر ، وأشرنا إلى الاختلافات اللفظية وإلى النقص فى الهوامش .

وقد مهد القلقشندى للرسالة بقوله (٢) : « ومما كتب الأخشيد محمد بن طغج صاحب الديار المصرية وما معها من البلاد الشامية ، والأعمال الحجازية ، إلى « أرمانوس » — ملك الروم — وقد أرسل أرمانوس إليه كتابا يذكر من جملته بأنه كاتبه وإن لم تكن عادته أن يكاتب إلا الخليفة ، فأمر بكتابة جوابه فكتب له الكتّاب عدة أجوبة ورفعوا نسخا إليه ، فلم يرتض منها إلا ما كتبه إبراهيم بن عبد الله النجيرمى ، وكان عالما بوجوه الكتابة ، ونسخته — على ما ذكره ابن سعيد فى كتاب « المغرب فى أخبار المغرب » :

(١) المغرب ، ص/١٧٣ (ونص الرسالة ، ص/١٦٧ — ١٧٢) .
(٢) جـ/٧/ص/١٠ .

« من محمد بن طغج مولى أمير المؤمنين إلى أرمانوس (١) عظيم الروم ومن يليه .

« سلام بقدر ما أنتم له مستحقون ، فإنا نحمد الله الذى لا إله إلا هو ، ونسأله أن يصلى على محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم .

« أما بعد ؛ فقد تُرجم لنا كتابك الوارد مع « نقولا » و «إسحاق» رسوليك ؛ فوجدناه مفتتحا بذكر فضيلة الرحمة ؛ وما نُمى (٢) عنا إليك ؛ وصح من شيمنا فيها لديك (٣) ؛ وبما نحن عليه من المعدلة وحسن السيرة فى رعايانا ؛ وما وصلت به هذا القول من ذكر الفداء والتوصل إلى تخليص الأسرى ؛ إلى غير ذلك مما اشتمل عليه وتفهمناه (٤) .

« فأما ما أطنبت فيه من فضيلة الرحمة فمن سديد القول ؛ الذى يليق بذوى الفضل والنبل ؛ ونحن بحمد الله ونعمه علينا بذلك عارفون ، وإليه راغبون ، وعليه باعثون ، وفيه بتوفيق الله إيانا مجتهدون وبه متواصلون وعاملون ، وإياه نسأل التوفيق لمراشد الأمور وجوامع المصالح بمنه وقدرته .

« وأما ما نسبته إلى أخلاقنا من الرحمة والمعدلة ، فانا نرغب إلى الله — جل وعلا — الذى تفرد بكمال هذه الفضيلة ، ووهبها لأوليائه ثم أثابهم عليها ، أن يوفقنا لها ، ويجعلنا من أهلها ، وييسرنا (٥) للاجتهاد فيها ، والاعتصام من زيغ الهوى عنها ، وعُرَّة (٦) القسوة بها ، ويجعل ما أودع قلوبنا من ذلك موقوفا على طاعته ،

(١) فى «المغرب» (ص/١٦٧) : «ألمانوس» . وقد جاء الاسم فى الخبر نفسه «أرمانوس» حيث يقول الخبر : «وورد الى الأخشيد كتاب «أرمانوس» عظيم النصرانية ..» .
(٢) : نمى : فى المغرب : نما
(٣) لديك : فى المغرب : اليك .
(٤) : وتفهمناه : فى المغرب : وفهمناه .
(٥) وييسرنا : فى المغرب : ويسيرنا .
(٦) وعرة : فى المغرب : وعزة . (وما فى الصبح أصبح) والمراد : معرة .

وموجبات مرضاته ، حتى نكون أهلا لما وصفتنا به ، وأحق حقا بما دعوتنا إليه ، وممن (١) يستحق الزلفى من الله تعالى ، فإنا فقراء إلى رحمته . وحق لمن أنزله الله بحيث أنزلنا ، وحمله من جسيم الأمر ما حملنا ، وجمع له من سعة الممالك ما جمع لنا بمولانا أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، أن يبتهل إلى الله تعالى فى معونته لذلك وتوفيقه وإرشادة (٢) ، فان ذلك إليه وبيده : (ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور) .

« وأمّا ما وصفته من ارتفاع محلك عن مرتبة من هو دون الخليفة فى المكاتبة لما يقتضيه عظم ملككم ، وأنه الملك القديم الموهوب من الله ، الباقى على الدهر وأنك إنما خصصتنا بالمكاتبة لما تحققته من حالنا عندك ، فإن ذلك لو كان حقا وكانت منزلتنا كما ذكرته تقصر عن منزلة من تكاتبه ؛ وكان لك فى ترك مكاتبتنا غنم ورشد ، لكان من الأمر البين أنّ أحظى وأرشد ، وأولى بمن حل محلك أن يعمل بما فيه صلاح رعيته ، ولا يراه (٣) وصمة ولا نقيصة ولا عيباً ، ولا يقع فى معاناة صغيرة من الأمور تعقبها كبيرة ، فإن السائس الفاضل قد يركب الأخطار ، ويخوض الغمار ، ويعرض مهجته فيما ينفع رعيته ، والذى تجشمته من مكاتبتنا إن كان كما وصفته فهو أمر سهل يسير ، لأمر عظيم خطير ، وجلُّ نفعه وصلاحه وعائدته تخصكم ، لأن مذهبنا انتظار إحدى الحسنيين ، فمن كان منا فى أيديكم فهو على بينة من ربه ، وعزيمة صادقة من أمره ، وبصيرة فيما هو بسبيله . وإن فى الأسارى من يؤثر مكانه (٤) من ضنك الأسر وشدة البأساء على نعيم الدنيا وخيرها لحسن منقلبه ، وحميد عاقبته ، ويعلم أن الله تعالى قد أعاذه من أن يفتنه ، ولم يعذه من أن يبتليه : هذا إلى أوامر الإنجيل الذى هو إمامكم ،

---

(١) وممن : فى المغرب : ومن .
(٢) وارشاده : فى المعرب : وارتياده . (وما فى الصبح ، أصح) .
(٣) يراه : فى المغرب : يرى .
(٤) مكانه : ساقطة فى المغرب .

وما توجبه عليكم عزائم سياستكم ، والتوصل إلى استنقاذ أسرائكم ، ولولا أن إيضاح القول فى الصواب ، أولى بنا من المسامحة فى الجواب ، لأضربنا عن ذلك صفحا ، إذ رأينا أن نفس السبب الذى سن أجله سما إلى مكاتبة الخلفاء — عليهم السلام — من كاتبهم ، أو علا عنهم إلى من حل محلنا فى دولتهم ، بل إلى من نزل عن مرتبتنا ، هو أنه لم يثق من منعه ، ورد ملتمسه ممن جاوره ، فرأى أن يتصد به الخلفاء الذين الشرف كله فى إجابتهم ، ولا عار على أحد وإن جل قدره فى ردهم ، ومن وثق فى نفسه ممن جاوره ، وجد قصده أسهل السبيلين عليه ، وأدناهما إلى إرادته ، حسب ما تقدم لها من تقدم . وكذلك كاتب من حل محلك من قصر عن محلنا ، ولم يقرب من منزلتنا ، فممالكنا عدة ، كان يتقلد فى سالف الدهر كل مملكة منها ملك عظيم الشأن :

« فمنها : ملك مصر الذى أطغى(1) فرعون على خطر أمره ، حتى ادعى الإلاهية وافتخر على نبى الله موسى بذلك (2) .

ومنها : ممالك اليمن التى كانت للتبابعة ، والأقيال العباهلة : ملوك حمير ، على عظم شأنهم ، وكثرة عددهم .

« ومنها : أجناد الشام التى منها (3) جند حمص ، وكانت دارهم ودار هرقل عظيم الروم ومن قبله من عظمائها .

« ومنها : جند دمشق على جلالته فى القديم والحديث ، واختيار الملوك المتقدمين له .

« ومنها : جند الأردن على جلالة قدره ، وأنه دار المسيح — صلى الله عليه وسلم — وغيره من الأنبياء والحواريين .

---

(1) أطغى : فى المغرب : أطغا .

(2) بعد هذه الفقرة فى «المغرب» مانصه : «ومنها (ملك .. للذى ..) الاسكندر ومن خلفه من اليونانيين» . ويعلق محققو كتاب «المغرب» على السقط الذى فى النص بقولهم : «هنا تمزيق فى المخطوطة ، والظاهر — كما يتضح من سياق الكلام — أنه يعنى ملك الاسكندر فى مصر وملك البطالسة الذين خلفوه فيها ، والذين شيدوا دولة من اعظم وأغنى دول العالم القديم» .

(3) منها : فى المغرب : فيها .

« ومنها : جند فلسطين ، وهى الأرض المقدسة ، وبها المسجد الأقصى ، وكرسى النصرانية ، ومعتقد غيرها ، ومَحَج النصارى واليهود طرا ، ومقر داود وسليمان ومسجدهما : وبها (١) مسجد ابراهيم وقبره وقبر اسحاق ويعقوب ويوسف وإخوته وأزواجهم عليهم السلام ، وبها (٢) مولد المسيح وأمه وقبرها .

« هـذا ، إلى ما نتقلده من أمر مكة المحفوفة بالآيات الباهرة ، والدلالات الظاهرة ، فإنا لو لم نتقلد غيرها لكانت بشرفها ، وعظم قدرها ، وما حوت من الفضل توفى على كل مملكة ، لأنها محج آدم ومحج إبراهيم وارثه ومهاجره ، ومحج سائر الأنبياء ، وقبلتنا وقبلتهم عليهم السلام وداره وقبره ، ومنبت ولده ، ومحج العرب على مر الحقب ، ومحل إشرافها ، وذوى أخطارها ، على عظم شأنهم ، وفخامة أمرهم ، وهو البيت العتيق ، المحرم المحجوج إليه من كل فج عميق ، الذى يعترف بفضله وقدمه أهل الشرف ، من مضى ومن خلف ، وهو البيت المعمور ، وله الفضل المشهور :

« ومنها : مدينة الرسول — صلى الله عليه وسلم — المقدسة بتربته ، وأنها مهبط الوحى ، وبيضة هذا الدين المستقيم الذى امتد ظله على البر والبحر ، والسهل والوعر ، والشرق والغرب ، وصحارى العرب على بعد أطرافها ، وتنازح أقطارها ، وكثرة سكانها فى حاضرتها وباديتها ، وعظمها فى وفودها وشدتها ، وصدق بأسها ونجدتها ، وكبر أحلامها ، وبعد مرامها : وانعقاد النصر من عند الله براياتها وإن الله تعالى أباد خضراء كسرى ، وشرد قيصر عن داره ومحل عزه ومجده بطائفة منها . هذا إلى ما تعلمه من أعمالنا ، وتحت أمرنا ونهينا ثلاثة كراسى من أعظم كراسيكم : بيت المقدس ، وأنطاكية ، والإسكندرية ؛ مع ما إلينا من البحر وجزائره ، واستظهارنا بأتم العتاد

---

(١) وبها : فى المغرب : ومنها .

(٢) وبها : فى المغرب : ومنها .

وإذا وفيت النظر حقه علمت أن الله تعالى قد أصفانا بجل الممالك التى ينتفع الأنام بها ، وبشرف الأرض المخصوصة بالشرف كله دنيا وآخرة ، وتحققت أن منزلتنا بما وهبـــه الله لنا من ذلك فوق كل منزلة : والحمد لله ولى كل نعمة .

« وسياستنا لهذه الممالك قريبها وبعيدها على عظمها وسعتها بفضل الله علينا وإحسانه إلينا ومعونته لنا وتوفيقه إيانا كما كتبت إلينا وصح عندك من حسن السيرة ، وبما يؤلف بين قلوب ســـائر الطبقات من الأولياء والرعية ويجمعهم (١) على الطاعة واجتماع الكلمة ، ويوسعها الأمن والدعة فى المعيشة ويكسبها المودة والمحبة .

« والحمد لله رب العالمين أولا وآخراً على نعمه التى تفوت عندنا عدد(٢) العادين ، وإحصاء المجتهدين ، ونشر الناشرين ، وقول القائلين ، وشكر الشاكرين ، ونسأله أن يجعلنا ممن تحدّث بنعمته عليه شكرا لها ، ونشرا لما منحه الله منها ومن (٣) رضى اجتهاده فى شكرها ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها ، وكان سعيه مشكوراً ، إنه حميد مجيد .

« وما كنت أحب أن أباهيك بشىء من أمر الدنيـــا ، ولا أتجاوز الاستيفاء لما وهبه الله لنا من شرف الدين الذى كرمه وأظهره ، ووعدنا فى عواقبه الغلبة الظاهرة ، والقدرة القاهرة ، ثم الفوز الأكبر يوم الدين . لكنك سلكت مسلكا لم يحسن (٤) أن نعدل عنه ، وقلت قولا لم يسعنا التقصير فى جوابه ، ومع هـــذا فإنا ، لم نقصد بما وصفناه من أمرنا مكاثرتك ، ولا اعتمدنا تعيين فضل لنا نعوذ(٥)

(١) ويجمعهم : ساقطة فى المغرب .

(٢) عدد فى المغرب : عد .

(٣) ومن : فى المغرب : وممن . (والعبارة «ومن رضى اجتهاده فى شكرها ، ومن أراد الآخرة» نقلها مصحح «صبح الأعشى»من المغرب ، وقد أشار هو الى ذلك) .

(٤) لم يحسن أن نعدل . فى المغرب : لم يجز لى أن أعدل . (وقد أشار محقق «صبح الأعشى» فى الحاشية الى الاختلاف الذى فى «المغرب» ، ولكنه ذكر عبارة المغرب بصيغة الجمع «لم يجز لنا أن نعدل» ولعله رجع الى نسخة أخرى غير النسخة المطبوعة التى نستخدمها نحن).

(٥) نعوذ : فى المغرب : نعود (بالدال المهملة) .

به ، إذ نحن نكرم عن ذلك ، ونرى أن نُكرمك عند محلك ومنزلتك ، وما يتصل بها من حسن سياستك ومذهبك فى الخير ومحبتك لأهله ، وإحسانك لمن فى يدك من أسرى المسلمين ، وعطفك عليهم ، وتجاوزك فى الإحسان إليهم : جميع من تقدمك من سلفك. ومن كان محموداً فى أمره ، رغب فى محبته ؛ لأن الخير أهـل أن يُحبّ حيث كان ، فإن كنت إنما تؤهل لمكاتبتك ومماثلتك من اتسعت مملكته ، وعظمت دولته ، وحسنت سيرته ؛ فهذه ممالك عظيمة ، واسعة جمة ، وهى أجل الممالك التى ينتفع بها الأنام ، وسر الأرض المخصوصة بالشرف ، فإن الله قد جمع لنا الشرف كله ، والولاء (١) الذى جعل لنا من مولانا أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، مخصوصين بذلك إلى مالنا بقديمنا وحديثنا وموقعنا . والحمد لله رب العالمين الذى جمع لنا ذلك بمنّه وإحسانه ، ومنه نرجو حسن السعى فيما يرضيه بلطفه ، ولم ينطو عنك أمرنا فيما اعتمدناه .

« وإن كنت تجرى فى المكاتبة على رسم من تقدمك فإنك لو رجعت إلى ديوان بلدك ، وجدت من كان تقدمك قد كاتب مِن قِبَلِنَا (٢) من لم يحل محلنا ، ولا أغنى غناءنا ، ولا ساس فى الأمور سياستنا ، ولا قلده مولانا أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ما قلَّدنا ، ولا فوض إليه ما فوض إلينا ، وقد كوتب أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون ، وآخر من كوتب « تكين » مولى أمير المؤمنين ولم يكن تقلدسوى مصر وأعمالها .

ونحن نحمد الله كثيراً أولا وآخراً على نعمه التى يفوت عندنا عددها عدّ العادّين ، ونشر الناشرين . ولم نرد بما ذكرناه المفاخرة ،

---

(١) والولاء : فى المغرب : بالولاء .

(٢) من قبلنا : فى المغرب : من قبلك (بدون تشكيل) . ونحن نرجح أن الصحيح هو «من قبلنا» كما يفهم من السياق ، ولأن الاخشيد يضرب مثلا بأبى الجيش خمارويه وتكين ، ويعتبرهما الأخشيد أقل منه مكانة .

ولكنا قصدنا بما عددنا (١) من ذلك حالات : أولها ، التحدث (٢) بنعمة الله علينا ، ثم الجواب عما تضمنه كتابك من ذكر المحل والمنزلة فى المكاتبة ، ولتعلم قدرما بسطه الله لنا فى هذه المسالك(٣) ، وعندنا قوة تامة على المكافأة على جميل فعلك بالأسارى ، وشكر واف لما توليهم وتتوخاه من مسرتهم إن شاء الله تعالى وبه الثقة ، وفقك الله لمواهب خيرات الدنيا والآخرة ، والتوفيق للسداد فى الأمور كلها ، والتيسير لصلاح القول والعمل الذى يحبه ويرضاه ويثيب عليه ، ويرفع فى الدنيا والآخرة أهله ، بمنه ورحمته .

« وأما المُلك الذى ذكرت أنه باقٍ على الدهـــر لأنه موهوب لكم من الله خاصة . فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين . وإن الملك كله لله يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وإليه المصير (٤) وهو على كل شيء قدير ، وإن الله — عز وجل — نسخ ملك الملوك وجبرية الجبارين بنبوة (٥) محمد — صلى الله عليه وسلم وعلى آله أجمعين — ، وشفع نبوته بالإمامة وحازها إلى العترة الطاهرة من العنصر الذى سنه أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، والشجرة التى منها غصنه ، وجعلها خالدة فيهم يتوارثها منهم كابر عن كابر ، ويلقيها ماض إلى غابر ، حتى نجز أمر الله ووعده ، وبهر نصره (٦) وكلمته ، وأظهر حجته وأضاء عمود الدين بالأئمة المهتدين ، وقطع دابر الكافرين ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المشركون حتى يرث الله الأرض ومن عليهـــا وإليها يرجعون .

« وإن أحق ملك أن يكون من عند الله ، وأولاه وأخلقه أن

---

(١) عددنا : فى المغرب : عددناه .

(٢) التحدث : فى المغرب : الحديث .

(٣) المسالك : فى المغرب : الممالك (وما فى المغرب ، أصح) .

(٤) واليه المصير : ساقطة فى المغرب .

(٥) بنبوة : فى المغرب : بنبوّة .

(٦) نصره : فى المغرب : نوره . (وما فى المغرب أصح) .

يكنفه الله بحراســته وحياطته ، ويحفه بعزه وأيده ، ويجلله بهاء السكينة فى بهجة الكرامة ، ويجمله بالبقاء والنجاء ما لاح فجر ، وكرّ دهر ، مُلك إمامة عادلة خلفت نبــوة فجرت على رسمها وسننها وارتسمت أمرها ، وأقامت شرائعها ، ودعت إلى سبلها ، مستنصرة بأيدها ، متنجزة لوعدها ، وإن يوماً واحداً من إمامة عادلة خير عند الله من عمر الدنيا تملُّكا وجبرية .

« ونحن نسأل الله تعالى أن يديم نعمه علينا ، وإحسانه إلينا بشرف الولاية ، ثم بحسن (١) العاقبة بما وفر علينا فخره وعلاه ، ومجده وإحسانه إن شاء الله ، وبه الثقة وهو حسبنا ونعم الوكيل .

« وأما الفداء ورأيك فى تخليص الأسرى ، فإنا وإن كنا واثقين لمن فى أيديكم بإحدى الحسنيين ، وعلى بينة لهم من أمرهم ، وثبات (٢) من حسن العاقبة وعظم المثوبة ، عالمين بحالهم ، فإن فيهم من يؤثر مكانه من ضنك الأسر وشدة البأساء على نعيم الدنيا ولذتها ، سكونا إلى ما يتحققه من حسن المنقلب وجزيل الثواب . ويعلم أن الله قد أعاذه من أن يفتنه ، ولم يعذه من أن يبتليه ؛ وقد تبينا مع (٣) ذلك فى هذا الباب ما شرعه لنا الأئمة الماضون ، والسلف الصالحون ، فوجدنا ذلك موافقا لما التمسته ، وغير خارج عما أحببته ، فسررنا بما تيسر منه ، وبعثنا الكتب والرسل إلى عمالنا فى سائر أعمالنا ، وعزمنا عليهم فى جمع كل من قبلهم وأتباعهم بما وفّر الإيمان فى إنقاذهم (٤) وبذلنا فى ذلك كل ممكن ، وأخرنا إجابتك عن كتابك ليقدّم فعلنا قولنا ، وإنجازنا وعدنا ، ويوشك أن يكون قد ظهر لك من ذلك ما وقع أحسن الموقع منك إن شاء الله .

« وأما ما ابتدأتنا به من المواصلة ، واستشعرته لنا من المودة

---

(١) بحسن : فى المغرب : لحسن (وما فى الصبح ، أصح) .

(٢) وثبات : فى المغرب : وبيان .

(٣) مع : فى المغرب : فى .

(٤) فى انقاذهم : فى المغرب : بانقاذهم . (وما فى المغرب ، أصح) .

والمحبة ، فإن عندنا من مقابلة ذلك ما توجبه السياسة التى تجمعنا على اختلاف المذاهب ، وتقتضيه نسبة الشرف (١) الذى يؤلفنا على تباين النحل ، فإن ذلك من الأسباب التى تخصنا وإياك . ورأينا من تحقيق جميل ظنك بنا إيناس رُسُلك وبسطهم ، والاستماع منهم والاصغاء إليهم والإقبال عليهم ، وتلقينا انبساطك إلينا ، وإلطافك إيانا بالقبول الذى يحق علينا ليقع ذلك موقعه ، وزدنا فى توكيد ما اعتمدته ما(٢) حملناه رسلك فى هـذا الوقت على استقلالنا إياه من طرائف بلدنا وما يطرأ من البلاد علينا ، وإن الله بعدله وحكمته أودع فى كل قرية صنفا ، ليتشوف إليه من بَعُد عنه ، فيكون ذلك سبباً لعمارة الدنيا ومعايش أهلها . ونحن نفردك بما سلمناه إلى رسولك لتقف عليه إن شاء الله .

« وأما ما أنفذته للتجارة فقد أمكنَّا أصحابك منه ، وأذِنَّا لهم فى البيع وفى ابتياع ما أرادوه واختاروه ، لأنا وجدنا جميعه مما لا يحظره علينا دين ولا سياسة ، وعندنا من بسْطك وبسط من يرد من جهتك ، والحرص على عمارة ما بدأتنا به ورعايته ، وربِّ ما غرسته ، أفضل ما يكون عند مثلنا لمثلك ، والله يعين على ما ننويه من جميل ، ونعتقده من خير ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

« ومن ابتدأ بجميل (٣) لزمه الجرى عليه والزيادة ، ولاسيما إذا كان من أهله وخليقاً به . وقد (٤) ابتدأتنا بالمؤانسة والمباسطة ، وأنت حقيق بعمارة ما بيننا ، وباعتمادنا (٥) بحوائجك وعوارضك(٦) قِبَلَنَا ، فأبشر بتيسير ذلك إن شاء الله .

---

(١) الشرف : فى المغرب : الشرق . (وما فى الصبح ، أصح) .
(٢) ما : فى المغرب : مما .
(٣) بجميل : فى المغرب : الجميل .
(٤) وقد : فى المغرب : قد .
(٥) وباعتمادنا : فى المغرب : واعتمادنا .
(٦) وعوارضك : فى المغرب : وعوارفك . (وما فى الصبح ، أصح) .

« والحمد لله أحق ما ابتُدئ به ، وختم بذكره ، وصلى الله على محمد (١) نبي الهدى والرحمة ، وعلى آله وسلم تسليما » .

وأما الرسالة الأخرى : فهى التى كتبها محيي الدين بن عبد الظاهر ، إلى الصاحب بهاء الدين بن حنا ، وزير الظاهر بيبرس ، يصف فيها القتال الذى دار بين الظاهر وبين التتر فى سنة ٦٧٢هـ ، وقد ذكرها القلقشندى(٢) كذلك وجدنا نصاً آخر لها فى « التذكرة الصفدية(٣) » ، وفى الرسالة يشرح ابن عبد الظاهر ، ما وجده الظاهر بيبرس وجيشه من المتاعب والصعوبات والمشاق وهم فى طريقهم إلى التتر حتى وصلوا إلى « الأبلستين » ، كذلك وصف القتال الذى دار بين الفريقين والذى انتهى بانتصار بيبرس « وجلوسه على تخت بنى سلجوق » — كما يقول القلقشندى .

وقد قابلنا بين النصين ، وخرجنا من المقابلة بأربع ملاحظات :

الملاحظة الأولى : وجود اختلافات لفظية كثيرة بين النصين ، بعضها أصح وأضبط فى نص القلقشندى ، وبعضها الآخر أصح وأضبط فى نص « التذكرة » .

الملاحظة الثانية : وجود زيادة معلومات فى نص القلقشندى لا توجد فى نص « التذكرة » .

« الملاحظة الثالثة : وجود نقص معلومات فى نص القلقشندى ، وموجودة فى نص « التذكرة » .

الملاحظة الرابعة : وجود خطأ تاريخى فى نص القلقشندى ، فى السنة التى فتح فيها بيبرس « الحدث الحمراء » من صاحب « سيس » . ولما كانت الرسالة طويلة جداً ، فاننا نقتصر على الإشارة فقط إلى الملاحظات الثلاث الأخيرة :

---

(١) على محمد : فى المغرب : على سيدنا محمد .

(٢) جـ/١٤/ص/١٣٩ .

(٣) مخطوط (دار الكتب ، رقم : ٩٧٩٦ أدب) .

ــ فأما فيما يختص بالمعلومات الزائدة فى نص القلقشندى ، فإنها تقع بعد بيت الشعر :

فَمسَّاهم وبُسْطُهم حرير وصبَّحهم وبسطهم تراب

« وأصبح الأعداء لا تُرى إلا أشلاؤهم ، ولا تُبصر إلا أعياؤهم ، كأنما جزر جزائر يتخللها من الدماء سيل ، وكأنما رءوسهم المجموعة لدى الدهليز المنصور أُكرٌ تلعب بها صوالجه من الأيدى والأرجل من الخيل » (١) .

أما النقص فى نص القلقشندى ، فهو وصف جزء من الرحلة أثناء عودة بيبرس وجيشه إلى القاهرة . والنقص يبدأ بعد العبارة التالية : « فدخل مولانا السلطان فى يوم الأربعاء تاسع عشرين من ذى القعدة ، فنزل قريب « كسول » (؟) المقدم ذكرها ، وعدل إلى طريق « مرعش » فزال بحمد الله » ــ والنقص بعدها كما ورد فى « التذكرة » (٢) : « عقاب تلك العقاب (٣) ، وقالت الأنهار والملتقبة (؟) لكل منا اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ، ونزلنا يوم الخميس مستهل ذى الحجة قرب قلعة خراب من بلاد مرعش تعرف بالأشكركين إلى جانب نهر يعرف بأنجان ، وأقام مولانا السلطان يوماً هناك بغير رحيل . ورحل يوم السبت فنزل قريب بركلوحاً من بلاد مرعش ؛ ورحل يوم الأحد رابع الشهر ، فنزل قريب عقبة مرى ــ أحد دربندات سيس ــ إلى جانب النهر الأسود . ورحل يوم الإثنين ، فنزل قبالة الدربساك ، ورحل يوم الثلاثاء سادس الشهر ، فنزل قريب حارم ، وركب وقته وساق إلى منزلته التى كان بها نازلا فى سنة ثلاث وسبعين وستمائة نوبة سيس ، فضرب قريب أنطاكيه دهليز الإقامة ، وقالت تلك الخمائل المونقة وتلك الحدائق المحدقة لأطناب خيامه مسلّمة هنئت بالسلامة ، وألقى عصا التسيار وقال لأهل الخيام هذه الدار وأنا الجار ، فأساموا خيولهم فى مراعى لا يحيط بكنهها المراعى ، ووفروها على أعشاب لتباعد ما بين الرفيق ورفيقه لا يسمعه » . (انتهى النقص) :

---

(١) : حـ/١٤/ص/١٤٨ .

(٢) ص/٣٣ .

(٣) : العبادة متصلة : «فزال بحمد الله عقاب تلك العقاب» .

وأما الخطأ التاريخى ، فإن فى نص القلقشندى (ص ١٤٣) أن بيبرس فتح « الحدث الحمراء » سنة ٧٧٢ هـ ، وفى نص « التذكرة » (ص ٦) ، أنه فتحها فى سنة ٦٧٢ ، وما فى «التذكرة» أضبط ؛ ويؤكد ذلك مدة سلطنة بيبرس التى تبدأ من سنة ٦٥٨ وتنتهى فى سنة ٦٧٦ .

٨ ــ والذى نريد أن نخرج به من هذا البحث الموجز عن وثائق القلقشندى ، هو التنبيه إلى أشياء تهم الباحث الحديث ، منها :

ــ أن من بين وثائق القلقشندى ، وثائق نادرة ينفرد هو بها ، ووثائق يتطلب العثور عليها فى مصادرها وقتاً طويلا وجهداً مضنياً .

ــ وأنه يمكن ضبط نصوص الوثائق الموجودة فى المصادر المختلفة على مثيلاتها عند القلقشندى .

ــ وضرورة ضبط وثائق القلقشندى على مثيلاتها فى المصادر الأخرى بعد ما تبين أن فى بعض وثائقه اختلافات لفظية ونقص فى المعلومات :

٩ ــ وأود أن أثبت هنا ، أنه كان فى عزمنا إخراج هذا البحث بصورة أوسع مما هو عليه الآن ، ولكننا أوجزناه بسبب اقتراح أستاذنا الجليل الدكتور محمد عبد الهادى شعيرة علينا ، بنشر وثائق القلقشندى على حدة نشراً علمياً مع دراسة لها ، وقد تفضل وأبدى استعداده لتقديم المعونة والتوجيه كلما احتجنا إليهما : وبناء على هذا الوعد والتشجيع ، سوف نقوم بتنفيذ الاقتراح وإخراجه إلى حيز الوجود ، خاصة وأنه قد خطونا خطوة لابأس بها ، وهى وضع الأساس الذى يقوم عليه البناء ، وبالله التوفيق .

٧٠

علاقات مصر بالممالك التجارية الإيطالية

في ضوء وثائق "صبح الأعشى"

بقلم: الدكتور جوزيف نسيم يوسف

عاصر أبو العباس أحمد القلقشندى فترة تغير وانتقال شهدها العالم المعروف وقتذاك . إذ ولد بمصر سنة ٧٥٦هـ (١٣٥٥ م) وتوفى فى ٨٢١هـ (١٤١٨م) عن ٥٦ سنة ، بعد حياة حافلة أمضاها فى العلم والعمل والدراسة والتأليف . وأسهم التحاقه بديوان الإنشاء بمصر سنة ٧٩١ هـ (١٣٨٩ م) ، فضلا عن تنقلاته وجولاته وأسفاره العديدة فى البلاد الخاضعة لحكم المماليك ، مساهمة واضحة يبدو أثرها فيما أثرى به المكتبة العربية من مؤلفات قيمة تناولت شتى الموضوعات . ومن اهمها ، إن لم يكن أهمها على الإطلاق ، كتابه المعروف باسم « صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء »(١) .

عاصر القلقشندى نهاية العصور الوسطى بمثلها ومبادئها ونظمها وتقاليدها ، وبداية عصر جديد له أوضاع ومفاهيم جديدة مغايرة . إذ عاش مع الانقلابات والانتفاضات الهائلة التى اهتز لها كيان العالم الوسيط من أساسه فى الفكر والسياسة والاقتصاد والحرب . فلم يكن هناك شىء ثابت على حاله ، بل كان كل شىء فى تغير دائم مستمر . ولقد شمل هذا التغيير شتى مرافق الحياة ومختلف أوجه النشاط فى المجتمع الإنسانى . عاش فى عصر كانت فيه الدماء الساخنة تجرى فى العروق معلنة انتهاء عصر وبزوغ فجر

---

(١) Encyclopédie de l'Islam, t. II (Leyde & Paris, 1927), 742-3:; Ronart, S. & N., Concise Encyclopaedia of Arabic Civilization : The Arab East (Amsterdam, 1959), 432.

وللمزيد من التفاصيل عن القلقشندى وسيرته ومؤلفاته ، انظر السخاوى : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع جـ ٢ (القاهرة ١٣٥٤ هـ) ص ٨ ، ابن العماد : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب — جـ ٧ (القاهرة ١٣٥١ هـ) ص ١٤٩ ، راجع أيضا كلمة محمد عبد الرسول فى كتاب « صبح الأعشى » — جـ ١ (القاهرة ١٩١٣) ص ١٩ — ٢٤ .

جديد (١) . تحدث عن القاهرة ، عاصمة المصريين ، وهى فى أوج قوتها وعظمتها فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ؛ «فهى أم الممالك ، حاضرة البلاد ، دار الخلافة ، كرسى الملك ، منبع الحكماء ، ومحط الرجال » كما أشار إلى سلاطين المماليك الذين تربعوا على عرشها فى عصره (٢) . وإن كان قد تحدث عن مصر وحكامها ، فلم يغفل الغرب وأحواله . فقد كانت لدول والممالك الإيطالية ، وبخاصة البحرية منها المشتغلة بالتجارة ، قد سبقت غيرها إلى عصر النهضة ، وازدادت صلاتها بمصر قوة ورسوخاً . فتردد الرسل والمبعوثون والسفار بينها وبين مصر ، وعقدت المهادنات ؛ وتواترت المكاتبات ، وتوثقت العلاقات الطيبة تدعيما للمصالح المشتركة . كذلك شاهد الفكرة الصليبية وهى تلفظ آخر أنفاسها فى أواخر القرن الرابع عشر ، بشل حملة بطرس الأول لوسنيان حاكم قبرص اللاتينى على الإسكندرية السنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٥ م) ، وكان ذلك فى عهد السلطان المملوكى الأشرف شعبان (٣) .

وإن دل هذا على شىء فعلى أن الفكرة الصليبية لم يعد لها مكان فى مجتمع القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، بعد أن انصرف الناس فى غرب أوروبا عنها إلى مصالحهم الخاصة ومشكلاتهم الداخلية . كما يدل على أن المجتمع الغربى بدأ ينبذ سياسة الحديد والنار ، ويتجه اتجاهاً مخالفاً لما كان

---

(١) أنظر عن ذلك :

Le Goff, J., La Civilisation de l'Occident Médiéval (Paris, 1965), 445 ff.; waugh, w.T., A History of Europe from 1378 to 1494 (London, 1932), 1-9; Huizinga, J., The Waning of the Middle Ages (London, 1955), 9 ff., 153 ff., 228 ff.

(٢) صبح الأعشى ــ جـ ٣ (القاهرة ١٩١٤) ص ٣٦٧ . أنظر أيضا صفحات ٢٧٨ ــ ٢٨١ و ٤٣١ و ٤٣٧ ــ ٤٣٨ من الجزء نفسه .

(٣) صبح الأعشى ــ جـ ٤ (القاهرة ١٩١٤) ص ٢٤ ، وجـ ٨ (القاهرة ١٩١٥) ص ١١١ ــ ١١٥ . وللمزيد من المعلومات عن حملة لوصيان على الاسكندرية ، أنظر : Atiya, A. S., The Crusade in the Later Middle Ages (London, 1398), 345-78; idem, Crusade, Commerce and Culture (Bloomington, 1962), 102-4.

هذا وقد حكم بطرس لوسنيان قبرص فى الفترة من سنة ١٣٥٩ م الى سنة ١٣٦٩ م ، أما الأشرف شعبان سلطان مصر فهو حفيد للملك الناصر محمد وقد تولى الحكم لمدة ١٤ سنة (٧٦٤ ــ ٧٧٨ هـ/١٣٦٣ ــ ١٣٧٧ م) ومات مقتولا .

سائداً فى عصر التوسع الصليبى ، وذلك بازدياد التلاحم بينه وبين الشرق الأدنى الإسلامى بعامة ومصر بصفة خاصة . وقد تمثل ذلك فى العلاقات الطيبة التى قامت بين مصر وبين الدول التجارية الإيطالية ، وعلى رأسها البندقية وجنوة وبيزة ، والتى يمدنا كتاب «صبح الأعشى» بمعلومات عنها على جانب كبير من الأهمية تسد فجوة كبيرة فيما نحن بصدده (١) .

وغنى عن القول أن هذا الكتاب يعتبر بالنسبة للأمة العربية والعالم المحيط بها المتعامل معها ، دائرة معارف فى شتى النواحى الأدبية والتاريخية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية والفكرية والفلسفية . وعلى الرغم من فوات مئات السنين على وفاة مؤلفه ، فالكتاب لايزال حتى اليوم مصدراً أساسيا يرجع إليه طلاب العلم والمعرفة فى الشرق والغرب على السواء فى كثير من المعارف والعلوم ، فضلا عن أهميته بالنسبة للعلاقات بين شتى العالم فى فترة من أدق فترات التاريخ . . . وعلى الرغم من الدراسات التى صدرت عنه وعن مؤلفه ، لا يزال « صبح الأعشى » كنزاً مغلقاً على ما يحتويه من نفائس ، ومنجماً لم يستغل بعد الاستغلال الكافى ، ومعيناً لاينضب للباحث فى الأفرع التى أشرنا إليها .

ويمتاز القلقشندى بأنه مصدر ثقة فيما يكتب ، وبخاصة الفترة التى عاصرها وشاهد أحداثها . والمتصفح للكتاب يدرك على الفور أن صاحبه رجع إلى عشرات المصادر العربية والأجنبية التى استقى منها معلوماته ، وقد فقد بعضها ولم يصلنا ، فحفظ لنا مادته من العبث والضياع .

وإذا نظرنا إلى الكتاب نظرة مدققة فاحصة ، عريضة شـاملة ، فسوف نجد أن مؤلفه يتبع منهاجاً علمياً واضحاً يقوم على وحدة الفكرة من ناحية ، وعلى أسلوب التفريغ داخل إطار محدد مرسوم من ناحية أخرى . فهو ينقسم إلى عشر مقالات تسبقها مقدمة وتلحق بها خاتمة .

---

(١) تضمنت وثائق « صبح الأعشى » الخاصة بالمكاتبات والمراسلات والمهـادنات وعقود الأمان بين مصر والممالك التجارية الايطالية الكثير من المعلومات الهامة التى لم تتعرض لها المراجع الأجنبية .

وقد ركز المؤلف فى المقالة الأولى على التعريف بصناعة الإنشاء وكل ما يتعلق بها لتكون المدخل إلى باقى المقالات التى أبان فيها أهمية معرفة المسالك والممالك ، والدول والبلدان التى لها علاقات بمصر ، كما أشار إلى منتجاتها وصادراتها ووارداتها ، وذكر المكاتبات المتبادلة بينها وبين مصر بما فى ذلك كتب الأمان والمهادنات وعقود الصلح . كل هذا يكشف عن ثقافة القلقشندى المتكاملة فى النواحى الجغرافية والتاريخية والسياسية والاقتصادية ، فضلا عن مكانته المعروفة فى الناحية الأدبية (١) .

وبين ثنايا أجزاء « صبح الأعشى » نجد المادة التى تهمنا ؛ الخاصة بالعلاقات بين مصر والممالك التجارية الإيطالية — مبعثرة هنا وهناك ؛ وهى تلقى ضوءاً واضحاً على طبيعة هذه العلاقات وماهيتها . وترجع المادة التى زودنا بها القلقشندى إلى العصرين الأيوبى والمملوكى ، وإن كان الجانب الأكبر منهـا يتعلق بعصر القلقشندى نفسه ، أى النصف الثانى من القرن الرابع عشر والسنوات الأولى من القرن الخامس عشر . ومن هنا جاءت قيمتها التاريخية باعتبار أن صاحبها كان معاصرا لها وشاهد عيان لأحداث ذلك الزمان ، بحكم عمله فى ديوان الإنشاء بمصر ، الذى أتاح له فرصة التعرف على كل ما يختص بتلك العلاقات والاطلاع على وثائقها ومستنداتها . وثمة ملاحظة أخرى هى تلك المادة التى تلازم زمنياً عصر التوسع الصليبى ضد العالم الإسلامى . ومن هنا جاءت العلاقات بين مصر والممالك التجارية الإيطالية معبرة عن طبيعة ذلك العصر أصدق تعبير . فهى تكشف عن وجود علاقات اقتصادية بين مصر والجاليات التجارية الإيطالية داخل نطاق النزاع الدينى .

وكيفما كان الأمر ، نستدل من وثائق « صبح الأعشى » أن الدول التجارية الإيطالية التى كانت لها علاقات بمصر وقتذاك هى على التوالى :

---

(١) أنظر كتاب الدكتور عبد اللطيف حمزة وعنوانه « القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى — عرض وتحليل » القاهرة ١٩٦٢ (مجموعة أعلام العرب — العدد رقم ١٢) .

البندقية وجنوة وبيزة . وقد قامت علاقاتها مع مصر على أساس تجارى بحت . ولتفهم ذلك يحسن أن نعود قليلا إلى الوراء لنلقى نظرة عاجلة على الظروف التى مر بها الغرب منذ بداية العصر الوسيط حتى عصر التوسع الصليبى .

فى أواخر القرن الخامس الميلادى سقطت الإمبراطورية الرومانية القديمة إثر غزوات البرابرة عليها ، وقامت على أنقاضها فى الغرب ممالك جديدة لها أنظمة وحضارة جديدة مغايرة(١) • وبسقوطها تتدهور حياة المدينة باقتصادها النقدى ونشاطها التجارى المعروف الذى كان محوره البحر المتوسط ، لتبدأ البذور الأولى لعصر الإقطاع الذى ساد الغرب طوال العصر الوسيط الأول . والإقطاع يقوم أساساً على الأرض وفلاحتها وما تغله من خيرات . وكانت حضارته حضارة زراعية ريفية لا تعرف التجارة أو الصناعة إلا فى أضيق الحدود(٢) . وساعد على ذلك أن أوروبا كانت فى القرون الأولى من تلك العصور مسرحاً لأحداث سياسية خطيرة لم تساعد على نمو التجارة ونهوضها من كبوتها ، نذكر منها غزوات البرابرة التى أوجدت حالة واضحة من الفوضى والاضطراب فى كافة أرجاء الغرب . ثم حركة الفتح العربى وما ترتب عليها من سيطرة الإسلام على البحر الأبيض المتوسط الذى أصبح بحيرة إسلامية بعد أن كان بحراً رومانياً(٣) ، ثم تصدع إمبراطورية شارلمان وتفككها بعد موته ، بالإضافة

---

(١)
La Monte, J. L., The World of the Middle Ages (New York, 1949), 36-50, 70-3, 152-3 ; Sullivan, R. E., Heirs of the Roman Enpire (New York, 1960), 10, 12-3, 17, 31, 37-42, 48-50, 63-6; 73; 101; 104 ; Katz; S.; The Decline of Rome and the Rise of Mediaeval Europe (New York, 1960), 88-9, 91-2, 99, 100, 104-5, 108-10, 112, 114-5, 118; 135.

(٢) هارتمان (ل• م•) وباراكلاف (ج•) : الدولة والامبراطورية فى العصور الوسطى – ترجمة وتعليق د• جوزيف نسيم يوسف (الاسكندرية ١٩٦٦) – ص ١٥ وما بعدها و ١٠٣ وما بعدها • انظر أيضا :
Pirenne, H., Medieval Cities, trans. from the French by F.D. Halsey (New York, 1948), 43 ff. ; Pirenne, H., Cohen, G. & Focillon, H., La Civilisation Occidentale au Moyen Age du XIe au milieu du XVe siècle (Paris, 1941), 7 ff.

(٣)
Pirenne, H., Economic and Social History of Medieval Europe (London, 1961, 2-3, 40-1 ; idem, Med. Cities, 15-6.

إلى عوامل أخرى عديدة . ونتج عن كل هذا توقف الحياة الاقتصادية فى العالم الغربى وإصابتها بشلل حاد لقرون طويلة . وأصبحت حركة التجارة محدودة غير نشطة لا تتعدى تبادل السلع الزائدة عن الحاجة(١) .

كان هذا الوضع السائد فى الغرب حتى أوائل القرن الحادى عشر عندما بدأت المدن الجديدة فى الظهور ، بينما أخذ الإقطاع فى الانهيار والزوال . ويعتبر ظهور المدن من الأمور البالغة الأهمية ؛ إذ أسهم فى زلزلة بقايا النظام الإقطاعى ومهد لقيام مجتمع جديد وحضارة جديدة أساسها التجارة والصناعة . وكان هذا النشاط بمثابة انقلاب اقتصادى كبير من أبرز نتائجه التوسع فى نظام الأجر النقدى وابتداع العملات بدلا من نظم الخدمة الإقطاعية التى كانت سائدة من قبل(٢) .

وكان للعامل الجغرافى أثره الكبير فى تطور بعض المدن الغربية وازدهار التجارة بها ، من ذلك المدن البحرية الإيطالية ، وعلى رأسها : البندقية وجنوة وبيزة التى استمدت أهميتها من موقعها على البحر المتوسط الذى كان محور نشاطها ، والذى جعل منها حلقة اتصال بين الشرق والغرب(٣) . وساعد

أنظر أيضا لويس (أرشيبالد ر٠) : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط (٥٠٠ – ١١٠٠ م) – ترجمة أحمد محمد عيسى – (القاهرة ١٩٦٠) ص ٧ ومابعدها و ٨٧ ومابعدها و ٢١١ ومابعدها ٠

(١) كولتون (ج٠ج٠) : عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة – ترجمة وتعليق د٠ جوزيف نسيم يوسف – ط٠ ثانية (الاسكندرية ١٩٦٧) – ص ٢٨٨ – ٢٨٩ ، لوبيز (ر٠) : التأثيرات الشرقية والنهضة الاقتصادية فى الغرب – ترجمة توفيق اسكندر فى كتاب يشتمل على خمسة بحوث مترجمة باسم « بحوث فى التاريخ الاقتصادى » (القاهرة ١٩٦١) – ص ١٤٤ و ١٧١ ٠ انظر أيضا :

Stephenson, C., Medi eval Feudalism (New York, 1942), 97-8.

وللمزيد من المعلومات عن التجارة بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى المبكرة ، وبخاصة فى القرون : الثامن والتاسع والعاشر ، أنظر :

Lopez, R.S. & Raymond, I.W. (trans.), Medieval Trade in the Mediterranean World (New York, 1955), 19-41.

(٢)

Pirenne, Med. Cities, 58 f.; idem, Economic and Social Hist., 42 f., 116 ff., 169.

أنظر أيضا ممفورد (لويس) : المدينة على مر العصور « أصلها وتطورها ومستقبلها » اشراف ومراجعة الدكتور ابراهيم نصحى – ج ٢ (القاهرة ١٩٦٤) ص ٤٧٢ ومايليها٠

(٣) توفيق اسكندر : بحوث فى التاريخ الاقتصادى – مقالة لوبيز « أثر الشرق فى نهضة الغرب الاقتصادية » ص ١٧٥ – ١٧٦ ٠

على قيامها بهذا الدور الاحتياجات المتبادلة بين شتى العالم وقتذاك . فقد كان لمنتجات الشرق بصفة عامة ومصر بصفة خاصة أهمية كبيرة بالنسبة للغرب الأوروبى . ومن أهم السلع التى كان الغرب فى حاجة إليها التوابل والبهارات لحفظ المأكولات سليمة ولصناعة الأدوية والعقاقير ، فضلا عن السكر والعطور والبخور والعاج والأحجار الكريمة والخامات الأولية اللازمة لصناعة النسيج كالقطن . كذلك كان الشرق فى حاجة إلى بعض الخامات الغربية التى لم تكن متوفرة عنده مثل : الأخشاب والمعادن كالنحاس والحديد؛ وكانت تلك المدن البحرية تقوم بعملية تصدير واستيراد هذه السلع تلبية لتلك الاحتياجات المتبادلة بين شتى العالم ، وتجنى من وراء ذلك أرباحاً هائلة(١) .

وللبندقية بالذات تاريخ بحرى مجيد انفردت به عن غيرها من دول الغرب الأوروبى مثلما انفردت به عن زميلتيها جنوة وبيزة(٢) . فهى مدينة ممتدة على المستنقعات والبحيرات . ويكشف موقعها الجغرافى عن عظمتها البحرية والتجارية(٣) . إذ تقع على رأس البحر الأدرياتى(٤) ، الذى كان يعتبر على حد قول الكاتبة إيلين بور E. Power أعظم طريق بحرى لتجارة العصر الوسيط . ثم هى فى موقع متوسط بين الشرق والغرب ، فضلا عن كونها ميناء من موانى البحر المتوسط . ويكاد هذا الميناء أن يكون فى قلب أوروبا لو وقوعه فى أقصى الطرف الشمالى . كل هذا أكسبها ميزات حسدتها عليها كثير من بلدان أوروبا . ففيها كان يرسو التجار الوافدون من الثغور

---

(١) أنظر ديل (شارل) : البندقية جمهورية أرستقراطية – ترجمة الدكتور أحمد عزت عبد الكريم والأستاذ توفيق اسكندر (القاهرة ١٩٤٨) ص ٢٠ و ٣٥ – ٣٦ و ٥٩ .

(٢) ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية – ص ٧ .

(٣) Cf., Pirenne, Med., Cities, 59.

ويمدنا القلقشندى بمعلومات طيبة عن المدينة وسكانها وقاعدة ملكها وأطوالها وسبب تسميتها بهذا الاسم وحكامها وعملتها وأهم منتجاتها وأعمالها . أنظر صبح الأعشى – جـ ٥ (القاهرة ١٩١٥) ص ٤٠٤ . راجع أيضا Pirenne, Cohen & Focillon, op. cit., 21.

(٤) يقال له أيضا بحر أدريا أو خليج البندقية . أنظر محمد أمين الخانجى : منجم العمران فى المستدرك على معجم البلدان – جـ ١ (القاهرة ١٩٠٧) ص ١٧٤ .

المصرية : كالإسكندرية ودمياط وغيرها من موانى شرق البحر المتوسط ، ومن بلاد الشرق الأقصى ، ومعهم الأنسجة الحريرية والتوابل والكافور والعاج واللؤلؤ والعطور والطنافس وغيرها . ومن البندقية كانت هذه البضائع تنقل إلى ألمانيا وفرنسا وانجلترا والأراضى الواطئة وغيرها من بلدان الغرب (١) .

ويمدنا القلقشندى بمعلومات طيبة عن البندقية وأهلها وصاحبها وألقابه، وهو يطلق عليها « مملكة البنادقة » معتبراً إياها من ممالك الفرنج الكبار الواقعة ما بين الخليج القسطنطينى وجزيرة الأندلس(٢) . فهى تقع على الخليج المعروف باسم « جون البنادقة » فى الركن الشرقى من سهل لمبارديا(٣) . ويعرف سكانها باسم « البنادقة » نسبة إلى المدينة نفسها ، « وهم طائفة مشهورة من الفرنج » . (٤) كما يعرف حاكمها ومتولى أمرها باسم « ملك البندقيه »(٥) ، والملك عندهم هو الدوق . ويزيد القلقشندى الأمر وضوحاً فيردد أكثر من مرة « أن الملك اسمه عندهم دوك »(٦) ؛

---

(١)
Power, E., Medieval People (London, 1954), 34-5.

(٢) صبح الأعشى — ج ٥ — ص ٤٠٤ . ومن الكتب القيمة عن البندقية كتاب أوجست بايى
Bailly, A., La Sérénissime République de Venise, Paris, 1946.
فقد أشار الى موقف البندقية من الحركة الصليبية فى القرن الثانى عشر الميلادى (ص ٦٨ وما بعدها) ، والصراع من أجل بضائع الشرق الأدنى الاسلامى ، وكذلك التنافس بينهـا وبين جنوة (ص ١١٦ ومابعدها) .

(٣) صبح الأعشى — ج ٣ — ص ٢٣٤ . ويطلق الأدريسى على « جون البنادقة » اسم « البنادقى » و « خليج البنادقيين » . انظر : نزهة المشتاق فى ذكر الأمصار والأقطار والبلدان والجزر والمدائن والآفاق (طبع روما سنة ١٨٧٨) — تحقيق امارى — ص ١١ . راجع أيضا ديل البندقية جمهورية أرستقراطية — ص ٩٠٧ .

(٤) صبح الأعشى — ج ٥ — ص ٤٠٤ و ج ١٣ (القاهرة ١٩١٨) ص ٨٨ . وتتفق المصادر الاسلامية على تسميتهم بهذا الاسم .

(٥) صبح الأعشى — ج ٥ — ص ٤٠٤ و ٤٨٥ .

(٦) صبح الأعشى — ج ٣ — ص ٤٣٧ . ويقول القلقشندى : ان « ملكهم من أنفسهم يقال له الدوك » . أنظر صبح الأعشى — ج ٥ — ص ٤٠٤ . وفى موضع آخر يقول «وكل من ملك منهم يسمونه دوك بالكاف المشوبة بالجيم فيقال « دوك البندقية » ، وهذا اللقب جار على ملوكهم الى آخر وقت . » انظر صبح الأعشى — ج ٥ — ص ٤٨٥ . ولكن القلقشندى يعود فيناقض نفسه عندما يذكر أن الدوك غير الملك . وهذا غير صحيح ، فالمعروف أن الدوج عندهم بمثابة الملك . أنظر صبح الأعشى — ج ٨ — ص ٤٨ .

ولذلك يقال له « دوك البندقية »(١) ، أو « دوقس البنادقة »(٢) ، أو « دوج البندقية » (٣) ، الذى كان يعتبر رمز عظمة البندقية(٤) . وهذه التسمية الأخيرة هى أكثرها شيوعاً فى المراجع الحديثة من عربية وأجنبية . أما تعريفه فى ديوان الإنشاء بمصر فهو «صاحب البندقية »(٥) .

ولقد حرصت البندقية على إقامة علاقات طيبة مع مصر ودول الشرق الأدنى الإسلامى قبل قيام الحركة الصليبية ، وحصلت هى وغيرها من الجاليات البحرية الإيطالية على امتيازات تجارية واسعة من الخلفاء الفاطميين بمصر(٦) ، وأثرت من وراء ذلك ثراء كبيراً . وكان إسهامها فى الحملات الصليبية التى اندلعت فى أواخر القرن الحادى عشر نتيجة طبيعية لسياستها الاقتصادية . ولكن هذة الحملات ، وإن اتسمت بميسم العنف ، إلا أنها مع ذلك دفعت التجارة النامية فى أوروباالغربية دفعة كبرى إلى الأمام(٧) . إذ أدى الاحتكاك الحربى بين الغرب الأوروبى والشرق الأدنى الإسلامى إلى احتكاك تجارى يتمثل فى تبادلالسلع والبضائع بينهما . وهذا يعنى أن العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب لم تنقطع حتى فى وقت الحروب الصليبية (٨) .

---

(١) صبح الأعشى — ج ٥ — ص ٤٨٥ .

(٢) صبح الأعشى — ج ٥ — ص ٤٠١ و ٤٠٢ .

(٣) صبح الأعشى — ج ٨ — ص ٤٧ .

(٤) انظر ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية — ص ٨٥ وما بعدها .

(٥) أورد القلقشندى هذا التعريف عند حديثه عن المكاتبة الى « صاحب البندقية » أنظر صبح الأعشى — ج ٨ — ص ٤٧ .

(٩) أنظر Pirenne, Med. Cities, 61. هذا ويشغل حكم الفاطميين لمصر الفترة من سنة ٣٥٨ الى سنة ٥٦٧ هـ (٩٦٩ — ١١٧١ م) ، وقد انتعشت العلاقات التجارية بين البندقية ومصر الفاطمية خلال القرن الحادى عشر ، وهو القرن السابق لقيام الحركة الصليبية .

(٧) كولتون : عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة (الترجمة العربية) ص ٢٠٢، ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية — ص ٣٠ ، أنظر أيضا كتاب الدكتور عزيز سوريال عطية عن الحرب الصليبية والتجارة والثقافة Atiya, Crusade, Commerce and Culture, 162 ff. . هـــذا ، ويرى لوبيز أن الحروب الصـــليبية كانت خاتمـــة أكثر منها بداية ، وأن النهضة الاقتصادية فى الغرب كانت سببا لها أكثر مما هى نتيجة لها . أنظر توفيق اسكندر : بحوث فى التاريخ الاقتصادى — ص ١٧٤ .

(٨) انظر توفيق اسكندر : بحوث فى التاريخ الاقتصادى — ص ١٧٥ .

وكان لأهل البندقية دور ملموس في هذا المضمار : فأسهموا بسفنهم وأساطيلهم في نقل الجند والعتاد والمهمات من موانى أوروبا إلى سواحل مصر والشام . كما اشتركوا مع القوات الصليبية في الإستيلاء على الموانى الشامية تحقيقاً لمصالحهم وأطماعهم التجارية في المنطقة . لقد كان هدف تجار البندقية استغلالى بحت ، نظراً للكسب الكبير الذى يعود عليهم من السيطرة على الطرق التجارية للسلع الشرقية التى أصبحت مصر مصدر ثراء عريض للمشتغلين بها : فإن امتلاك مصر والشام حيث تنتهى الطرق البحرية الرئيسية لهذه السلع كان حجر الزاوية في السيطرة على تجارتها(١) .

لذلك قامت أساطيلهم بدور فعال في الاستيلاء على المراكز الرئيسية في الشام . فشاركوا في استيلاء اللاتين على بيت المقدس سنة ١٠٩٩ م ، كما كانوا عنصراً بارزاً في الحملات التى كانت مصر والشمال الأفريقى مسرحاً لها فيما بعد(٢) . ولم يقتصر التجار البنادقة على المساهمة في قيام الإمارات اللاتينية بالأراضى المقدسة ، بل امتد إلى العمل على الاحتفاظ بها أطول مدة ممكنة تمكيناً لمصالحهم وتثبيتاً لها(٣) . وقد تمثل ذلك في المعاهدات التى عقدت بينهم وبين حكام مملكة بيت المقدس اللاتين ، التى تضمنت امتيازات عديدة إقليمية ومالية وقضائية لصالح أولئك التجار(٤) .

والخلاصة أن البنادقة وغيرهم من التجار الإيطاليين كانوا يجرون وراء مصالحهم حيثما وجدت . فكانوا يشتركون مع الصليبيين إذا وجدوا في ذلك مصلحة لهم . ولكنهم سرعان ما يتحولون عنهم ويسارعون إلى التفاهم مع

---

(١) Pirenne, Economic and Social Hist., 31 ; Grousset, R., The Sum of History, English version by A. & H. Temple Patterson (Oxford, 1951), 181.

انظر أيضا توفيق اسكندر : بحوث في التاريخ الاقتصادى ـ ص ١٧٦ (مقالة لوبيز) .

(٢) جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى ـ ط. ثانية (الاسكندرية ١٩٦٧) ص ٨٧ ـ ٨٨ .

(٣) Pirenne, Med. Cities, 64 ; Coulton, G.G., Medieval Panorama (New York, 1955), 320.

(٤) Pirenne, Economic and Social Hist., 30-3 ; Mahmud, S.F., The Story of Islam (Karachi, 1959), 135.

انظر أيضا ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية ـ ص ٣١ .

خصومهم المصريين وفقاً لما تمليه عليهم مصالحهم الخاصة . وهكذا كانت الحرب الصليبية مجرد ورقة يلعبون بها(١) :

ويتضح هذا الموقف المتلون من تذكرة من إنشاء القاضى الفاضل بعث بها صلاح الدين الأيوبى مع رسول من قبله يدعى الأمير شمس الدين الخطيب إلى الخليفة العباسى المستضىء بالله . وتتناول التذكرة بإيجاز السنوات الأخيرة من الحكم الفاطمى لمصر وبداية الدولة الأيوبية : وفيها يعرض صلاح الدين عرضاً سريعاً لأعماله وفتوحاته وجهاده ضد كل من الفرنج بالشام وبقايا الفاطميين بمصر ، ثم موت نور الدين محمود سلطان حلب والشام ، ومحاولات صلاح الدين توحيد الجبهة الإسلامية المفككة فى الشرق الأدنى لمواجهة الخطر الصليبى بالشام الذى كان قد استفحل أمره وبات يهدد المسلمين بشر مستطير(٢) .

وكيفما كان الأمر ، فقد وردت فى التذكرة إشارة واضحة إلى سياسة البنادقة حيال كل من صلاح الدين والصليبيين ، فيما يلى نصها :

« ومن هؤلاء البنادقة . . . . تارة لا تطاق ضراوة ضرهم ، ولا تطفأ شرارة شرهم ، وتارة يجهزون سفاراً يحتكمون على الإسلام فى الأموال المجلوبة ، وتقصر عنهم يد الأحكام الموهوبة ، وما منهم الآن إلا من يجلب إلى بلدنا آلة قتاله

---

(١) توفيق اسكندر : بحوث فى التاريخ الاقتصادى (مقالة لوبيز) ص ١٧٦ .

(٢) لم يحدد القلقشندى تاريخ ارسال هذه التذكرة التى تتضمن عرضا سريعا لفتوحات صلاح الدين فى اليمن والمغرب ، وأطماع الفرنج فى مصر ، والفترة الأخيرة من حكم العاضد الفاطمى فى عهد وزارة صلاح الدين والتى انتهت بموت العاضد وانتهاء الخلافة الفاطمية بمصر ، ثم موت نور الدين وأحوال الدولة النورية بعد وفاته ، وموقف صلاح الدين من الصالح اسماعيل بن نور الدين ، ومحاولاته السيطرة على الشام ليتفرغ للجهاد ضد الفرنج وفى ختام التذكرة يطلب صلاح الدين من الخليفة العباسى أن ينعم عليه بتقليد جامع لمصر والمغرب واليمن والشام وكل ما تشتمل عليه الولاية النورية . وعلى الرغم من أن القلقشندى لم يحدد تاريخ ارسال هذه التذكرة الى الخليفة العباسى ، الا أنه من المحتمل حسب تسلسل الأحداث أن تكون بعد سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤ م) بقليل ، وهى السنة التى مات فيها السلطان نور الدين محمود وخلفه فى الحكم ابنه الصالح اسماعيل . انظر نص التذكرة فى صبح الأعشى ـ جـ ١٣ ـ ص ٨١ ـ ٩٠ . وسنتناولها بالدراسة والتحليل عند التعرض للعلاقات بين جنوة ومصر فى عهد صلاح الدين الأيوبى .

وجهاده ، ويتقرب إلينا بإهداء طرائف أعماله وبلاده ،
وكلهم قد قررت معه المواصفة ، وانتظمت معه المسالمة ،
على مانريد ويكرهون ، ونؤثر ولا يؤثرون(١) » .

كان الصليبيون فى هذا الوقت قد أسسوا إماراتهم الأربع فى الأراضى المقدسة على حساب الضعف الذى انتاب الشرق الأدنى الإسلامى عند قيام الحركة الصليبية(٢) : فقد كانت الخلافة الفاطمية فى طور الاحتضار ، وتوشك على السقوط عند أول ضربة قوية توجه إليها(٣). والتنافس على أشده بين كل من « أمورى » حاكم بيت المقدس اللاتينى ونورالدين محمود صاحب الشام على ملك مصر . وتوالت حملات كل منهما عليها فيما بين عامى ٥٥٨ و ٥٦٤ هـ (١١٦٣ ـ ١١٦٨ م) ، وقد انتهت بهزيمة الفرنج وانتصار جيش نورالدين بقيادة أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين الأيوبى(٤) . وكان القضاء على الخلافة الفاطمية وقيام دولة الأيوبيين بمصر إيذاناً ببداية بوادر اليقظة الإسلامية فى أواسط القرن السادس الهجرى (أواسط القرن الثانى عشر الميلادى) بعد أن أحس المسلمون بالخطر الجاثم الذى، كان يتهددهم ، وأخذوا يتكتلون لمواجهته و دفعه عن ديارهم(٥) .

فى ظل هذه الظروف كان البنادقة يساعدون الصليبيين بأساطيلهم، فهم مسيحيون مثلهم ويتقاضون أجوراً على نقلهم هم ومهماتهم عبر البحر

---

(١) صبح الأعشى ـ جـ ١٣ ـ ص ٨٨ .

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق (بيروت ١٩٠٨) ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥ .

(٣) ابن الأثير منتخبات من كتاب الكامل فى التاريخ ، فى « مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية ـ المؤرخون الشرقيون » جـ ١ (طبع باريس ١٨٧٢) ص ٥٥٠ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ـ جـ ٥(القاهرة ١٩٣٥)ص ٣٣٨ و ٣٣٩ و ٣٤٥ ـ ٣٤٦ و ٣٦٣ .

(٤) انظر عن ذلك ابن شداد : سيرة صلاح الدين الأيوبى (مصر ١٣١٧ هـ) ص ٢٨ ـ ٣٥ ، ابن الأثير : الكامل فى التاريخ فى «مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية» جـ ١ ـ ص ٥٣٢ ـ ٥٤١ و ٥٤٦ ـ ٥٥١ و ٥٥٣ ـ ٥٥٨ . راجع أيضا
Michel le Syrien, Extrait de la chronique de Michel le Syrien, ed. R.H.C.-Doc. Arm., I (Paris, 1869), 353-9; Guillaume de Tyr, Historia rerum in partibus transmarinis gestarum, ed. R.H.C.-H. Occ., I (Paris, 1844), 890-1, 934, 945-6.

(٥) جوزيف نسيم يوسف : الوحدة وحركات اليقظة العربية ابان العدوان الصليبى (الاسكندرية ١٩٦٧) ص ٢٦ و ٢٧ ومابعدها .

إلى الشرق . ولكنهم كانوا فى الوقت نفسه يتقربون إلى السلطات المسئولة بمصر خشية ضياع المكاسب التى يجنونها من وراء التعامل معها . وهى سياسة ذات شقين متناقضين ، ولكنها على أية حال تتفق مع مصالحهم الخاصة التى كانت بالنسبة لهم فوق أى اعتبار .

وتتأرجح العلاقات بين البندقية ومصر فى العصر الأيوبى (١) بين التأزم والتصافى ، وهو العصر الذى تبلورت فيه حركة الإفاقة الإسلامية ، والذى شاهد بداية جهاد المسلمين ضد الفرنج فى الأرض المقدسة بقصد إجلائهم عنها . ويستمر خلفاء صلاح الدين من بنى أيوب ومن بعدهم المماليك البحرية (٢) فى مصر فى قتال الصليبيين ، إلى أن يتمكن السلطان الأشرف خليل (٣) سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م) من الاستيلاء على عكا ، وهى آخر معاقلهم الحصينة بالساحل الشامى . ولم تبق بعد ذلك سوى بضعة جيوب مبعثرة على امتداد الساحل منها : صور وصيدا وحيفا ، سقطت تباعاً فى أيدى المصريين فى العام نفسه (٤) .

لم تمت الفكرة الصليبية تماماً بسقوط عكا فى أواخر القرن الثالث عشر ، وإن كان ضياعها من الفرنج إيذاناً ببداية النهاية لعصر التوسع الصليبى ضد العالم الإسلامى . فكان المصريون يعلمون أن أهل الغرب اللاتينى سوف يقومون بمحاولات جديدة يائسة تستهدف تحقيق أحلامهم القديمة فى المنطقة ، وأن البنادقة وغيرهم من الجاليات التجارية لن يتوانوا عن مساعداتهم مثلما فعلوا فى الحملات المبكرة .

---

(١) احتلت الدولة الأيوبية من تاريخ مصر ٨٠ سنة تقريبا ، فهى تبدأ حوالى سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) وتنتهى فى سنة ٦٤٨ هـ (١٢٥٠ م) .

(٢) يشغل حكم المماليك البحرية لمصر الفترة من سنة ٦٤٨ هـ الى سنة ٧٨٤ هـ (١٢٥٠ ـ ١٣٨٢ م) .

(٣) تولى الملك الأشرف خليل بن قلاوون الحكم لمدة ثلاث سنوات ، وقد انتهى حكمه سنة ٦٩٣ هـ (١٢٩٣ م) وقتل وسنه ٣٠ سنة .

(٤) أنظر عن ذلك ابن ايبك : كنز الدرر وجامع الغرر ـ مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٦٤٣ تاريخ ـ جـ ٨ ـ ورقة ٣٣٠ ـ ٣٥ ، با مخرمة : قلادة النحر فى وفيات أعيان الدهر ـ مخطوط مصور بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٤١٠ تاريخ ـ جـ ٣ قسم ١ ـ لوحة ٩٨٨ .

فبعد حوالى عام من سقوط عكا تم عقد هدنة يرجع تاريخها إلى صفر سنة ٦٩٢ هـ (١٢٩٢ م) بين الأشرف خليل وبين صاحب أرغونة(١) الفرنجي الذى كان مصافياً له : وقد تضمنت خاتمتها بنداً صريحاً يتعلق بالبنادقة وغيرهم من طوائف الفرنج الذين دأبوا على إلحاق الضرر بالديار المصرية والبلاد الشامية. وخلاصته أن على صاحب أرغونة ــ الذى كان على علاقة صداقة ومودة مع الأشرف خليل، منع أولئك القوم، عن قصد مصر والشام مستخدماً فى ذلك كافة السبل، حتى ولو أدى الأمر إلى قتالهم لصرفهم عما هم قادمون عليه.

ونص هذا الشرط الوارد بالهدنة المذكورة هو :

« ... وعلى أن الملك دون حاكم (الريد أرغون)(٢) هو وأخواه وصهراه أصدقاء من يصادقون الملك الأشرف (خليل) وأولاده، وأعداء من يعاديهم من سائر الملوك الفرنجية وغير الملوك الفرنجية. وإن قصد الباب برومية(٣)، أو ملك من ملوك الفرنج، متوجاً كان أو غير متوج، كبيراً كان أو صغيرا، أو من الجنوية، أو من البنادقة ... مضرة بلاد الملك الأشرف، بمحاربة أو أذية، يمنعهم الملك دون حاكم هو وأخواه وصهراه ويردونهم، ويعمرون شوانيهم(٤) ومراكبهم، ويقصدون بلادهم، ويشغلونهم

---

(١) لظروف عديدة داخلية ــ منها موقف قشتالة فى الشمال الأسبانى من أرغونة ؛ اتجه حكام أرغونة وقتذاك الى الخارج . فاهتموا بالتجارة، وأقاموا صلات مع صقلية وايطاليا والشرق الأدنى . كما كانوا يعتبرون أنفسهم حماه للرعاية المسيحيين فى الشرق، خاصة بعد سقوط آخر معاقل الصليبيين بالساحل الشامى فى أيدى المماليك فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى .

(٢) المقصود بذلك السيد حاكم مملكة أرغونة، وهو حينذاك خايمى الثـــانى Jaime II وقد حكم من سنة ١٢٩١ الى سنة ١٣٢٧ م .

(٣) المقصود بابا روما رأس الجهاز الكنسى البابوى فى الغرب الأوروبى . وقد تضمنت وثائق « صبح الأعشى » اشارات عديدة قيمة عن بابوية روما وعلاقاتها بمصر فى عصر التوسع الصليبى .

(٤) الشوانى جمع شونة أو شينى أو شينية، وهى نوع من السفن الحربية الكبيرة، تقام فيها أبراج وقلاع للدفاع والهجوم . وتجهز الشوانى فى أيام الحرب بالسلاح والمؤن =

بنفوسهم عن قصد بلاد الملك الأشرف وموانيه وسواحله وثغوره المذكورة وغير المذكورة ، ويقاتلونهم فى البر والبحر بشوانيهم وعمائرهم وفرسانهم وخيالتهم ورجالتهم(١) » .

وإذا كانت البندقية — كما رأينا — قد مدت يد العون إلى الصليبيين تحقيقاً لمصالحها فحسب ؛ فقد امتنعت عن معاونتهم فى كثير من الأحيان عندما كانت تجد أن مثل هذه المعاونة سوف تضر بمصالحها فى مصر والشرق الأدنى الإسلامى ، وحتى لا توغر صدر السلطات المسئولة بمصر عليها . ونجد مثالا واضحاً لذلك فى موقفها من حملة لويس التاسع الصليبية على مصر فى أواسط القرن الثالث عشر الميلادى. فبينما كان الملك الفرنسى يستعد لهجومه على مصر فى عهد السلطان الأيوبى الصالح نجم الدين ، أجرى اتصالات مع الدول البحرية الإيطالية لاستئجار السفن اللازمة لنقل الجند والمؤن والعتاد عبر البحر إلى الشرق(٢) . وعندما اتصل بالبندقية لهذا الغرض رفضت تزويده بما يحتاج إليه من سفن(٣) ، بسبب العلاقات الطيبة التى كانت قائمة بينها وبين مصر وقتذاك(٤) . إذ كانت تخشى من قيام

= وتحشد بالمقاتلة والجدافين . وكان الشينى يسمى «الغراب» أيضا . انظر المقريزى : المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار — جـ ٢ (القاهرة ١٢٧٠ هـ) ص ١٩٤ — ١٩٥ ، ابن مماتى : كتاب قوانين الدواوين (القاهرة ١٩٤٣) ص ٣٤٠ ، ميخائيل عواد : المآصر فى بلاد الروم والاسلام (بغداد ١٩٤٨) ص ٦٦ ح ٤ .

(١) صبح الأعشى — جـ ١٤ (القاهرة ١٩١٨) ص ٦٦ .

(٢) لم تكن فرنسا وغيرها من دول الغرب مثل ألمانيا وانجلترا والأراضى الواطئة تملك فى ذلك الحين سفنا تسمح لها بنقل قواتها وعتادها عبر البحر الى الشرق الاسلامى . وكانت المدن التى لها أساطيل هى تلك التى لها موانى على البحر المتوسط ، وبصفة خاصة البندقية وجنوة وبيزة . ولقد أدرك هذه الحقيقة أحد المؤرخين المسلمين ، وهو ابن فضل الله العمرى ، اذ أوضح فى كتابه المعنون « رسالة تشتمل على كلام اجمالى فى أمر مشاهير ممالك الفرنج عباد الصليب فى البر دون البحر — نشر أمارى (طبع روما سنة ١٨٨٣) ص ٣ » — أن عساكر الملك الفرنسى لويس التاسع فى البر أطول منها فى البحر ، وانه ليس له اسطول ولا مراكب .

(٣) Daru, Le Comte, Histoire de la république de Venice (Bruxelles, 1840), 181.

(٤) كان للبندقية فى الاسكندرية حينذاك فندقان لسكن التجار البنادقة والعمل على =

حملة صليبية بحرية ضدها تؤدى إلى إغلاق أبواب التجارة فى وجهها ، وهى مصدر ثروة طائلة بالنسبة لها(١) .

لقد كان هدف البنادقة منذ بداية الحركة الصليبية حتى نهايتها هو الربح والكسب المادى ، ولم يكن يعنيهم الباعث الدينى إلا بالقدر الذى يحقق مصالحهم. فقد غلبت الصفة التجارية البحتة على مسلكهم وتصرفاتهم(٢) . ويكفى أن نعرف أن شعارهم الذى عرفوا به وقتذاك هو « لنكن أولا بنادقة ، ثم لنكن بعد ذلك مسيحيين (٣) » .

كانت البندقية فى الواقع هى أقوى قوة بحرية فى ذلك الوقت ، حتى إن حاكمها الدوج أصبح الحاكم المطلق على أربعة بحار هى : البحر الأدرياتى والبحر الإيجى وبحر مرمرة والبحر الأسود ، فضلا عن أن سفنها كانت ترتع فى البحر المتوسط ، وملأت متاجرها سواحل شرقى هذا البحر . كما كانت جزر قبرص ورودس وكريت تحت حكمها . وقضت سفنها على قراصنة البحر الذين كانوا يسببون الكثير من المتاعب للتجار والمسافرين . كذلك حاولت القضاء على المنافسين لها فى ميدان التجارة البحرية . وبخاصة جنوة . وبلغت سيطرة البندقية وسطوتها البحرية أنه كان يجب أن تمر التجارة مع الشرق عن طريقها هى فقط (٤) .

وباحتضار الفكرة الصليبية فى أواخر القرن الثامن الهجرى (أواخر القرن

راحتهم أثناء اقامتهم . كذلك كانت لهم كنيسة خاصة بهم ، وغيرها من الامتيازات التى منحهم اياها سلاطين بنى أيوب . انظر عن ذلك :

Heyd, W., Histoire du commerce du Levant au moyen-âge, I (Leipzig, 1885), 410-2; cf. also: Lane-Poole, St., A History of Egypt in the Middle Ages (London, 1936), 218.

(١) Grousset, R., Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jérusalem, III (Paris, 1936), 428.

(٢) Mahmud, Story of Islam, 132.

(٣) Matthew Paris, English History from the year 1235 to 1273, trans. from the Latin by J.A. Giles, II (London, 1853), 306; cf. also: Atiya, Crusade in the Later Middle Ages, 114.

(٤) Power, Med. People, 37; cf. also Pirenne, Med. Cities, 60.

راجع كذلك ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية ـ ص ٢٣ ـ ٢٤ و ٣٢ و ٥٠ ـ ٥٧ .

الرابع عشر الميلادى) ، كان طبيعياً أن تزداد العلاقات بين البندقية ومصر قوة وتوثقا بعد أن زالت العوائق التى حالت فى الماضى دون ذلك . وتلقى وثائق « صبح الأعشى » ضوءاً على هذه المسألة : ففى ١٦ من صفر سنة ٨١٤ هـ (١٤١٢ م) ورد إلى السلطان الناصر فرج (١) من المماليك الجراكسة كتاب من دوج البندقية المسمى ميخائيل مع رسوله المدعو نيقولا البندقى (٢) وفيه يتحدث ، بعد تقبيل الأرض وبث الشوق والود ، عن تردد التجار البنادقة على مصر فى أمان وسلام بسبب عدل السلطان : ثم يشير الدوج فى ثنايا الخطاب إلى حادثة اعتقال السلطان لقنصل البنادقة وتجارهم بالأسكندرية لتصرف بدر منهم ، مؤكداً أنه لم يقع منهم ما يستوجب ذلك ، ملتمساً فى النهاية التوصية خيراً بالقنصل والتجار وحسن معاملتهم ضماناً لاستمرار ترددهم على مصر وهم مطمئنين .

وفيما يلى نص الكتاب :

« السلطان المعظم ، مالك الملوك « فرج الله » ناصر الملة الإسلامية ، خلد الله سلطانه —

يقبل الأرض بين يديه نقولا (٣) دوج البنادقة ، ويسأل الله أن يزيد عظمتـه ، لأنه ناصر الحق ومؤيده ، وموئل الممالك

---

(١) جاء اسمه فى رسالة دوج البندقية «السلطان المملوكى فرج الله» ، والمقصود الملك الناصر فرج بن برقوق ، وكان قد تولى الحكم مرتين : المرة الأولى لمدة سبع سنوات لغاية سنة ٨٠٨ هـ (١٤٠٥ م) ، وقد انتهى هذا الحكم بخلعه ولم يكن قد بلغ السابعة عشرة من عمره . ثم يأتى أخوه الملك المنصور عبد العزيز بن برقوق ليتولى الحكم بضعة أشهر ويخلع وسنه ١٨ سنة . ويعود الملك الناصر فرج مرة أخرى ليتولى الحكم سبع سنوات أخر لغاية سنة ٨١٥ هـ (١٤١٢ م) وينتهى حكمه بقتله وله من العمر ٢٤ سنة .

(٢) المفهوم مما جاء فى وثائق «صبح الأعشى» أن كتاب الدوج ورد باللسان الفرنجى ، وقد قام بنقله الى العربية اثنان من التراجمة بديوان الانشاء بمصر وقتذاك هما شمس الدين سنقر وسيف الدين سودون . والكتاب مدون على ورقة مربعة وسطوره متقاربة . وقد احتفظ القلقشندى ضمن وثائقه بترجمته العربية ، وهى لاترقى بحال فى مستواها اللغوى من حيث البلاغة وجزالة اللفظ الى مستوى المكاتبات العربية الصادرة من ديوان الانشاء بمصر الى ملوك الغرب . انظر صبح الأعشى — ج ٨ — ص ١٢٣ .

(٣) ذكر القلقشندى قبل ذلك بأسطر قليلة أن اسمه «ميكائيل» وان اسم رسوله « نقولا » ، ولعل هذا سهو منه . أنظر صبح الأعشى — ج ٨ ص ١٢٣ ح ١ .

الإسلامية كلها : وينهى ما عنده من الشوق والمحبة لمولانا السلطان، وأنه لم تزل أكابر التجار والمحتشمين (١) والمترددين من الفرنج إلى الممالك الإسلامية شاكرين من عدل مولانا السلطان وعلو مجده ، وتزايد الدعاء ببقاء دولته ، وقد رغب التجار بالترداد إلى مملكته الشريفة بواسطة ذلك ، ولأجل الصلح المتصل بيننا والمحبة .

وأما غير ذلك ، فإنه بلغنا ما اتفق فى العام الماضى من حبس العمر (٢) فى ثغر دمياط المحروس ، وأن مولانا السلطان مسك قنصل البنادقة والمحتشمين من التجار بثغر الاسكندرية المحروس، وزنجرهم (٣) بالحديد ، وأحضرهم إلى القاهرة ، وحصلت لهم البهدلة بين حبوسهم والضرر والقهر الزائد ، وكسر حرمتنا بين أهل طائفتنا ، فإن الذى فعل مع المذكورين إنما فعل معنا ، وتعجبنا من ذلك : لأن طائفتنا لم يكن لهم ذنب، وهذا مع كثرة عدل مولانا السلطان فى مملكته ، ومحبتنا له ، ومناداتنا فى جميع مملكتنا بكثرة عدله، وبمحبته لطائفتنا ، وإقباله عليهم ، وقولنا لجميع نوابنا : إنهم يكرمون من يجدونه من مملكة مولانا السلطان ويراعونه ويحسنون إليه، والمسئول من إحسانه الوصية بالقنصل والتجار وغيرهم من البنادقة ، ومراعاتهم وإكرامهم والإقبال عليهم ، والنظر فى أمورهم إذا حصل ما يشبه هذا الأمر ومنع من يشا كلهم لتحصل بذلك الطمأنينة للتجار، ويترددوا إلى مملكته (٤) » .

ويدل هذا على تردد تجار البنادقة على ثغرى الاسكندرية ودمياط ، وهم

---

(١) المقصود أكابر تجار البنادقة . والمحتشمون جمع محتشم وهو من ألقاب التجار الفرنج . وسنعرض لذلك بالتفصيل فى ختام البحث .

(٢) كذا وردت فى « صبح الأعشى » بدون نقط ، ولم يتسن تفسيرها .

(٣) أى قيدهم بالحديد .

(٤) صبح الأعشى – جـ ٨ – ص ١٢٣ – ١٢٤ .

ينعمون برعاية الدولة وحمايتها ، بعد أن لفظت الفكرة الصليبية آخر أنفاسها . وكان من الطبيعى أن تثور بعض المشكلات والخلافات بين الجانبين البندقى والمصرى نتيجـــة حركة التعامل المتصلة بينهما . وكان يتم — عادة — تسويتها عن طريق الرسل والسفراء وتبادل المكاتبات (١) .

لم يكتف القلقشندى بإبراز طبيعة العلاقات بين مصر والبندقية فى العصرين الأيوبى والمملوكى ، بل أوضح أيضاً أن مصر كانت تكاتب صاحب البندقية كلما دعت الضرورة إلى ذلك(٢) . وأورد فى وثائقه رسم المكاتبة إليه حسبما هو متعارف عليه بديوان الإنشاء بمصر . إذ ذكر أنه كُتب إليه جواب رداً على مكاتبة منه بتاريخ رجب ٧٦٧ هـ (١٣٦٦ م) ، جاء فى مطلعه :

« وردت مكاتبة حضرة الدوج ، الجليل ، المكرم ، الخطير ، الباســـل ، الموقر ، المفخم . . . . فخر الملة المسيحية ، جمال

---

(١) يمدنا « صبح الأعشى » بمعلومات هامة قيمة فيما يتعلق بالكتب الواردة من ملوك الفرنج وكبار أهل الغرب الى مصر • يقول القلقشندى : ان الفرنج لم يراعوا بصفة عامة الفصاحة والبلاغة فى مكاتباتهم ، وانه كان من عادتهم التعظيم فى تلك المكاتبات (جـ ٦ ـ القاهرة ١٩١٥ ـ ص ٢٩٩ و ٣٠١) • كذلك يتحدث عن طريقة طى الكتاب عندهم (جـ ٦ ـ ص ٣٥٢) ، ومقادير قطع الورق ونوعه ببلادهم (جـ ٦ ـ ص ١٩٣ وجـ ٨ ـ ص ٦٥) ، والرسل الواردة بالمكاتبات ، وما يتبع عند وصول رسول من قبل أحد ملوكهم أو حكامهم الى مصر يحمل رسالة أو ردا على مكاتبة (جـ ٣ ـ ص ٤٩٠ وجـ ٤ ـ ص ٥٨ ـ ٥٩) • وأشار أيضا الى الاجراءات التى تتبع بشأن الكتب التى ترد الى مصر بخط مخالف للخط العربى كاللسان الفرنجى • فكان يتولى ترجمتها الى العربية من يوثق بهم من أخصاء الدولة ممن يعرف ذلك اللسان ، ثم تقرأ الترجمة على السلطان ويعتمد ما يأمر به فى جوابه ليكتب به (جـ ٦ ـ ص ٢١٣ و ٢١٦) • ولهذا السبب أشار صاحب « صبح الأعشى » الى اهمية معرفة الكاتب بديوان الانشاء بمصر باللغات الأعجمية ، وهى لغة الكتب التى ترد علىه لملكه من الخارج ، وذلك حتى يفهمها ويجيب عنها من غير اطلاع ترجمان عليها ان أمكن ذلك حفظا لسر ملكه وسلامة بلده • ويقول القلقشندى : ان اللغة الفرنجية تعتبر من اللغات العجمية التى لها قلم يخصها وتكتب به ، وان كتب الفرنج كانت ترد بخطهم ولغتهم (جـ ٣ ـ ص ١٦٥ ـ ١٦٧) • ومن الواضح أن كتاب ميخائيل دوج البندقية المشار اليه اعلاه قد ورد الى الأبواب السلطانية بمصر باللسان الفرنجى ، وقد قام بنقله الى العربية اثنان من التراجمة بديوان الانشاء وقتذاك •

(٢) جدير بالذكر أن القلقشندى لم يحتفظ ضمن وثائقه بأية مكاتبة صادرة من ديوان الانشاء بمصر الى دوج البندقية على الرغم من اشاراته المتكررة الى تواتر المكاتبات بين الطرفين •

الطائفة الصليبية ، دوج البندقية : : : : صديق الملوك والسلاطين » .

وكان رسم المكاتبة إليه فى جواب آخر بعث به إليه رداً على مكاتبة وردت منه ، هو :

« وردت مطالعة الدوك الجليل، المكرم المبجل، الموقر، البطل، الهمام ، الضرغام ، الغضنفر ، الخطير ، مجد الملة النصرانية، فخر الأمة العيسوية ، عماد بنى المعمودية ، معز بابا رومية ، صديق الملوك والسلاطين ، دوك البنادقة (١) » .

ولعلنا نستدل من هـــذه الألقاب التى كان يخاطب بها صاحب البندقية عن الأبواب الشريفة بمصر ، مدى ما كان يتمتع به من مركز ممتاز ومكانة بارزة وشهرة واسعة . ويكشف عن كل ذلك الدور الهائل الذى لعبته البندقية بالنسبة لتجارة شرق البحر المتوسط . ويكفى أن نعرف أن من الدنانير التى كانت مصر تتعامل بها عادة ما يعرف باسم « الدوكات » ، « وهذا الاسم لايطلق فى الحقيقة عليها إلا إذا كان ضرب البندقية »(٢) ويدل هذا فى الوقت نفسه على جودة دنانيرها التى سميت بـــ « الدوكات » نسبة إلى « الدوك » أو « الدوج » (٣) .

لقد غدت البندقية إحـــدى دول العالم العظمى فى العصور الوسطى ،

---

(١) صبح الأعشى ـ جـ ٨ ـ ص ٤٧ • وللمزيد من التفصيل أنظر الجزء نفسه ـ ص ٤٨ وجـ ٦ ـ ص ١٧٨ و ١٧٩ • وجدير بالتنويه أن القلقشندى اكتفى هنا بالاشارة الى ألقاب دوج البندقية دون اثبات نص الرد الذى بعث به اليه سلطان مصر ، وهو فى ذلك الحين الملك الأشرف شعبان حفيد الملك الناصر محمد • وليس من السهل تفسير سبب عدم ايراد القلقشندى فى كتابه المكاتبات الصادرة عن ديوان الانشاء بمصر الى صاحب البندقية سواء كانت ردا على رسائل بعث بها الدوج البندقى الى سلطان مصر أم رسائل صادرة من مصر الى الدوج فى انتظار رد منه عليها ، خاصة وان صاحب « صبح الأعشى » قد عاصر فترة ازدهار العلاقات بين الدولتين وعمل فترة غير قصيرة من الزمن بديوان الانشاء الأمر الذى كان يسمح له باثبات تلك المكاتبات •

(٢) صبح الأعشى ـ جـ ٣ ـ ص ٤٣٧ • وتعرف هذه الدنانير أيضا باسم « البندقى » أنظر ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية ـ ص ٦٥ •

(٣) صبح الأعشى ـ نفس الجزء والصفحة •

وفرضت عليها ظروفها وموقعها أن تبذل أقصى عنايتها لتقدم تجارتها ؛ وجعل هذا من سكانها أمة عظيمة فى البحار فى وقت كانت لاتزال فيه بعض أمم الغرب غارقة فى عصر الإقطاع . وإذا كانت البندقية تعتبر من أعظم دول البحر المتوسط للدور الكبير الذى قامت به ؛ فقد كان لمصر ، وهى الأخرى من بلاد هذا البحر ، فى ميدان التجارة العالميـــة فى العصر الوسيط المتأخر أهمية لا يمكن بحال التقليل من شأنها ، على الأقل قبل أن يكتشف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح فى أخريات القرن الخامس عشر . وأدرك البنادقة منذ أمد بعيد الربح الذى يجنونه من وراء التعامل مع مصر ، فعملوا جاهدين على عقد الصلات مع السلطات الحاكمة فيها(١) .

* * *

وإذا كنا قد تحدثنا عن علاقات مصر بالبندقية فى ضوء وثائق « صبح الأعشى » ، فلم يكن دور كل من جنوة وبيزة يقل عنها أهمية فى ميدان التجارة البحرية والمغامرات الصليبية . وإذا كانت وثائق « صبح الأعشى » غنية بالمادة التى تكشف عن توطد مركز البندقية فى مصر ، فإن المادة التى أمدتنا بها تلك الوثائق فيما يتعلق بكل من جنوة وبيزة كانت أقل من البندقية . ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى أن البندقيـــة كانت تعتبر بالفعل أكبر قوة بحرية فى عصر التوســع الصليبى ، وبخاصة فى حوض البحر المتوسط ، مما أكسبها هذا الوضع المتميز الذى انفردت به عن زميلتيها فيما يتعلق بعلاقاتها مع مصر . ولو أن هذا لا يقلل بحال من الدور الذى قامت به كل من جنوة وبيزة .

لقد كان لكل من جنوة وبيزة علاقات قوية مع مصر قبيل قيام الحركة الصليبية ، وحصلتا من « الفواطم » خلال القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) على امتيازات تجارية كبيرة . وساعدهما على ذلك موقعهما

---

(١) للمزيد من المعلومات عن العلاقات التجارية بين مصر والبندقية فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، واتجار البنادقة مع المصريين رغم تهديدات الكنيسة اللاتينية فى هذا الشأن ، أنظر ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية (الترجمة العربية) ص ٥٨ – ٦١ .

الجغرافى باعتبارهما من موانى البحر المتوسط ، وهمزة الوصل بين الشرق والغرب .

وتعرف جنوة فى وثائق القلقشندى باسم « بلاد جنوة »(١) و« مملكة الجنويين » ، معتبراً إياها من ممالك الفرنج الكبار (٢) . وقاعدتها مدينة جنوة الواقعة على خليج كبير . ويسمى سكانها « الجنويون » و« الجنوية » . وهم طائفة مشهورة من الفرنج (٣) . أما بيزة فيعرفها القلقشندى فى وثائقه بأنها « بلاد البيازنة » (٤) و« بلاد بيزة » (٥) ويعتبرها من ممالك الفرنج الصغار ، ومركزها بيزة التى هى مرسى جيد وتقع غربى رومية . وسكانها ينسبون إليها ، فيعرفون باسم « البيازنة » (٦) أو « البياشنة »(٧) وهم أيضاً فرقه من الفرنج ، وليس لهم ملك ، وإنما مرجعهم إلى بابا روما (٨) .

ذكرنا أنه قامت علاقات تجارية طيبة بين كل من جنوة وبيزة من ناحية وبين مصر الفاطمية من ناحية أخرى قبل الحركة الصليبية . ففى سنة ١٠٦٣ م عقد مندوب من قبل جنوة معاهدة تجارية مع الفاطميين . وكان كثير من تجارها يفدون إلى ثغر الاسكندرية لاستيراد السلع والبضائع التى كان الغرب فى حاجة إليها . كما كان رعاياها بصفه عامة موضع حماية الدولة ورعايتها . كذلك حرصت بيزة حرصاً شديداً على أن تظل علاقاتها مع الخلفاء الفاطميين ودية . فقد أوفدت فى أواسط القرن السادس الهجرى (أواسط القرن الثانى عشر الميلادى) ، بعد مضى نصف قرن على قيام الحركة الصليبية ، سفيراً من قبلها إلى بلاط

(١) صبح الأعشى ـ ج ٣ ـ ص ٢٣٥ ويتحدث القلقشندى بايجاز عن موقع جنوة وأطوالها ومنتجاتها وأهلها . أنظر ج ٥ ـ ص ٤٠٥ ـ ٤٠٦ و ٤١١ .
(٢) صبح الأعشى ـ ج ٥ ـ ص ٤٠٥ .
(٣) صبح الأعشى ـ ج ٥ ـ ص ٤٠٥ و ج ١٣ ـ ص ٨٥ و ٨٨ .
(٤) صبح الأعشى ـ ج ٥ ـ ص ٤١١ .
(٥) صبح الأعشى ـ ج ٣ ـ ص ٢٣٤ .
(٦) صبح الاعشى ـ ج ٥ ـ ص ٤١١ وج ٣ ـ ص ٢٣٤ .
(٧) صبح الأعشى ـ ج ١٣ ـ ص ٨٨ .
(٨) صبح الأعشى ـ ج ٥ ـ ص ٤١١ .

الخليفة الفاطمى الظافر بالله (١) للعمل على تسوية بعض المشكلات الناجمة عن تعرض بعض تجارها لفريق من التجار المصريين بالسلب والنهب . وعاقبت الحكومة الفاطمية التجار البيازنة المقيمين بمصر بالسجن . وهذه الواقعة قريبة الشبه لما حدث لقنصل البندقية وتجارها بمصر فى حادثة مماثلة فى عهد السلطان المملوكى الناصر فرج فى بدايات القرن الخامس عشر . ولقد نجح سفير بيزة فى الوصول إلى تسوية مرضية مع الحكومة الفاطمية ، تعهدت فيها بيزة بالاقتصاص من المعتدين ومعاقبتهم والامتناع عن تقديم أى مساعدة للصليبيين فى الشام أو لغيرهم من أعداء مصر ، بينما تعهدت الحكومة الفاطمية من جانبها بإطلاق سراح رعايا مدينة بيزة الذين اعتقلتهم ، وحماية الحجاج والتجار والبيازنة الذين يسافرون فى سفن غير حربية(٢) .

لقد اتخذت كل من جنوة وبيزة فى علاقاتها بمصر قبل الحركة الصليبية ، موقفا يتفق ومصالحهما الخاصة ، شأنهما فى ذلك شأن البندقية . وجاء اشتراكهما فى الحملات الصليبية أو انصرافهما عنها نتيجة طبيعية لما تمليه عليهما تلك المصالح (٣) .

وبانتهاء الخلافة الفاطمية وبداية دولة الأيوبيين بمصر فى عام ٥٦٧هـ (١١٧١ م) – أى بعد بداية الحركة الصليبية بحوالى ثلاثة أرباع القرن – نجد أن الجنوية والبيازنة يتخذون سياسة ذات وجهين متباينين : أحدهما يقتضى منهما مساعدة الصليبيين ضد المصريين وغيرهم من مسلمى الشرق الأدنى باعتبارهم مسيحيين مثلهم ، فضلا عن الامتيازات العديدة التى

---

(١) حكم الظافر بالله من سنة ٥٤٤ الى سنة ٥٤٨ هـ (١١٤٩ – ١١٥٣ م) .

(٢) أنظر عن ذلك Heyd, op. cit., I, 391 ff. ; Lane-Poole, op. cit., 182. راجع أيضا محمد جمال الدين سرور : مصر فى عصر الدولة الفاطمية (القاهرة ١٩٦٠) ص ١٧٣ – ١٧٥ .

(٣) نعرف انه فى عام ١٠٩٧ م – أى أثناء الحملة الصليبية الأولى – قام أسطول جنوى بنقل الصليبيين الغربيين هم ومؤنهم وامداداتهم عبر البحر الى انطاكية . وبعد ذلك بعامين أرسلت بيزة سفنها بناء على أوامر من البابا الرومانى للاستيلاء على بيت المقدس . ومنذ ذلك الحين فصاعدا انفتح شرقى البحر الأبيض المتوسط للصليبيين الغربيين وعلى رأسهم الايطاليين . انظر : Pirenne, Med. Cities, 64.

يحصلون عليها من وراء نقل المغامرين الغربيين بسفنهم وأساطيلهم . أما الوجه الثانى فيستلزم منهما الحرص قدر الاستطاعة على الإبقاء على العلاقات الطيبة مع مصر التى كانت قائمة من قبل حتى لاتضار مصالحهم الاقتصادية فيها . وكانت هـذه السياسة المزدوجة مصدر متاعب لمؤسس الأسرة الأيوبية ، فى وقت كان يستعد فيه لتوحيد القوى فى المنطقة توطئة لتوجيه ضربة حاسمة إلى الصليبين فى الشام (١) .

ويتضح ذلك من التذكرة التى أرسلها صلاح الدين إلى الخليفة العباسى فى بغداد بعد أن أستتب له الأمر بمصر (٢) : فقد تضمنت إشارة واضحة إلى مساعدة هاتين الجاليتين للصليبيين ضد المسلمين فى مصر والشام : والوسائل التى كانوا يلجأون إليها للإضرار بالإسلام : كما تكشف عن السياسة المزدوجة التى اتبعوها حيـال مصر ، والتى لم تكن تستهدف سوى مصلحتهم الخاصة التى كانت أسمى من أى شىء .

أشار صلاح الدين فى تذكرته إلى المستضىء بالله إلى مضـايقات الجنويين بخاصة ؛ والفرنج والروم بعامة :

« ونحن نقاتل العدوين(٣) : الباطن والظاهر ، ونصابر الضدين : المنافق و الكافر ، حتى أتى الله بأمره ، وأيدنا بنصره ، وخابت المطامع من المصريين ومن الفرنج ومن ملك الروم ومن الجنويين وأجناس الروم ، لأن أنفارهم تنافرت ، ونصاراهم تناصرت ، وأناجيل طواغيتهم(٤) رفعت ، وصلب صلبوتهم أخرجت(٥) .

---

(١) انظر صبح الأعشى ـ ج ١٣ ـ ص ٨٨ .

(٢) أشرنا الى هذه التذكرة عند التعرض للعلاقات بين صلاح الدين والبنادقة .

(٣) المقصود العاضد آخر خلفاء الفاطميين بمصر (٥٥٦ ـ ٥٦٧ هـ) والفرنج بالشام .

(٤) طواغيت وطواغ جمع طاغوت ومعناه كل معتد متعد ، ومعناه أيضـا الشيطان والصارف عن طريق الخير ، والمقصود هنا الفرنج الدخلاء .

(٥) صبح الأعشى ـ ج ١٣ ـ ص ٨٥ .

وهذا النص على جانب كبير من الأهمية ، ويجمل بنا التوقف عنده لتحليله والتعرف على دلالته ومغزاه . وهو يشير باختصار إلى الفترة التى أحاطت بانحلال السلطة التنفيذية الحاكمة فى مصر منذ أوائل حكم العاضد آخر خلفاء الفاطميين ، فى الوقت الذى ازدادت فيه أطماع وزير هذا الخليفة المسمى شاور فى الاستيلاء على الحكم ، واتفاقه مع نور الدين محمود سلطان حلب والشام لتحقيق حلمه هذا . فى تلك الفترة كان كل من نور الدين والفرنج بالشام واقفين لبعضهما بالمرصاد ،وقد اتجهت أطماع الفرنج للاستيلاء على مصر مستغلين ضعف الدولة الفاطمية . وكان كل منهما يعلم تمام العلم أن نجاحه على خصمه مرهون بنجاحه فى أمر واحد هو الظفر بمصر . (١) وانتهى الأمر بعد وقائع ودسائس وحروب إلى تولى أسد الدين شيركوه عامل السلطان نور الدين وزارة مصر سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٩ م) . ولكن شيركوه مات فى جمادى الثانية من تلك السنة (مارس ١١٦٩ م) ، فخلفه فى الوزارة ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب ولقب بالملك الناصر ، لأن العادة أن الوزير أصبح يسمى ملكا قبل ذلك بسنوات عديدة ، فى وقت ازدادت فيه سلطة الوزراء وأصبح الخلفاء الفواطم ألعوبة فى أيديهم . وإجابة لرغبة نور الدين قطع صلاح الدين الخطبة عن الخليفة الفاطمى العاضد بالله ، ونودى بها للخليفة العباسى . ولم يلبث أن مات العاضد فى محرم ٥٦٧ هـ (سبتمبر ١١٧١ م) ، وانتهى بموته حكم الدولة الفاطمية بمصر ، وبدأت دولة جديدة فى الحكم هى دولة الأيوبيين نسبة إلى مؤسسها صلاح الدين الأيوبى . (٢)

---

(١) أنظر عن ذلك ابن شداد : سيرة صلاح الدين ـ ص ٢٩ ـ ٣٠ ، ابن الأثير : الكامل فى التاريخ (مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية ـ المؤرخون الشرقيون) ـ جـ ١ ـ ص ٥٣٥ و ٥٤٧ ، أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية ـ جـ ١ (القاهرة ١٢٨٧ هـ) ص ١٣١ . راجع أيضا :
Stevenson, W.B., The Crusaders in the East (Cambridge, 1907), 187 ; Lane-Poole, St., The Story of Cairo (London, 1924), 164-7.

(٢) أنظر ابن الأثير : الكامل فى التاريخ (مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية ـ المؤرخون الشرقيون) جـ ١ ـ ص ٥٧٨ ومايليها .

ولكن الجو لم يخل تماما لصلاح الدين ، إذ قامت مؤامرات داخلية فى مصر من أجل إحياء الدولة الفاطمية والقضاء على الوزير الجديد . وكان من تدبير المتآمرين الاستنجاد بالفرنج فى الشام لغزو مصر ، فإذا ما خرج صلاح الدين لصدهم ، هاجمه المتآمرون من مؤخرته ، وبذلك يسهل القضاء عليه . وكان من الطبيعى أن يرحب الفرنج بهذه الدعوة التى وجدوا فيها فرصة طيبة لتحقيق أطماعهم التى أخفقوا فيها من قبل . وقد تمثل هذا فى ثورة مؤتمن الخلافة(١) سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٩ م) حيث قدم الفرنج لمساعدة الثائرين فهاجموا دمياط فى صفر ٥٦٥ هـ (اكتوبر — نوفمبر ١١٦٩ م) (٢) وثورة عمارة اليمنى (٣) سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤ م) التى أعقبها هجوم الفرنج على الاسكندرية فى ذى الحجة ٥٦٩ هـ (يوليو ١١٧٤ م) (٤) ولكن صلاح الدين تمكن من القضاء على المؤامرتين وصد غزوتى الفرنج على كل من دمياط والإسكندرية ، والتى أسهم فيهما الجنوية بنصيب ملموس .

نستنتج من العرض السابق للتاريخ السياسى لمنطقة الشرق الأدنى إبان تلك الحقبة من الزمن أن الصراع كان عنيفاً بين القوتين المتنازعتين : الفرنج بالشام ، والقوى الإسلامية الفتية الناهضة بمصر

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ (مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية) جـ ١ — ص ٥٦٦ — ٥٦٧ ، ابن العماد : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب — جـ ٤ (القاهرة ١٣٥٠ هـ) ص ٢١٤ . انظر أيضا :
Casanova, P., «Les Derniers Fâtimides,» Mémoires de la Mission Archéologique Française du Caire (Paris, 1893), t. VI, 3e fasc., 430 f.

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين — ص ٣٣ — ٣٤ ، السيوطى : حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة — جـ ٢ (القاهرة ١٣٢٧ هـ) ص ١٨ — ١٩ ، ابو الفداء : المختصر فى أخبار البشر — جـ ٣ (آستانة ١٢٨٦ هـ) ص ٥١ .

(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ (مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية) جـ ١ — ص ٥٩٩ — ٦٠١ ، المقريزى : المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار — جـ ١ (القاهرة ١٢٧٠ هـ) ص ٥٣ ، أبو الفداء : المختصر — جـ ٣ — ص ٥٧ . راجع أيضا :
Casanova, op. cit., 422, 432.

(٤) ابن شداد : سيرة صلاح الدين — ص ٣٨ ، ابن الأثير : الكامل فى التاريخ (مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية) جـ ١ — ص ٦١١ — ٦١٤ .

وأن ميزان القوى بدأ يتغير لصالح المسلمين . ونستنتج أيضا أن العدوين اللذين أشار إليهما صلاح الدين فى كتابه إلى خليفة العباسيين هما : افرنج الشام وبقايا الفاطميين بمصر . ويوضح الكتاب أن الجنويين والبيازنة قد ساعدوا الفرنج فى غزوتيهم على مصر ، ولكن صلاح الدين ألحق بهم الهزيمة ، ولم يمكنهم من بغيتهم (١)

لقد وجدت جنوة أن مصلحتها وقتذاك فى مساعدة الصليبيين بالشام ضد صلاح الدين بعد أن تذوقت طعم المكاسب التى جنتها من وراء اشتغالها بالتجارة مع مصر فى عهد الفواطم قبل قيام الحركة الصليبية وبعد أن أحست أن تغير نظام الحكم فى مصر سوف يضر بمصالحها الاقتصادية .

وامتدادا لتلك السياسة نجد أنها توافق فى أواسط القرن السابع الهجرى (أواسط القرن الثالث عشر الميلادى) على تأجير عدد من السفن إلى الملك الفرنسى لويس التاسع ليتسنى له نقل الجند والعتاد والمهمات عبر البحر إلى مصر حتى يضمن لحملته الصليبية النجاح . وعقدت معه اتفاقية بهذا الشأن . (٢) ويكشف موقفها عن تدخل المصالح المادية فى الحركة الصليبية : ونجد مثلا حيا لذلك فى موقف البحارة الجنوية والبيازنة الذى اشتركوا فى نقل جيش لويس التاسع إلى مصر ، وكان قد تركهم فى مدينة دمياط بعد استيلائه عليها لحراستها عندما توجه هو وقواته جنوبا صوب العاصمة المصرية بهدف غزوها : إذ يذكر جوانفيل ، مؤرخ سيرة لويس التاسع ، أنه غلبت على أولئك البحارة الإيطاليين الصفة التجارية التى عرفوا بها . ورأوا ألا يعرضوا أنفسهم للخطر ولغضبة المصريين عليهم ،

---

(١) أشار القلقشندى فى تذكرته الى موقف الجنوية والبيازنة أكثر من مرة . انظر صبح الأعشى ــ جـ ١٣ ــ ص ٨٥ و ٨٨ .

(٢) Heyd, op. cit., I, 409 & n. 3. وقد استصدر الملك الفرنسى فى أكتوبر ١٢٤٦م مرسوما يتعلق باستئجار ست عشرة سفينة جنوية ما بين كبيرة وصغيرة من أجل الحملة على مصر . أنظر :

S. Louis nolisé seize navires génois pour sa première croisade, ed. Les Archives de l'Orient Latin, II (Paris, 1884), 232-6.

عندما علموا بوقوع ملك الفرنسيين ورجاله فى الأسر . ولذلك قرروا فيما بينهم ترك دمياط والنجاة بأنفسهم حتى لا يلحق بهم ما لحق بالملك الأسير : ولم يهمهم فى شىء مصير الحملة وقائدها ورجالها . ويذكر جوانفيل أن أولئك القوم لم يعدلوا عن رأيهم الا بعد أن أغرتهم الملكة مارجريت زوجة لويس التاسع بالمال وأدخلتهم تحت نفقة الملك الخاصة . (١)

لقد كانت حرفة الجاليات التجارية الإيطالية هى التجارة : وهمها الأول والأخير هو الربح والكسب المادى . وكان هذا من بين الأسباب التى أدت إلى قيام الصراع بينهما فى المعاقل اللاتينية فى الساحل الشامى . وكثيرا ماتطور هذا الصراع إلى حروب مكشوفة ذهب ضحيتها الكثيرون . ونجد مثالا لذلك فى الحرب التى نشبت فى مارس سنة ١٢٤٩ م بين الجنوية والبيازنة فى شوارع مدينة عكا ، وكانت وقتها من معاقل اللاتين ، وقد استخدمت فيها مختلف آلات الحصار والقتال . وفيها رجحت كفة البيازنة على الجنوية الذين قتل أحد قناصلهم . وانتهى الأمر بعقد هدنة بين الفريقين لمدة ثلاث سنوات ، وتعتبر هذه الحرب طوراً من أطوار الصراع المستمر بين الجنوية والبيازنة فى عكا وغيرها من مدن الساحل الشامى الخاضعة للحكم الصليبى . وكانت تقوم فى الغالب لأسباب تتعلق بالمسائل التجارية ، كما كانت من العوامل التى أضعفت قوى الفرنج فى الجيوب المبعثرة المتبقية لهم على امتداد الساحل ، والتى كانوا يتحصنون بداخلها ضد هجمات المصريين ، إلى درجة أنه لم يكن بوسعهم الصمود فى وجه تلك الهجمات أو حتى مجرد الدفاع عن أنفسهم ومعاقلهم . (٢)

---

(١) Joinville, J. de, Histoire de Saint Louis, ed. M. Natalis de Wailly (Paris, 1874), 218.

ومن حسن حظ المكتبة العربية أن قام الدكتور حسن حبشى بترجمة مؤلف جوانفيل ترجمة دقيقة بعد أن زودها بالهوامش المفيدة ومهد لها بدراسة علمية قيمة . انظر جوانفيل : القديس لويس « حياته وحملاته على مصر والشام » - ترجمة وتعليق الدكتور حسن حبشى (القاهرة ١٩٦٨) ص ١٨٢ - ١٨٣ .

(٢) Heyd, op. cit., I, 343-4; Grousset, Croisades, III, 433, 436-7.

وفى تلك الأثناء كان ميزان القوى قد اعتدل نهائياً لصالح مصر والمسلمين فى الشرق الأدنى ، وأصبح مركز الثقل يميل بقوة إلى جانبهم بعد أن اتفقت كلمتهم وتوحدت جبهتهم . وأصبح الفرنج بالشام فى موقف الدفاع عن كيانهم بوجه عام . وأخذوا يتلقون الضربات تباعاً من خلفاء صلاح الدين من الأيوبيين ، ومن بعدهم المماليك بمصر ، إلى أن تم طردهم نهائياً من الساحل الشامى سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م) ؛ فى عهد السلطان الأشرف خليل .

ومع ذلك لم يأمن المصريون جانب تلك الجاليات التجارية الإيطالية، وكانت تجاربهم السابقة معها تؤكد شكوكهم فى صدق نواياها ومقاصدها . فهم يعلمون جيداً أن التجار الإيطاليين قوم جشعون محبون للمال الذى امتلأت به خزائنهم عن طريق التجارة مع الموانئ المصرية الواقعة على البحر الأبيض . وكانوا يدركون أنهم سوف يعيدون الكرة إذا واتتهم الفرصة ، حتى يتسنى لهم فتح تلك الأبواب التى أغلقت فى وجوههم . وكان سقوط عكا قد وقع فوق رءوس أهل الغرب وقع الصاعقة ، وأخذوا يعدون العدة لعدوان جديد .

كان الأشرف خليل سلطان مصر يدرك ذلك تمام الإدراك حتى إنه بعد حوالى عام من استرداده مدينة عكا عقد هدنة مع صديقه صاحب أرغونة الفرنجى . (١) وجاء فى أحد شروط الهدنة أن على صاحب أرغونة مصادقة أصدقاء الملك الأشرف خليل ومعاداة أعدائه : وطلب منه استخدام نفوذه فى الغرب ليبعد عن مصر والشام الخطر الذى يتهددهما من قبل الفرنج بصفة عامة والجنوية بصفة خاصة . بمعنى أنه إذا حاول الجنوية أو غيرهم من الفرنج من أعداء الإسلام إلحاق الضرر والأذى بمصر والشام ، فعلى صاحب أرغونة منعهم من ذلك؛ ولو استلزم الأمر التوجه إليهم بسفنه ورجاله لقتالهم حتى يشغلهم عن تنفيذ هدفهم . (٢)

---

(١) تعرضنا لهذه الهدنة بشىء من التفصيل عند الحديث عن العلاقات بين مصر والبندقية فى عهد الأشرف خليل . انظر ما سبق ص ١٠ - ١١ من هذا البحث .

(٢) انظر صبح الأعشى - جـ ١٤ - ص ٦٦ .

كانت الشكوك إذن تساور السلطات الحاكمة فى مصر فى أخريات القرن الثالث عشر من نوايا أولئك القوم . ولكن بعد أن أخذت الفكرة الصليبية فى التقلص والزوال أخذت العلاقات بين جنوة ومصر فى التحسن والإزدهار . وقد حفظ لنا صاحب « صبح الأعشى » نسخة كتاب ورد إلى مصر فى صفر ٨١٤ هـ (١٤١١ م) فى عهد الملك الناصر فرج من القبطان الجنوى بميناء الماغوصة . (١) بقبرص وكان بجنوة وقتها مقدم للشوانى فى تلك الجزيرة . (٢)

ولأهمية هذا الكتاب يحسن تناوله بشىء من التحليل والتعريف ، مع بيان الظروف التى لابسته . يفتتح الراسل مكاتبته ــ حسب عادة الفرنج فى مكاتبتهم ــ بذكر اسم السلطان المصرى وألقابه . ثم يبدأ بتقبيل الأرض تعظيما للسلطان المكتوب إليه ، فالدعاء له بطول البقاء . وقد راعى الكاتب فى تعظيم المكتوب إليه أن عدل فى خطابه عن ضمير خطاب المواجهة إلى معنى الغيبة . بمعنى إجراء المخاطبة فى المكاتبة على معنى الغيبة . ولا أن يكون الخطاب فيها خطاب المواجهة . وذاك باعتبار أن المرسل إليه أعظم شأناً وأرفع قدراً من المرسل : وأتى الكاتب بعد ذلك بالإنهاء ، أى بمحتوى الخطاب ومضمونه والمقصود منه . ثم اختتم الكتاب بالدعاء باقتضاء العدل والإنصاف من السلطان مع دوام البقاء .

يتحدث قبطان الماغوصة الجنوى والمستشارون بها فى كتابهم الموجه إلى

---

(١) الماغوصة : ميناء بقبرص وقد وردت بهذا الاسم فى المصادر الرعبية ، وتعرف فى المراجع الأجنبية باسم فماجوستة . وقد كان لصاحب جنوة مقدم على الشوانى فى هذا الميناء ، وكان رسم المكاتبة اليه عن ديوان الانشاء بمصر هو « وردت مكاتبة المحتشم ، الجليل ، المبجل ، الموقر ، الأسد ، الباسل ، فلان ، مجد الملة المسيحية ، كبير الطائفة الصليبية ، غرس الملوك والسلاطين » ويلى ذلك الدعاء ، أما تعريفه فهو « مقدم الشوانى الجنوية بقبرص » أنظر صبح الأعشى ــ جـ ٨ ــ ص ٤٧ . ويلاحظ أن القلقشندى لم يحتفظ لنا ضمن وثائقه التى أثبتها فى « صبح الأعشى » بنسخة الكتاب الصادر من مصر الى قبرص ردا على رسالة القبطان المذكور . كما لم نعثر فى وثائق « صبح الأعشى » على أية مكاتبة صادرة من مصر الى « مقدم الشوانى الجنوية بقبرص » .

(٢) هى المكاتبة الوحيدة بين جنوة ومصر التى حفظها لنا القلقشندى . وقد قام بنقلها الى العربية شمس الدين سنقر وسيف الدين سودون الترجمانان بديوان الانشاء بمصر وقتذاك . أونظر « صبح الأعشى » ــ جـ ٨ ــ ص ١٢٤ .

الملك الناصر فرج عن علاقات المودة والسلم القائمة بين مصر وجنوة ، واهتمام جنوة بحماية مسلمى مصر والموانى الإسلامية من قراصنة البحر ، وينهون بالتماس رعاية التجار الجنوية ، والعمل على كف أسباب الضرر والأذى عنهم .

وفيما يلى نص الكتاب :

« الملك المعظم ، ملك الملوك ، صاحب مصر المحروسة ، الملك الناصر ، عظم الله شأنه » .

يقبل الأرض بين أياديه الكبطان والمستشارون ، وينهون أنهم آناء الليــل ، داعون بطول بقائه ، مجتهدون فى استمرار الصلح والمودة التى لايشوبها كدر بين القومون (١) وبين مولانا السلطان ، وأن فى هذا الوقت ثم حرامية غراب (٢) يتحومون (٣) بأطراف هذه البلاد ، والمين(٤) الإسلامية ، ونحن لم نزل نشحطهم (٥) بالمراكب الأغربة (٦) ، ونمنعهم من ذلك جهدنا وقدرتنا ، حتى إن أحداً صار لايجسر على الدخول إلى ميناء الماغوصة جملة كافية ، مع أننا كنا خلصناً فى المدة الماضية من الحرامية المذكورين خمسة وعشرين نفراً من المسلمين ، وأكرمناهم وأطلقنا سبيلهم (وعزمنا أن) (٧) نجهزهم إلى دمياط أو إلى ثغر الأسكندرية .

---

(١) القومون أو الكميون . أنظر عن ذلك Pirenne, Med. Cities, 127-30, 143-5.

(٢) أى غرباء أو أجانب .

(٣) فى الأصل يتحرمون ولعلها يتحومون أى يدورون حول .

(٤) المين والموانى جمع المينا والميناء ، وهو كل مرسى للسفن .

(٥) أى نطاردهم .

(٦) الأغربة أو الغربان جمع غراب ، وهى من أقدم أنواع السفن الحربية ، اذ كانت معروفة عند قرطاجنة والرومان وغيرهم ، ولم تزل معروفة حتى أيام الدولة العثمانية . والغالب كما يتضح من تسميتها انها كانت على شكل الغراب . انظر ابن مماتى : قوانين الدواوين — ص ٣٤٠ .

(٧) كذا أوردها المحقق فى المتن ، وأوضح فى الحاشية أنها فى الأصل « وعقيبها نجهزهم » انظر صبح لأعشى — جـ ٨ — ص ١٢٥ ح١ .

وأما غير ذلك ، فقد بلغنا أن برطلما أوسق (١) للمواقف الشريفة صابونا فى مراكبه ، وكان قصده أن يهرب بذلك ، فللحال عمرنا مركبا كبيرا ، وأخذنا برطلما المذكور بالمحاربة ، وأحضرناه إلى الماغوصة ، وعهدنا بطروق المراكب إلى شخص يسمى أرمان سليوريون ، وهو رجل مشكور السيرة ، وقلنا له أنه يتوجه إلى خازن الصابون المذكور ويستشيره إن كان يوسق شيئا من الأصناف لمولانا السلطان ، ويجهزه إلى أى مكان اختاره يسلمه ليد من تبرز له المراسيم الشريفة بتسليمه ، فليفعل ، وهذا القول كله يكون دليلا عند مولانا السلطان على صدق الولاء والتمسك بالصلح . والمسئول من الصدقات الشريفة الإقبال على التجار الجنوية الذين عند مملكته ، وكف أسباب الضرر عنهم ، وينشر معدلته عليهم ، والله تعالى يديم بقاءه بمنه وكرمه. (٢)

وكما كان للدوج البندقية رسم مكاتبة خاص به عن الأبواب السلطانية بمصر ، كذلك كان لحكام جنوة رسم مكاتبة يخصهم . وكان هذا الرسم حتى أواسط القرن الثامن الهجرى (أواسط القرن الرابع عشر الميلادى) كالآتى :

« صدرت هذه المكاتبة إلى حضرة البودشطا (٣) والكبطان الجليلين ، المكرمين ، الموقرين ، المبجلين ، الخطيرين ، فلان وفلان ، والمشايخ الأكابر المحترمين ، أصحاب الرأى والمشورة ، الكينون بجنوة ، أمجاد الأمة المسيحية ، أكابر دين النصرانية ، أصدقاء الملوك والسلاطين ،

---

(١) وسق الشىء أى جمعه وحمله .

(٢) انظر صبح الأعشى ـ ج ٨ ـ ص ١٢٤ ـ ١٢٥ .

(٣) يعرف فى المراجع الأجنبية باسم « بودستا » podestà أى حاكم المدينة. وللمزيد من المعلومات عن هذه الوظيفة ، انظر La Monte, op. cit., 444.

ألهمهم الله تعالى رشدهم ، وقرن بالخير قصدهم ،
وجعل النصيحة عندهم » :

بعد ذلك تتضمن المكاتبة إعلامهم بكيت وكيت ، وكان تعريفهم « الحكام بجنوة » . واعتبارا من عام ٧٦٧ هـ (١٣٦٥ م) أبطلت المكاتبة إلى « البودشطا » والكبطان بعد إبطالهما واستقرت مكانهما المكاتبة إلى « الدوج » بما نصه :

« صدرت هذه المكاتبة إلى الدوج الجليل ، المكرم ،
المبجل ، الموقر ، الخطير ، فلان ، والمشايخ » :

والباقى حسبما تقدم فى رسم المكاتبة أعلاه : (١)

ومن المصادفات الجديرة بالملاحظة أن المكاتبة قد استقرت إلى الدوج بجنوة فى سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٥ م) ، وهى نفس السنة التى تعرضت فيها الإسكندرية لحملة صليبية كبيرة ، والتى تحولت فيها الإسكندرية من ولاية صغيرة إلى نيابة لها وزنها وقدرها . فقد إزداد اهتمام السلطات الحاكمة بمصر بأمر الإسكندرية باعتبارها ميناءً على البحر يغرى الغربيين بالهجوم عليه مثلما فعل صاحب قبرص اللاتينى فى حملته التى شاركه فيها كثير من الجنوية ، تحقيقاً لأطماعهم التى أصيبت بنكسة عقب طرد الصليبيين من الساحل الشامى فى أخريات القرن الثالث عشر الميلادى . (٢)

* * *

جاء النشاط التجارى للبندقية وجنوة وبيزة فى شرقى البحر المتوسط والذى تمثل أصدق تمثيل فى العلاقات التى قامت بينها وبين مصر فى عصر التوسع الصليبى — جاء هذا النشاط معبراً فى واقع الأمر عن تلك الثورة الاقتصادية الكبرى التى كان التجار الإيطاليون طليعتها ، والتى بدأت متواضعة فى أواخر القرن العاشر ووصلت ذروتها فى نهاية القرن الثالث

---

(١) صبح الأعشى — جـ ٨ — ص ٤٦ . لم يحدثنا القلقشندى عن رسم المكاتبة الى المسئولين فى بيزة ، ولعل السبب فى ذلك أن مرجعهم كان الى بابا روما حسبما ذكر القلقشندى نفسه .

(٢) انظر عن ذلك
Atiya, Crusade in the Later Middle Ages, 336 f., 339, 341 ff.

عشر : وقد كانت هذه الثورة بلورها نتيجة لعوامل عديدة من بينها احتكاك الغرب بالشرق أثناء الحروب الصليبية ، وزوال عصر الإقطاع فى الغرب بحضارته الزراعية الريفية واقتصاده الطبيعى ، ونشأة المدينة بحضارتها المدنية واقتصادها النقدى ونشاطها التجارى والصناعى . وكانت الجمهوريات الإيطالية الثلاث بحكم موقعها الجغرافى الممتاز أسبق من غيرها من أمم الغرب فى هذا المضمار ، مثلما كانت أسبق منها إلى عصر النهضـــة .

وكان التجار الإيطاليون (١) بعد زوال الفكرة الصليبية وانصراف الناس فى الغرب عنها يقومون بعملية التصدير والاستيراد بين بلدان الشرق

---

(١) عندما يتحدث القلقشندى عن اللاتين الغربيين يطلق عليهم بصفة عامة «الفرنج» أو «طائفة الفرنج» ، كما يطلق على عناصرهم وأجناسهم المختلفة عبارة «أمم الفرنج» أو «ممالك الفرنج» ، وعلى حكامهم «ملوك الفرنج» . فالمسيحيون فى أسبانيا هم «افرنج اسبانيا» ، وصاحب صقلية «فرنجى» ، و «الكتيلان» أو «القتيلان» هم جنس من الفرنج ، وكذلك «التسقان» وأهالى طليطلة وقشتالة وأرغونة ، فضلا عن البنادقة والجنوية والبيازنة، الذين هم طوائف وفرق مشهورة من الفرنج . و «افرنسة» هى «افرنجة» ، أنظر صبح الأعشى ـ جـ ٣ ـ ص ٤٣٧ وجـ ٥ ـ ص ٢٧١ و ٢٧٢ و ٣٧٣ و ٣٧٤ و ٤٠٩ و ٤١١ و ٤١٢ و ٤٨٥ وَ جـ ٨ ـ ص ٣٤ و ٣٦ ـ ٣٨ وجـ ٩ (القاهرة ١٩١٦) ص ٢٥٠ وجـ ١٤ ـ ص ٢٤ . وهذا يعنى أن مفهوم كلمة «الفرنج» فى وثائق «صبح الأعشى» ينسحب على جميع أهل الغرب اللاتينى ، بما فى ذلك الجاليات التجارية الايطالية . ولذلك عندما يتحدث القلقشندى عن التجار الغربيين الذين يتعاملون مع مصر ويفدون على ثغرى الاسكندرية ودمياط ، يشير اليهم فى معظم الأحيان بقوله «تجار الفرنج» . انظر صبح الأعشى ـ جـ ٣ ـ ص ٤٥٩ . ويلاحظ أيضا أن جميع المهادنات التى أثبتها القلقشندى والتى عقدت بين كل من الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون والأشرف خليل من ناحية وبين افرنج الشام من ناحية أخرى ، خلال النصف الثانى من القرن الثالث عشر ، قد تضمنت العديد من البنود التى تتعلق بتجار الفرنج دون اشارة محددة تنص على التجار الايطاليين بالذات . انظر صبح الأعشى ـ جـ ١٤ ـ ص ٣٧ و ٤١ ـ ٤٢ و ٤٥ و ٤٧ و ٥٠ ـ ٥١ و ٥٨ ـ ٥٩ و ٦١ و ٦٨ ـ ٦٩ . كذلك أشار الى سفن الغربيين التى تنقل البضائع بين مصر والموانى الغربية على أنها « مراكب الفرنج » أنظر صبح الأعشى ـ جـ ٣ ـ ص ٤٥٩ . فالاشارة هنا أيضا عامة على الفرنج وسفنهم دون تحديد أو تخصيص . وغير خاف أن المقصود بتجار الفرنج التجار البنادقة والجنوية والبيازنة الذين كانوا فى واقع الامر يحتكرون التجارة مع مصر وحوض الليفانت . ويعزز ذلك الاشارات الصريحة التى وردت فى بعض وثائق « صبح الأعشى » بخصوص التجار الايطاليين . انظر : صبح الأعشى ـ جـ ٨ ـ ص ١٢٣ ـ ١٢٥ . ولعلنا نخلص مما سبق أن اشارات القلقشندى العامة عن تجار الفرنج الذين كانوا يتعاملون مع مصر وقتذاك انما تعنى فى حقيقة الأمر تجار الجمهوريات البحرية الايطالية . وهذا ما يمكن أن يقال بالنسبة لاشارات القلقشندى الى مراكب الفرنج .

الأدنى بعامة ومصر بخاصة من ناحية وبين الغرب الأوروبى من ناحية أخرى . فتأتى سفنهم محملة بالسلع والبضائع من الغرب لتفريغها فى ثغرى الإسكندرية ودمياط ، وللقيام بعمليات البيع والشراء فيهما ثم تقلع منهما محملة بالبضائع التى كان الغرب فى حاجة إليها . (١) ومن أهم الواردات التى كانت تأتى إلى مصر ، والتى أشار القلقشندى إليها : المماليك والجوارى والأخشاب والمعادن ؛ كالفضة ، والذهب ، والحديد ، والنحاس . (٢) وقد اشتهر بصفة خاصة الحديد البيزانى الذى ينسب إلى بيزة ، (٣) والجوخ البندقى نسبة إلى البندقية وهو يفوق كل أنواع الجوخ . (٤) وإن لم يرد نص صريح فى وثائق « صبح الأعشى » عن استيراد مصر لكل من حديد بيزة وجوخ البندقية ، إلا أن إشارات القلقشندى المتكررة إليهما تدل على معرفة مصر بهما فى ذلك الحين ، مما يحملنا على الاعتقاد بأنها كانت تستوردهما من هاتين الجهتين .

هذا عن واردات مصر التى كانت تصل إليها من الخارج ، أما أهم السلع التى كانت تصدر من موانيها فهى بعض المواد الأولية اللازمة لصناعة المنسوجات والأقمشة ، وبصفة خاصة قماش الإسكندرية « الفائق الذى ليس له نظير فى الدنيا » (٥) وكذلك المرجان الذى يحمل من الإسكندرية

---

(١) صبح الأعشى - جـ ٣ - ص ٤٥٩ و ٤٦٦ .

(٢) صبح الأعشى - جـ ١٣ - ص ٩٦ وجـ ١٤ - ص ٦٨ . ويذكر القلقشندى أن الفضة كانت تصل الى مصر من بلاد الفرنج وغيرها ، وان ورودها انقطع من سنة ٨٠٠ هـ (١٣٩٧/١٣٩٨ م) ، فقلت الفضة وبطل ضرب الدراهم بمصر الا فى القليل النادر . أنظر صبح الأعشى - جـ ٣ - ص ٤٦٣ . كما أشار صاحب « صبح الأعشى » الى قلة الوارد من النحاس الى مصر فى زمنه حتى أن العملة التى كان الناس يتعاملون بها أخذت فى التناقص لصغرها ونقصت اوزانها . وجاء فى اشارة أخرى أنه لم يعد يصل من معدن النحاس شىء حتى لقد صدرت الأوامر بابطال دار الضرب بمصر نحو شهرين الى أن يحضره الفرنج لاستعماله . أنظر : صبح الأعشى - جـ ٣ - ص ٤٤٠ وجـ ٧ (القاهرة ١٩١٥) ص ٢١٣ . ويعكس هذا الوضع الحالة الاقتصادية فى مصر زمن القلقشندى من حيث غلاء الاسعار ، وتدهور العملة المستعملة ، وعدم ثبات صرف الذهب . أنظر صبح الاعشى - جـ ٣ - ص ٤٣٨ و ٤٤٠ و ٤٥٠ و ٤٦٣ - ٤٦٤ .

(٣) صبح الأعشى - جـ ٥ - ص ٤١١ و جـ ٣ - ص ٢٣٤ .

(٤) صبح الأعشى - جـ ٥ - ص ٤٠٥ .

(٥) صبح الأعشى - جـ ٣ - ص ٤٠٤ و جـ ٥ - ص ٨٤ و ١٤٣ .

إلى سائر البلاد (١) ، والسكر الذى كان يصدر أيضا إلى أكثر البلاد(٢) وبعض الأحجار النفيسة : كالزمرد ، والبلسان ، أو البلسم الذى كان ملوك مصر يهادون به ملوك الفرنج وغيرهم لعظم شأنه (٣) ، وغير ذلك من الأحجار والمعادن التى كانت تستخرج من مصر مثل النطرون والشب واللازورد (٤)وأما الملح فقد كان من أهم صادرات مصر إلى بلاد الفرنج (٥) بالإضافة إلى التوابل الواردة إلى مصر من الهند واليمن (٦) ، والتى يقوم التجار الإيطاليون بدورهم بنقلها على سفنهم من موانى البحر الأبيض إلى الغرب .

وتمتع أولئك التجار فى حلهم وترحالهم — بصفة عامة — برعاية الدولة وحمايتها . فقد كانت تحسن وفادتهم ، وتؤمنهم على أنفسهم وحياتهم وأموالهم وبضائعهم وتعمل على رفع الظلم عنهم ، ونشر العدل بينهم بما يعود على البلاد من خير وفائدة . ووثائق صبح الأعشى واضحة فى ذلك تمام الوضوح إذ تلقى نسخ التواقيع الخاصة بنظر ثغر الإسكندرية(٧) ونظر الصادر الخاص بتجار الفرنج بها (٨) ، وكذلك نسخ المكاتبات والمهادنات بين مصر والفرنج ، ضوءا كافياً على ذلك .

---

(١) صبح الأعشى — جـ٢ (القاهرة ١٩١٣) ص ١١٦ .

(٢) صبح الأعشى — جـ٣ — ص ٣٠٩ .

(٣) صبح الأعشى — جـ٣ — ص ٢٨٢ — ٢٨٣ .

(٤) صبح الأعشى — جـ٣ — ص ٢٨٣ — ٢٨٤ و ٣٠٥ و ٣٠٧ و ٤٥٦

(٥) ذكر القلقشندى أن « بحيرة بوقير هى بحيرة ماء ملح يخرج من البحر الرومى بين الاسكندرية ورشيد ، ولها خليج صغير مشتق من خليج الاسكندرية .. وبجوانبها الملاحات الكثيرة التى يحمل منهـا الملح الى بـلاد الفرنج وغيرها . أنظر صبح الأعشى — جـ٣ — ص ٣٠٣ .

(٦) صبح الأعشى — جـ٤ — ص ٣٢ و ح١ .

(٧) متوليها يسمى ناظر الاسكندرية أو ناظر المباشرة ، وهى من الوظائف الديوانية التى يكتب بها بثغر الاسكندرية ، وموضوعها التحدث عن الأموال السلطانية بالاسكندرية مما يتحصل من المأخوذ من تجار الفرنج وسـائر المتاجر الواصلة برا وبحرا بالقبض والصرف والحمل الى الأبواب السلطانية » انظر صبح الأعشى — جـ١١ (القاهرة ١٩١٧) ص ٤١٩ .

(٨) من الوظائف الدينية التى يكتب بها بثغر الاسكندرية ، « وموضوعها التحدث فى قدر مقرر يؤخذ من تجار الفرنج الواردين الى ثغر الاسـكندرية .. » انظر صبح الأعشى — جـ١١ — ص ٤١٦ .

ففى توقيع بنظر ثغر الإسكندرية كتب به للقاضى جمال الدين بن بصاصة حوالى ٦٧٨ هـ (١٢٨٠ م) (١) ، جاء ما يلى :

« . . . . ويجتهد فى تحصيل أمواله (٢) . . . . وتنمية متاجره ، ومعاملة التجار الواردين إليه بالعدل الذى كانوا ألفوه منه والرفق الذى نقلوا أخباره السارة عنه ، فإنهم هدايا البحور ، ودوالبة الثغور ، ومن ألسنتهم يطلع على ما تجنه الصدور ، وإذا بذر لهم حب الإحسان نشروا له أجنحة مراكبهم كالطيور ، وليعتمد معهم ما تضمنته المراسيم الشريفة المستمرة الحكم إلى آخر وقت ، ولا يسلك معهم حالة توجب لهم القلق والتظلم والمقت (٣)

وفى نسخة توقيع بنظر الصادر الخاص بتجار الفرنج فى ثغر الإسكندرية كان ينسج على منوالها ويستضاء بها فيما يكتب من هذا النوع ، جاء ما يلى :

« . . . . (وليتلق) كذلك تجار الجهة الغربية الواردين إلى الثغر المحروس من أصناف المسلمين والفرنج : فليحسن لهم الوفادة وليعاملهم بالمعدلة المستفادة ، فإن مكاسب الثغر منهم ومن الله الحسنى وزيادة . . . . » (٤)

وفى تذكرة سلطانية كتب بها عن السلطان الملك الصالح على بن الملك المنصور قلاوون الصالحى ، لكافل السلطنة بالديار المصرية ، الأمير زين الدين كتبغا ، عند سفر الملك الصالح إلى الشام واستقرار كتبغا نائباً عنه فى سنة ٦٩٩ هـ (١٢٧١ م) — نجد إشارة لها أهميتها عن التجارة

---

(١) لم يحدد القلشندى تاريخ التوقيع ، ولكنه أعقبه بنسخة توقيع ثانية باعادة النظر بثغر الاسكندرية لابن بصاصة فى سنة ٦٧٨ هـ (١٢٨٠ م) ، مما يبين أن التوقيع الأول كان حوالى ذلك الوقت أو قبله بقليل . انظر صبح الأعشى — جـ١١ — ص٤٠ — ٤٢ .

(٢) المقصود ثغر الاسكندرية .

(٣) صبح الأعشى — جـ١١ — ص ٤٢٠ — ٤٢١ .

(٤) صبح الأعشى — جـ١١ — ص ٣٢٠ .

والتجار الفرنج تحت عنوان « فصل الثغور المحروسة » جاء فيها بعد بيان أهمية الثغور :

« .... والتيقظ لمهمات الثغر ، واستجلاب قلوب التجار ، واستمالة خواطرهم ؛ ومعاملتهم بالرفق والعدل حتى تتواصل التجار وتعمر الثغور. ..... »(١) .

ويدل هذا على مدى اهتمام مصر باجتذاب تجار الفرنج إلى موانيها نظراً للمكاسب الهائلة التي كانت تعود عليها من وراء ذلك .

وتتميز نسخ المهادنات المعقودة بين مصر والفرنج فى عهود الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون والأشرف خليل ، فيما بين عامى ٦٦٥ و ٦٩٢ هـ (١٢٦٧ – ١٢٩٢ م) ، والتى أثبتها القلقشندى فى كتابه – بأهميتها فيما نحن بصدده . فقد وردت بها إشارات عديدة تتعلق بتأمين التجار الفرنج بالشام وغيرهم من الوافدين من الغرب . ولم ترد فى هذه المهادنات إشارات صريحة تخص التجار الإيطاليين ، وإنما كانت الإشارة إلى تجار الفرنج بصفة عامة . وغير خاف أن المقصود تجار المدن البحرية الإيطالية الذين كانوا يقومون بعمليات التصدير والاستيراد بين مصر والشرق الأدنى الإسلامى من ناحية ؛ وبين الغرب اللاتينى من ناحية أخرى(٢) والذين احتكروا تجارة شرقى حوض البحر المتوسط مثلما احتكروا عملية نقل الصليبيين على سفنهم إلى الشرق زمن العدوان الصليبى .

ففى هدنة عقدت بين الظاهر بيبرس(٣) وجماعة الفرسان الإسبتارية بحصنى : الأكراد والمرقب بالشام ، تاريخها يوم الإثنين ٤ رمضان ٦٦٥ هـ (١٢٦٧ م) ، وردت إشارة تنص على ضرورة تأمين التجار والسفار على أنفسهم وأموالهم وكل ما يتعلق بهم ، وذلك فى البلاد التى وقعت الهدنة عليها(٤) . وفيما يلى نص البند المشار إليه :

---

(١) صبح الأعشى – جـ١٣ – ص ٩٦ .

(٢) انظر ما سبق ، ص ٢٥ ح٣ من هذا البحث .

(٣) تولى الظاهرة بيبرس الحكم ١٨ سنة من ٦٥٨ الى ٦٧٦ هـ (١٢٦٠ – ١٢٧٧م) ، ويغلب على الظن أن حكمه انتهى بقتله مسموما .

(٤) مدة الهدنة عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات . انظر النص الكامل للهدنة فى كتاب صبح الأعشى – جـ١٤ – ص٣١ – ٣٩ .

«.... على التجار والسفار والمترددين من جميع هذه الجهات المذكورة يكونون آمنين من الجهتين : الجهة الإسلامية ، والجهة الفرنجية والنصرانية فى البلاد التى وقعت هذه الهدنة عليها — على النفوس والأموال والدواب وما يتعلق بهم ، يحميهم السلطان ونوابه ....

وعلى أن يتردد التجار والمسافرون من جميع المترددين على أى طريق اختاروه من الطرق الداخلة فى عقد هذه البلاد الداخلة فى هذه الهدنة المباركة المختصة بالملك الظاهر ، وبلاد معاهديه ، وبلاد المناصفات ، وخاص بيت الأسبتـار والمناصفات ، يكون الساكنون والمترددون فى الجهتين آمنين مطمئنين على النفوس والأموال ، تحمى كل جهة الجهة الأخرى(١) .

وفى هدنة ثانية عقدت بين بيبرس وبين ملكة بيروت الفرنجية بتاريخ الخميس ٦ رمضان ٦٦٧ هـ (١٢٦٩ م) ، إشارة تنص على عدم تحصيل رسوم من التجار الفرنج لم تجر العادة بها ، وأن يكون التجار آمنين مدة أربعين يوماً بعد انقضاء المدة المتفق عليها فى الهدنة(٢) .

« .... وعلى ألا يحدد على أحد من التجار المترددين رسم لم تجر به عادة ، بل يجرون على العوائد المستمرة والقواعد المستقرة من الجهتين ....

.... وعلى أنه إن تاجر فرنجى صدر من بيروت إلى بلاد السلطان يكون داخلا فى هذه الهدنة ، وإن عاد إلى غيرها لا يكون داخلا فى هذه الهدنة ....

.... وعند انقضاء الهدنة يكون التجار آمنين من الجهتين

---

(١) صبح الأعشى — جـ١٤ — ص ٣٧ .

(٢) لم يتضمن النص أى اشارة الى مدة الهدنة . انظر النص الكامل لها فى صبح الأعشى — جـ١٤ — ص ٣٩ — ٤٢ .

مدة أربعين يوماً ، ولا يمنع أحد منهم من العودة إلى مستقره .... (١) » .

وفى هدنة ثالثة عقدت بين بيبرس وولده الملك السعيد(٢) وبين جماعة الفرسان الأسبتارية على قلعة المرقب بالشام فى مستهل رمضان ٦٦٩هـ (١٢٧١ م) (٣) ، إشارة واضحة إلى الإتفاق على تقسيم ما يتحصل من التجار الفرنج والمصريين مناصفة بين الجهتين الفرنجية والإسلامية :

« .... وكل ماهو من الموانئ والمراسى البحرية المعروفة جميعها بحصن المرقب : من مينا بلدة إلى مينا القنطرة المجاورة لحدود مرقبة — تكون هى وما يتحصل منها من الحقوق المستخرجة من الصادرين والواردين والتجار ، وما ينعقد عليه ارتفاعها ، وتشهد به الحسبانات — جميعه مناصفة . وما يدخل فى ذلك من أجناس البضائع على اختلافها يؤخذ الحق منه مناصفة على العادة الجارية من غير تغيير لقاعدة من حين أخذ بيت الأسبتار المرقب إلى تاريخ هذه الهدنة المباركة مناصفة على العادة الجارية ، بل تجرى التجار فى الحقوق على عادتهم فى البضـائع التى يحضرونها والمتجر كائناً من كان ...(٤) » .

وفى أحد شروط الهدنة آنفة الذكر بند خاص بتأمين التجار المصريين والفرنج على أرواحهم وأموالهم من ناحية كل من الظاهر بيبرس والفرسان الأسبتارية ، وهو بند تضمنته جميع المهادنات التى سجلها القلقشندى فى « صبح الأعشى » :

---

(١) صبح الأعشى — جـ١٤ — ص ٤١ — ٤٢ .

(٢) تولى الملك السعيد بن الظاهر بيبرس الحكم لمدة سنتين حتى ٦٧٨ هـ (١٢٧٩م) وانتهى حكمه بخلعه وكان عمره ٢٠ سنة وقتها .

(٣) مدة الهدنة عشر سنين وعشرة أشهر . انظر نصها الكامل فى صبح الأعشى — جـ١٤ — ص ٤٢ — ٥١ .

(٤) صبح الأعشى — جـ١٤ — ص ٤٤ — ٤٥ .

« ..... وعلى أن التجار السفارة والمترددين بالبضائع من بلاد المسلمين والنصارى متى ماخرجوا من الموانى المحدودة أعلاه يتوجهون بخفارة(١) الجهتين من غير حق : لايتناول من الخفارة شيء منسوب إلى نفوسهم إلى أن يخرجهم ويحضرهم إلى بر حدود المرقب آمنين مطمئنين تحت حفظ الجهتين .
ومتى وصل التجار من مملكة السلطان إلى بلاد المرقب وموانيها ، فالترتيب على الخفارة من الجهتين ، مع تدرك الرؤساء الحفظ للطرقات صادراً وواردأ ، بحيث إنهم يحضرون إلى بلاد المرقب : ، وإلى الموانى بالمرقب المحدودة أعلاه ، طيبين آمنين على أرواحهم وأموالهم بالخفارة من الجهتين ، على ما شرحناه .... »(٢) .

وورد فى نفس الهدنة نص ثالث جاء به أنه فى حالة فسخها يؤمن التجار من الجهتين ، وقد تحددت المدة التى يؤمنون فيها على أنفسهم وأموالهم بأربعين يوماً . وفيما يلى النص :

«.... ومتى وقع — والعياذ با لله — فسخ بسبب من الأسباب ، كان التجار والسفار آمنين من الجهتين ، وتكون النهاية لهم أربعين يوماً .... »(٣) .

وفى هدنة رابعة عقدت بين الملك المنصور قلاوون الصالحى(٤) وولده الملك الصالح على وبين حكام الفرنج بعكا وما معها من بلاد سواحل الشام فى يوم الخميس ٥ ربيع الأول ٦٨٢ هـ (١٢٨٣ م) ، إشارات عديدة لها أهمية خاصة فى هذا الشأن(٥) . إذ جاء فى أحد بنودها شرط

---

(١) أى حراسة .
(٢) صبح الأعشى — جـ١٤ — ص ٤٧ .
(٣) صبح الأعشى — جـ١٤ — ص ٥٠ — ٥١ .
(٤) تولى المنصور سيف الدين قلاوون الصالحى الحكم ١٢ سنة ، من ٦٧٨ الى ٦٨٩ هـ (١٢٧٩ — ١٢٩٠م) ، ومات وهو فى السبعين من عمره .
(٥) مدة الهدنة عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات . انظر النص الكامل لها فى صبح الأعشى — جـ١٤ — ص ٥١ — ٦٣ .

خاص بما يتبع حيال مراكب الطرفين التى تنكسر أو تغرق فى البلاد التى انعقدت عليها الهدنة ، وكيفية معاملة من عليها من التجار :

« .... وعلى أنه إذا انكسر مركب من مراكب تجار السلطان وولده التى انعقدت عليها الهدنة ، ورعيتهما من المسلمين وغيرهم ، على اختلاف أجناسهم وأديانهم ، فى مينا عكا وسواحلها ، والبلاد الساحلية التى انعقدت عليها الهدنة ، كان كل من فيها آمناً على الأنفس والأموال والأتباع والمتاجر : فإن وجد أصحاب هذه المراكب التى تنكسر تسلم مراكبهم وأموالهم إليهم وإن عدموا بموت أوغرق أوغيبة ، فيحتفظ بموجودهم ويسلم لنواب السلطان وولده . وكذلك المراكب المتوجهة من هذه البلاد الساحلية المنعقد عليها الهدنة للفرنج ، يجرى لها مثل ذلك فى بلاد السلطان وولده . ويحتفظ بموجودها إن لم يكن صاحبها حاضرا إلى أن يسلم لكفيل المملكة بعكا أو المقدم .... » (١) .

ونص بند آخر فى نفس الهدنة على ما يتبع عند وفاة أحد التجار من الجهتين ، من حيث المحافظة على أمواله إلى أن يتسلمها المختصون :

« ومتى توفى أحد من التجار الصادرين والواردين : على اختلاف أجناسهم وأديانهم من بلاد السلطان وولده فى عكا وصيدا وعثليث ، والبلاد الساحلية الداخلة فى هذه الهدنة على اختلاف أجناسهم وأديانهم (فيحتفظ على ماله حتى يسلم لنواب السلطان وولده) ، وإذا توفى أحد فى البلاد الإسلامية الداخلة فى هذه الهدنة ، يحتفظ على ماله إلى حين يسلم إلى كفيل المملكة بعكا والمقدمين »(٢) .

(١) صبح الأعشى – جـ١٤ – ص ٥٨ – ٥٩ .
(٢) صبح الأعشى – جـ١٤ – ص ٥٩ .

هذا ، بالإضافة إلى النص الذى يرد عادة فى مثل تلك المهادنات الخاص بتأمين التجار المسافرين وعدم تحصيل شىء منهم لم تجربه العادة :

« ...... وعلى ألا يجدد على التجار المسافرين : الصادرين والواردين من الجهتين حق لم تجر به عادة ، ويجروا على عوائدهم المستمرة إلى آخر وقت ، وتؤخذ منهم الحقوق على العادة المستمرة ، ولا يجدد عليهم رسم ولا حق لم تجر به عادة . وكل مكان عرف باستخراج الحق فيه يستخرج بذلك المكان من غير زيادة من الجهتين ، وفى حالتى سفرهم وإقامتهم ، ويكون التجار، والسفار، والمترددون آمنين مطمئنين مخفرين من الجهتين فى حالتى سفرهم وإقامتهم ، وصدورهم وورودهم بما صحبتهم من الأصناف والبضائع التى هى غير ممنوعة »(١) .

وإذا نظرنا إلى الأمور نظرة أكثر عمقاً ، وربطنا بين تلك المهادنات التى أسلفنا الإشارة إليها وبين الأحوال السياسية السائدة فى الشرق الأدنى وقتذاك ، نجد أن إمارات اللاتين بالشام كانت وقتها أى فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر — قد فقدت الأمل بالفعل فى أية مساعدة يقدمها لها أهل الغرب الكاثوليكى تمكنها من صد هجمات المماليك البحرية . لقد أخذ المماليك بمصر فى توجيه الضربات القاضية إلى حكم اللاتين بالساحل الشامى . فنرى الظاهر بيبرس يغير على ممتلكاتهم فيما بين سنتى ٦٦٣و ٦٦٦ هـ (١٢٦٥ — ١٢٦٨ م) والتى يتوجها انتصاره عليهم فى أنطاكية فى رمضان ٦٦٦ هـ (مايو ١٢٦٨ م) . وكان احتلال هذا الحصن المنيع نذيرا بانهيار حكم الصليبيين وتلاشى دولتهم فى الشرق (٢) ثم واصل المنصور سيف الدين قلاوون

---

(١) صبح الأعشى — جـ١٤ — ص ٦١ .

(٢) راجع النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب — مخطوط مصور بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٤٩ معارف عامة — جـ٢٨ — لوحة ٩٤ — ٩٦ ، الكتبى : فوات الوفيات — جـ ١ (القاهرة ١٢٩٩ هـ) ص ٨٧ و ٨٩ ، المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك =

سياسة بيبرس من حيث شنه الهجمات المتكررة على باقى ممتلكات اللاتين بالشام ، وأهمها استيلاؤه على طرابلس فى ربيع الآخر سنة ٦٨٨ هـ (ابريل ١٢٨٩ م)(١) ويتوج السلطان الأشرف خليل هذا الجهاد المتصل باستيلائه فى جمادى الأولى ٦٩٠ هـ (مايو ١٢٩١ م) على عكا آخر معاقل الصليبيين الهامة بالأرض المقدسة . ولم يبق لهم بعدئذ على الساحل الشامى سوى أمكنة فردية ضعيفة هى : صيدا وصور وحيفا طردهم المسلمون منها فى نفس السنة (٢) وفى ظل هذه الظروف التى تم فيها القضاء على البقية الباقية من سلطنة اللاتين الغربيين فى الأراضى المقدسة ، والتى اعتدل فيها ميزان القوى بشكل واضح وحاسم لصالح المسلمين ، تم إبرام المهادنات المشار إليها أعلاه بين المسلمين والفرنج بالشام ، تلك المهادنات التى تضمنت بنودا صريحة تكشف عن هذا التغيير الكبير الذى طرأ على ميزان القوى بين الفريقين فى رقعة الشرق الأدنى ؛ وتبين أن سلاطين المماليك كانوا يملون إرادتهم على إفرنج الشام وهم فى مركز القوة .

وإذا كانت تلك المهادنات تكشف عن مدى اهتمام الجهات المسئولة بمصر بأمر التجارة لما كانت تدره عليها من أموال ساعدتها على تقوية نفسها وتعزيز جيشها وأسطولها فى مواجهة الصليبيين الغزاة فى فلسطين فى وقت أخذ فيه المماليك بمصر زمام المبادأة بينما التزم أعداؤهم بسياسة الدفاع عن أنفسهم وعن كيانهم المتداعى بوجه عام — فإن المكاتبات التى تبودلت بين سلاطين المماليك والفرنج بالشام إبان تلك الحقبة من الزمن لا تقل فى أهميتها ودلالتها عما تقدم .

من ذلك ؛ الكتاب الذى بعث به ميخائيل دوج البندقية سنة ١٤١١م

= نشر وتحقيق الدكتور محمد مصطفى زيادة — جـ ١ قسم ٢ (القاهرة ١٩٣٦) ص ٥٦٧ — ٥٦٨ .

(١) المقريزى : السلوك — جـ١ قسم ٣ (القاهرة ١٩٣٩) ص ٧٤٧ — ٧٤٨ .

(٢) بيبرس الدوادار المنصورى : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة — مخطوط مصور بمكتبة جامعة القاهرة تحت رقم ٢٤٠٢٨ تاريخ — جـ١٠ — لوحة ٢٨٢ — ٢٨٩ . انظر أيضا ص ٢٠ ح٤ من هذا البحث .

(٨١٤ هـ) مع رسوله نيقولا البندق إلى الملك الناصر فرج : وقد أشار فيه إلى تردد التجار البنادقة على الديار المصرية وهم آمنين مطمئنين يتمتعون بعدل السلطان ورعايته . وفى ختام الكتاب يوصى الدوج السلطان المملوكى خيرا بالقنصل البندقى فى الإسكندرية وبالرعايا والتجار البنادقة حتى يطمئنوا على أنفسهم ويترددوا على مملكته (١) .

وثمة كتاب آخر ورد من القبطان الجنوى بميناء الماغوصة بقبرص إلى الناصر فرج فى نفس السنة ، يلتمس فيه حسن معاملة التجار الجنوية فى مصر ونشر العدل بينهم والتحقيق فى شكاياتهم مع كف أسباب الضرر عنهم . وقد أوضح القبطان فى رسالته أن المراكب الجنوية لا تتوانى من ناحيتها عن حماية مسلمى مصر من التجار والمسافرين من مضايقات القراصنة الأجانب (٢) .

وإن دل هذا على شيء فعلى انتعاش حركة التجارة فى مصر خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر بعد موت الفكرة الصليبية ، وعلى تردد التجار الإيطاليين عليها وهم آمنين . وكان المسئولون بمصر يبذلون جهدهم لتهيئة سبل الراحة والإقامة لهم ، والمبادرة بحل مشاكلهم ، والنظر فى شكاياتهم . وإن كان هذا لا يمنع من القول بأن مصر كانت تبادر بوقفهم عند حدهم والتشدد فى معاملتهم إذا تصرفوا تصرفا يضر بالبلاد ومصالحها العليا . ونجد مثلا لذلك فى موقفها من تصرفات بعض التجار البنادقة والجنوية زمن الناصر فرج .

وثمة دلائل على أن السلطات الحاكمة بمصر قد وجهت اهتمامها لاجتذاب أكبر عدد من التجار الإيطاليين إليها . واستلزم ذلك توجيه المزيد من الاهتمام إلى الثغور المصرية ، وبخاصة ثغرى الإسكندرية

---

(١) صبح الأعشى – جـ٨ – ص ١٢٣ – ١٢٤ . هذا ، ولم نعثر فى وثائق « صبح الأعشى » على رد السلطان المملوكى على رسالة دوج البنادقة ، كذلك لم نستدل من تلك الوثائق ما يبين أنه بعث برده عليها .

(٢) صبح الأعشى – جـ٨ – ص ١٢٤ – ١٢٥ . سبقت الاشارة الى هذين الكتابين فى شيء من التفصيل والتحليل عند التعرض للعلاقات بين كل من البندقية وجنوة من ناحية وبين مصر من ناحية أخرى .

ودمياط ، وكان هذان الثغران محط أولئك التجار ، ومركزا لنشاطهم الاقتصادى . ووثائق « صبح الأعشى » غنية بالمادة فى هذه الناحية .

لقد كانت الإسكندرية موضع اهتمام خاص باعتبارها أجل الثغور المصرية ، فهى تمتاز بموقعها التجارى الممتاز على البحر المتوسط ، وميناْها الصالح لرسو السفن . كما كانت توجد بها « الأسواق الممتدة وفيها ينسج القماش الفائق الذى ليس له نظير فى الدنيا ، وإليها تهوى ركائب التجار فى البر والبحر »(١) . إذ تأتى إليها سفن الفرنج محملة بالبضائع لبيعها للتجار المسلمين (٢) وكانت الإسكندرية قبل حملة بطرس الأول لوسنيان حاكم قبرص اللاتينى عليها سنة ٧٦٧ هـ (١٢٦٥ م) مجرد ولاية عادية . ولكنها استقرت بعد ذلك نيابة(٣) يكتب لنائبها تقليد من الأبواب الشريفة بمصر (٤) وكان استحداث هذه النيابة فى عهد الملك الأشرف شعبان بن حسين (٥) ، مما يكشف عن الاهتمام الذى أخذ المسئولون يوجهونه إليها وقتذاك .

وإذا كانت الاسكندرية لموقعها الممتاز قد اجتذبت التجار الإيطاليين إليها ، فلم تكن دمياط تقل عنها أهمية . إذ امتازت بتفوقها الصناعى (٦)

---

(١) صبح الأعشى ــ جـ٣ ــ ص ٤٠٤ .

(٢) صبح الأعشى ــ جـ٣ ــ ص ٤٥٩ و ٤٦٦ .

(٣) صبح الأعشى ــ جـ١١ ــ ص ٤٠٥ .

(٤) صبح الأعشى ــ نفس الجزء والصفحة ــ انظر نسخة التقليد الخاص بنيابة ثغر الاسكندرية الذى أثبته القلقشندى فى صبح الأعشى ــ جـ١١ ــ ص ٤٠٥ ــ ٤٠٧ . ويتضح منه مدى اهتمام المسئولين بمصر بأمر الثغور ، مما اقتضى العمل على رعاية التجار ونشر العدل بينهم . وجدير بالذكر أن الوظائف التى كان يكتب بها بثغر الاسكندرية كانت على نوعين . الوظائف الدينية وهى ثلاث : القضاء والحسبة ونظر الصادر ، والوظائف الديوانية وهى الأخرى ثلاث : ناظر المباشرة ويعرف أيضا بناظر الاسكندرية ، ونظر كتابة الدرج ، ونظر دار الطرز . انظر صبح الأعشى ــ جـ١١ ــ ص ٤٠٨ ــ ٤٣٦ .

(٥) صبح الأعشى ــ جـ٧ ــ ص ١٥٦ .

(٦) اشتهرت دمياط فى العصر الوسيط ، وبخاصة فى عهد الأيوبيين ، بأنها مدينة صناعية هامة تخصصت فى صناعة النسيج واشتغلت بتصديره الى الأسواق الخارجية . وتحدث عن ذلك الجغرافيون العرب وكتاب المسالك والممالك . انظر اليعقوبى : كتاب البلدان ــ منشور فى
Kamal, Y., Monumenta Cartographica Africae et Aegypti, t. III, fasc. I (1930), 540.

وموقعها الفريد من الناحيتين الجغرافية والتجارية . والواقع أن مركزها الساحلى بين مصب فرع الدلتا الشرقى وساحل البحر الأبيض جعل منها سوقا تجارية دولية تنقل إليها بضائع الشرق الأقصى عن طريق البحر الأحمر والنيل — تلك البضائع التى تحملها سفن الفرنج فى البحر المتوسط إلى سواحل مصر والشام ، ومنها تنقل إلى الغرب الأوروبى . وكانت هذه التجارة تدر على سلطان مصر أرباحا طائلة . (١) لذا كانت محاولات الغربيين احتلال الإسكندرية ودمياط فى عصر التوسع الصليبى من أشد وسائل مضايقة المصريين وعرقلة تجارتهم مع العالم الخارجى . (٢)

وهكذا كان تجار الجمهوريات الإيطالية يفدون على هذين الثغرين اللذين « تأتى إليهما مراكب الفرنج بالبضائع فتبيع منهما ما تحتاج إليه من البضائع » (٣) .

كان هذا الاهتمام الزائد الذى وجهته مصر إلى التجارة والتجار الفرنج من جهة ، وإلى الموانى والثغور المصرية المطلة على البحر الأبيض من جهة أخرى ، له ما يبرره ويدعو إليه . فقد كانت التجارة مصدر ثروة طائلة بالنسبة للبلاد أكسبتها القوة والمنعة فى الداخل والخارج . إذ ظلت دولة المماليك بمصر هى الدولة القوية التى لا منافس لها فى رقعة الشرق الأدنى

= الاصطخرى : مسالك الممالك — منشور فى
Kamal, op. cit., t. III, fasc. II (1932), 586.

ابن حوقل : المسالك والممالك والمفاوز والمهالك — منشور فى
Kamal, op. cit., t. III, fasc. II, 652.

القزوينى : آثار البلاد وأخبار العباد — (طبع جوتنجن ١٨٤٨م) ص ١٢٩ ، على مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة — جـ ١٠ (القاهرة ١٣٠٥ هـ) ص ٤٦ .

(١)
Jacques de Vitry, Historia Hierosolimitana, ed. Y. Kamal, Monumenta Cartographica, t. III, fasc. IV, 944; Guillaume de Tyr, Historia rerum in partibus transmarinis gestarum, ed. Kamal, op. cit., t. III, fasc. IV, 908; cf. also: Heyd, Hist. du com., I, 384.

(٢) نجد مثلا واضحا لذلك فى حملتى جان دى برين ولويس التاسع على دمياط فى النصف الأول من القرن الثالث عشر ، وكذلك حملة بطرس لوسنيان على الاسكندرية فى أواسط القرن الرابع عشر . ومن الواضح أن محاولات الغربيين الاستيلاء عليهما معناه أن يصبح فى يد الغزاة موردا ماليا له أثره فى توجيه السياسة العامة للدولة .

(٣) صبح الأعشى — جـ٣ — ص ٤٥٩ .

حتى أواخر القرن الخامس عشر . ويكفى أنها تمكنت من إلحاق الهزيمة بالتتار فى بداية عهدها ، كما أفلحت فى طرد الصليبيين من الساحل الشامى فى أواخر القرن الثالث عشر ، والوقوف فى وجه الحملات الصليبية المتأخرة فى القرن الرابع عشر ، ثم تأديب الغربيين بحملات إسلامية مضادة خلال القرن الخامس عشر (١) .

وكانت الأموال التى امتلأت بها خزائن مصر تأتى عن طريق المكوس والضرائب التى يتم تحصيلها على بضائع التجار الوافدين على ثغرى الاسكندرية ودمياط . (٢) ولهذا السبب كان الاهتمام الزائد بتحصيل الأموال منهم ، و « عدم التفريط فى مستخرج حقوق المراكب الواصلة ، ولا يقلل متحصلها ، ولاينقص حملها. (٣) وكان المقرر فى الشرع هو أخذ العشر من بضائع التجار إذا شرط ذلك عليهم . وفى مذهب الشافعى أن للإمام أن يزيد فى المأخوذ عن العشر وأن ينقص عنه إلى نصف العشر إذا دعت الحاجة إلى الازدياد من جلب البضاعة ومن الممكن أن يرفع ذلك عنهم إذا استوجبت المصلحة ذلك أيضا . وجدير بالذكر أنه كيفما كان تحصيل المكوس فلا يزيد على مرة واحدة من كل تاجر فى كل سنة حتى لو رجع إلى بلاده ثم عاد بالتجارة فى نفس السنة ، فلا يؤخذ منه شىء اكتفاء بما أخذ منه فى المرة الأولى .

كانت هذه هى القاعدة المتبعة حيال التجار الوافدين بالبضائع على مصر بصفة عامة . ويخص القلقشندى تجار الفرنج بكلمة فى هذه الناحية ، إذ يذكر أنه تقرر أن يؤخذ منهم الخمس أى ضعف العشر عن كل ما يصل لهم ، وربما زاد ما يؤخذ منهم على الخمس أيضاً : (٤) وفى بعض المهادنات التى

---

(١) جوزيف نسيم يوسف : الوحدة وحركات اليقظة العربيه ابان العدوان الصليبى ـ ص ٣٠ ـ ٣١ و ٣٥ و ٣٧ ومابعدها والحواسى .

(٢) صبح الأعشى ـ جـ٣ ـ ص ٤٦٦ .

(٣) صبح الأعشى ـ جـ١٣ ـ ص ٩٦ . انظر تذكرة الملك الصالح على بن المنصور قلاوون لكافل السلطنة بمصر الأمير كبغا سنة ٦٩٩ هـ (١٢٧١ م) فى صبح الأعشى ـ جـ١٣ ص ٩١ ـ ٩٨ .

(٤) صبح الأعشى ـ جـ٣ ـ ص ٤٥٩ . وهذه المكوس المتحصلة على البضائع الواردة =

أبرمت بين سلاطين مصر من المماليك البحرية وبين إفرنج الشام خلال النصف الثاني من القرن الثالث عشر، مثل هدنة رمضان ٦٦٩ هـ (١٢٧١ م) بين الظاهر بيبرس والفرسان الاسبتارية ، كان يتم الاتفاق على مناصفه ما يتحصل من التجار من الضرائب والمكوس فى الثغور والموانى التى تشملها الهدنة ، وفقا للعادة المتبعة (١) .

وكان يتم تقدير المقدرات بواسطة الموازين والمقاييس المتعارف عليها : ومن أهم آلات المعاملة بمصر وقتذاك الميزان والذراع . (٢) أما عن العملات التى كان يتم التعامل بها ، فهناك الدنانير المصرية التى يتم التعامل بها وزنا كالذهب المصرى . وهناك ما يأتى إلى مصر من العملات المسكوكة فى غيرها من الممالك الفرنجية ، ويتم التعامل بها معادة . وهى عبارة عن دنانير معلومة الأوزان يؤتى بها من بلاد الفرنج ، وعلى أحد وجهيها صورة الملك الذى تضرب فى زمنه وعلى الوجه الآخر صورتا القديسين بطرس وبولس. وتعرف هذه العملات باسم «الدنانير الافرنتيه» نسبة إلى « إفرنسة » أو « إفرنجة » . (٣) وهناك نوع آخر من الدنانير يعرف باسم « الدوكات » ، وهو لا يطلق إلا على الدنانير التى تضرب فى البندقية نسبة إلى صاحبها « الدوك » أو « الدوج » . (٤) ويبدو من إشارات القلقشندى المتكررة إلى « دوكات » البندقية أنها كانت منتشرة بمصر فى عصره وأنه كان يتم التعامل بها ، مما يكشف عن ثباتها واستقرارها ،

= الى مصر مع التجار منها ما يختص بالديوان السلطانى مثل البضائع التى قد تصل للتجار المسلمين الى ساحل الاسكندرية ودمياط فيؤخذ منها المرتب السلطانى على ما توجيه الضرائب ، ومنها ما لا اختصاص له بالديوان السلطانى والمقصود به المكوس المتفرقة بالبلاد . انظر صبح الأعشى – جـ٣ – ص ٤٦٤ – ٤٦٧ .

(١) انظر صبح الأعشى – جـ١٤ – ص ٤٥ .

(٢) صبح الأعشى – جـ٢ – ص ١٤٦ و ١٤٧ – ١٤٨ .

(٣) الافرنتية جمع افرنتى وأصلها افرنسى نسبة الى افرنسة وهى مدينة من مدن الفرنج ، وربما قيل فيها افرنجة التى تنسب اليها طائفة الفرنج ، وهى مقر ملكهم الذى يعرف بالفرنسيس ، أى ملك الفرنسيين . انظر صبح الأعشى – جـ٣ – ص ٤٣٧ .

(٤) صبح الأعشى – نفس الجزء والصفحة .

فضلا عن الحظوة التى كانت تتمتع بها البندقية من قبل مصر : ولاشك أن تلك الحظوة تفوق تلك التى كانت تتمتع بها كل من جنوة وبيزة .

لقد أولى القلقشندى موضوع التجار الفرنج وعلى رأسهم التجار الإيطاليين ، الذين يفلون على مصر إهتماما كبيرا فى وثائقه . فنراه يحدثنا بإسهاب وتفصيل عن ألقابهم التى اصطلح عليها لمكاتباتهم عن الأبواب الشريفة بمصر وتكشف هذه الألقاب عن المكانة التى كان يتمتع بها أولئك التجار من ناحية ، والصفات الواجب توافرها فيهم من ناحية أخرى . فهم الرسل والسفار بين الملوك والقادة والحكام ، وهم المصلحون بين القوم ، وهم المؤتمنون على الأسرار . أما الصفات الواجب توافرها فيهم فهى ، فى المرتبة الأولى : الصدق ، والأمانة ، والإخلاص والإستقامة ، والثقة ، وحسن السمعة ، وكتمان السر ، وما إلى ذلك من الخصال الحميدة .

فمن ألقابهم التى أشار إليها صاحب « صبح الأعشى » « السفيرى » نسبة إلى السفير ، وذلك لسفارة التاجر منهم بين الملوك وتردده فى الممالك لجلب الجوارى والمماليك ونحو ذلك . (١) ويلقب الواحد منهم « الصدر » ، لتصدره فى المجالس ، وهو أيضا « الصدرى » نسبة إلى الصدر للمبالغة (٢) . وهو « المقرب » لأنه مقرب عند الملوك ومن فى معناهم و« المقربى » نسبة إليه للمبالغة . وهو كذلك « المنتخب » و« المختار » ، وهو « المؤتمن » لأنه يؤتمن على المماليك والجوارى فى السفر وعلى أخبار الممالك وأحوالها فلا يفشى أسرارها ، (٣) وهو « الأمين » لائتمانه على مايحمله من بضائع و« الأمينى » نسبة إليه للمبالغة . ويلقب أيضاً بـ « أوحد الأكابر » ، و « أوحد الكبراء » و « تاج الأمناء » و« ثقة الدول » وقد خص التجار بهذا اللقب الأخير لترددهم فى الدول والممالك ، ويلقب به أيضا المترددون فى الرسائل بين الملوك . ومن ألقاب التجار أيضا ألقاب مثل :

---

(١) صبح الأعشى - جـ٦ - ص ١٥ .
(٢) صبح الأعشى - جـ٦ - ص ١٨ .
(٣) صبح الأعشى - جـ٦ - ص ٣٠ و ٣١ .

«جمال الأكابر» ، و« زين الأكابر » ، و« شرف الأصفياء المقربين» واللقب الأخير من ألقاب كبار التجار ، وكذلك « شرف الرؤساء فى العالمين » وفخر الأعيان » ، وفخر الرؤساء ، و «فخر الصدور » ، «ومجد الرؤساء » ،و« مجد الصدور »؛ و « مقرب الحضرتين » إذا كان مترددا بين مملكتين ، و مقرب الدول وهذا اللقب الأخير أعم من سابقه وهو أيضا ناصح الملوك والسلاطين »(١) . ومن بين ألقابه « المحتشم » ويذكر صاحب « صبح الأعشى » أنه من الألقاب التى اصطلح عليها لتجار الفرنج بالذات ، والمقصود بذلك الرئيس الذى له خدم وحشم (٢) .

وإذا كانت وثائق «صبح الأعشى » قد أمدتنا بمادة وفيرة فى هذه الناحية تعبر عن وجهة نظر كاتب مصرى عاش فى أواخر العصر الوسيط ، فهناك من الجانب الآخر وثيقة باللاتينية ترجع إلى نفس الوقت تقريبا كتبها أحد التجار الإيطاليين عنوانها « التاجر » تعزز ما جاء فى كتاب القلقشندى . وتعاصر الوثيقة المذكورة سقوط القسطنطينية فى أيدى الأتراك العثمانيين وانتهاء حرب المائة عام بين إنجلترا وفرنسا ، أى أنها تعاصر نهاية العصر الوسيط بفسلفته ومثله وتقاليده المعروفة ، وبداية عصر النهضة بمفاهيمه ومبادئه الجديدة المغايرة . إذ تغير وضع التجار كثيراً عما كان عليه من قبل ، وتحسن مركزهم تحسناً ملموساً خلال الأربعمائة سنة الممتدة من القرن الحادى عشر إلى القرن الرابع عشر ، أكثر مما طرأ على أحوالهم من تغيير فى القرون التالية . وغنى عن البيان أن من أهم مظاهر العصر الوسيط المتأخر هو قيام طبقة التجار التى كان التجار الإيطاليون

---

(١) انظر صبح الأعشى ـ جـ٦ ـ ص ١٠ و ١٣ و ٣٨ و ٣٩ و ٤١ و ٤٢ و ٥٢ و ٥٥ و ٥٦ و ٦٢ و ٦٨ و ٦٩ و ٧١ و ٧٣ .

(٢) صبح الأعشى ـ حـ٦ ـ ص ٨٣ . وقد ذكر القلقشندى أن الألقاب السابقة تطلق على التجار بصفة عامة ومن بينهم تجار الفرنج بطبيعة الحال ، اللهم الا اذا حدد التجار الفرنج . وعلى هذا فالألقاب المذكورة تنسحب على تجار الجمهوريات البحرية الايطالية ، كالبندقية وجنوة وبيزة ، الذين كانوا يتعاملون مع مصر مثلما تنطبق على غيرهم من التجار .

طليعتها ، واحتلال هذه الطبقة الجديدة مكانة مرموقة فى المجتمع مما جعلها تسيطر على اللوردات الإقطاعيين فى الغرب ، وتشكل المجتمع هناك تشكيلا يختلف تماماً عما كان سائداً من قبل .

وتتعرض هذه الوثيقة الهامة للتاجر ومهنته ، وهى تدعم ماجاء فى وثائق « صبح الأعشى » وتسد فى نفس الوقت الفجوات التى لم ترد بها . يذكر الكاتب الإيطالى أن التاجر يجب أن يكون مستعداً للتضحية بكل شىء فى سبيل الصالح العام ، مبينا أن ما أصابته الجمهوريات الإيطالية من تقدم ورخاء إنما يرجع الفضل فيه إلى التجارة . ذلك أن التجارة تؤدى إلى تلبية الاحتياجات المتبادلة بين المدن والبلدان . ويقوم التجار بدور هام فى هذا الشأن . فهم الذين يجلبون معهم فى رحلاتهم وأسفارهم كميات وافرة من العملات والمجوهرات ومختلف أنواع المعادن كالذهب والفضة وهم الذين يهيئون سبل العيش والرزق للفقراء والمعوزين . كذلك يؤدى تصديرهم للبضائع واستيرادهم لها إلى ازدياد حصيلة الفوائد والرسوم الجمركية التى تقوم الجمهوريات المشتغلة بالتجارة بجبايتها ، فتمتلىء خزائنها بالمال ، وتنتعش أحوالها . وإذا كان للتجارة مزاياها فهناك صفات يجب توافرها فى التاجر ، من أهمها حسن التدبير ، والاقتصاد دون تقتير أو تبذير ، والثبات . والاعتدال ، والاستقامة والإخلاص . فكل هذا يساعد على إنماء ثروتهم وتحسين أحوالهم . يضاف إلى ما تقدم أن التاجر يجب أن يتعاون بإخلاص مع من يتعامل معهم فى حياته الخاصة والعامة . ففى المجال الخاص يجب أن يرتبط بأسرة شريفة فى حياة مستمرة مثمرة . وفى المجال العام يجب أن يتعاون تعاونا صادقا مع غيره من أرباب المهن والحرف ، ومع سادة المجتمع من رجال الدنيا والدين . ويشترط فى التاجر أن يكون مثقفا صالحا . فالتاجر المثقف الصالح يفد عليه الجميع من كل مكان لرؤيته والتعرف عليه والتحدث معه والاستماع إليه والإفادة منه ، طالما هم بحاجة إليه [وإلى خبراته التى اكتسبها من أسفاره ومن ممارسته للتجارة . وفى ختام الوثيقة يشير إلى السمعة الطيبة والسيرة الحسنة والثقة الكبيرة التى

يجب أن يتمتع بها التاجر فى عمله وفى علاقاته بالآخرين . ويقول إن إيصالا عاديا لأحد التجار الموثوق بهم يعتبر إيصالا قانونيا معترفا به دون أى شهود أو إثباتات ، فى حين تنعدم الثقة فى أى شخص آخر مهما كانت رتبته ما لم تكن هناك ضمانات وتحوطات كافية . وحتى يحافظ التاجر على هذا المركز الرفيع الذى يتمتع به يجب أن يخلص نفسه مما لا يليق بكرامته وشرف مهنته . فيكون جادا فى حديثه ، متزنا فى خطواته ، محافظا على شرفه ، معتدلا فى تصرفاته ، حسنا فى سيرته . (١)

وللمتسائل أن يقول : هل كانت هذه المثل العليا فى ميدان التجارة والتى أشار إليها كل من القلقشندى والكاتب الإيطالى تراعى على طول الخط؟ الواقع أنها كثيرا ما كانت تنتهك ، مما يكشف عن الفجوة الواسعة بين النظرية والتطبيق فى مجتمع العصور الوسطى . لقد سبق الكاتبين المسلم والمسيحى ، واعظ من الرهبان الفرنسسكان عاش فى القرن الثالث عشر يدعى برتولد أوف ريجنسبورج Bertholdof Regensburg. وتحدث فى إحدى عظاته عن أهمية الثقة والسمعة الطيبة فى التجارة ، وضرورة تمسك التجار بالقيم والمثل العليا من حيث الأمانة وعدم الغش ومراعاة الذمة والضمير فى عملهم . ثم يقول إن هذه المثل لم تكن تراعى تماماً . ويتحدث عن الوسائل العديدة التى كان التجار يلجأون إليها لخداع الشعب المسكين والحصول على السلع بأرخص الأثمان . ويعلق أحد المؤرخين الغربيين المحدثين ، وهو جورج جوردون كولتون G. G. Coulton على ذلك قائلا إن ما أكده ريجنسبورج فى القرن الثالث عشر ، كان لايزال هو الوضع القائم خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، اللذين انتهت بهما العصور الوسطى وبدأت تباشير عصر جديد(٢) .

---

(١) انظر الترجمة الانجليزية للوثيقة المذكورة فى كتابى Downs, N. (ed.), Basic Documents in Medieval History (New York, 1959), 184-6; Lopez & Raymond (trans.), Medieval Trade in the Mediterranean World, 416-8.

(٢) انظر كولتون : عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة (الترجمة العربية) ط . ثانية – ص ١٩٧ – ١٩٩ و ٢١٣ – ٢١٤ .

ولكن فى أواخر القرن الخامس عشر يحدث تغيير هام كانت له آثاره الخطيرة فى التاريخ والاقتصاد العالمى وقد ترك أثره فى العلاقات بين مماليك مصر والجمهوريات التجارية الإيطالية : فى عام ١٤٩٨ م تمكن فاسكو دى جاما Yascoda Gama البرتغالى من تطويق رأس الرجاء الصالح والالتفاف حول طرف افريقية الجنوبى فى طريقه إلى الهند : ولقد أدى اكتشاف البرتغاليين لهذا الطريق التجارى الجديد من ناحية إفريقية إلى انزعاج المماليك الجراكسة (١) فى مصر وضياع الثروة الهائلة التى كانوا يجنونها من وراء التجارة مع العالم الخارجى بصفة عامة ومع الجمهوريات البحرية الإيطالية بخاصة . وقاموا ببعض المحاولات للدفاع عن كيانهم دون جدوى ، إذ كان الزمام قد أفلت من أيديهم ولم يعد من الممكن إرجاع عقارب الساعة إلى الوراء . وقد ترتبت على ذلك نتائج بالغة الأهمية من حيث ضعف المماليك فى مصر إلى أن انتهى الأمر بزوال حكمهم بعد انتقال التجارة من حوض البحر المتوسط والدول المحيطة بشواطئه إلى المحيط الغربى وأممه . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ؛ أوجدت الثروة الفرصة أمام التجار الإيطاليين والأغنياء لتشجيع العلوم والآداب والفنون ، مما عجل بزوال آخر آثار العصر الوسيط ومهد لظهور عصر النهضة فى التاريخ الأوروبى الذى مهد بدوره للعصر الحديث ومدنيته الزاهرة . (٢)

---

(١) حكم المماليك الجراكسة من سنة ٧٨٤ الى سنة ٩٢٣ هـ (١٣٨٢ - ١٥١٧م) .

(٢) La Monte, J., The World of the Middle Ages (New York, 1949), 732; Painter, S., A History of the Middle Ages: 284-1500 (London, 1966), 477-8; Mackie, J. D., The Earlier Tudors: 1485-1558 (Oxford, 1966), 4, 224; Bailly, A., La Sérénissime République de Venise (Paris, 1946), 167-70.

٨

نظرة جغرافى فى "صبح الأعشى"

بقلم: الدكتور محمد محمود الصياد *

لم يكن شهاب الدين أبو العباس أحمد بن على القلقشندى رحمه الله جغرافيا ، ولا هو ادعى ذلك . وإنما هو مؤلف متنور يرى فى الجغرافية أداة ضرورية لتكوين الكاتب المثالى ، وكان ذلك الكاتب على عهد القلقشندى هو النموذج الطيب للرجل المثقف بلغة العصر الحديث.

فالجغرافية إذن أساس رئيسى من أسس الثقافة العامة ، ولا تكتمل ثقافة المرء إذا لم يأخذ منها بنصيب كاف ، ولهذا فلم يكن غريبا أن يفرد لها القلقشندى المقالة الثانية من المقالات العشر التى تضمنها كتابه « صبح الأعشى فى صناعة الإنشا » ، وهى مقالة طويلة تشمل نصف الجزء الثالث والجزء الرابع بأكمله ومعظم الجزء الخامس من الكتاب فى طبعته التى نشرتها دار الكتب المصرية فى أربعة عشر جزءا ، وهى بهذا تشغل نحو ١٥ ٪ من صفحات الكتاب الكبير ، يضاف إلى هذا فصول أخرى متفرقة ذات صلة وثيقة بالجغرافية ، وإن لم يدرجها القلقشندى فى المقالة الخاصة بها وكذلك الفصل الذى ورد فى خاتمة الكتاب والذى يتحدث فيه المؤلف عن وسائل النقل والمواصلات ، هذا فضلا عما يتفرق فى الكتاب بصفة عامة من معلومات جغرافية متنوعة ، تختلف باختلاف الموضوعات التى يتناولها القلقشندى بالبحث فى فصول الكتاب ومقاصده وجمله ومهايعه ، إلى غير ذلك من الأقسام التى يقسم إليها المؤلف كتابه.

منهج القلقشندى الجغرافى

يقسم القلقشندى مقالته فى الجغرافية أو فى « المسالك والممالك » كما سماها إلى أربعة أبواب ، الأول فى ذكر الأرض على سبيل الإجمال والثانى فى ذكر الخلافة ومن وليها من الخلفاء ومقراتهم ، والثالث

فى ذكر مملكة الديار المصرية ، أما الباب الرابع فموضوعه الممالك والبلدان المحيطة بمملكة الديار المصرية .

والواقع أن هذا المنهج الذى اختاره القلقشندى لمقالته منهج سليم إلى حد بعيد من وجهه النظر الجغرافية ، فهو يبدأ بالصورة العامة للأرض وما اشتملت عليه من الأقاليم الطبيعية ، ويعنى بصفة خاصة بالبحار التى يتكرر ذكرها بذكر البلدان ، سواء ما كان منها خارجا من البحر المحيط ، أو ماليس له اتصال بهذا البحر ، ثم يفرد فصلا خاصاً بكيفية استخراج جهات البلدان والأبعاد الواقعة بينها ، فإذا وضعنا فى الذهن أن القلقشندى لم يكن يستهدف وضع كتاب لأصحاب الجغرافية ، بل كان هدفه تصنيف المعلومات الجغرافية العامة التى يحتاج إليها الكاتب ، لأدركنا أهمية هذا الفصل الخاص بالعموميات فلا معنى أن نعرف بلداً بأنه يقع على البحر الفلانى ، فى حين أن البحر الفلانى نفسه غير معروف لمن نتحدث إليه .

وقد يعترض البعض على القلقشندى فى تخصيصه الباب الثانى من المقالة لذكر الخلافة ومن وليها من الخلفاء ومقراتهم ، ويرى أنه أقحم على المقالة إقحاماً ، والواقع أن فى هذا ظلماً للقلقشندى ومنهجه ، فالرجل فى نظرنا لم يقصد أن يتحدث عن الخلافة كخلافة ، وإنما قصد أن يتحدث عن « الجغرافية السياسية » للدولة الإسلامية ، وكيف نشأت هذه الدولة ، ثم اتسعت رقعتها على عهد الخلفاء الراشدين ومن جاء من بعدهم من خلفاء بنى أمية فى الشام ، وخلفاء بنى العباس فى العراق وخلفاء الفاطميين بمصر ، والخلفاء الأمويين فى الأندلس ، وكيف تغيرت عواصم هذه الدولة من عصر إلى عصر بتغير البيت المالك . ولو أن جغرافياً أراد أن يرسم خريطة لحدود الدولة الإسلامية وتطورها على مر العصور لما وجد مصدراً يتصف بالإيجاز الواضح يعينه فى رسم خريطته أفضل من الباب الذى كتبه القلقشندى عن الخلافة .

وكان طبيعياً بعد أن رسم القلقشندى بالكلمة خريطة الدولة الإسلامية أن يفرد باباً لجغرافية الديار المصرية ومضافاتها ، أو ما يدخل تحت حكمها

بلغة العصر الحديث . ويعد هذا الباب من أهم أقسام « صبح الأعشى » بل إنه لايزال حتى الآن يقف فريداً فى بعض نواحيه ، وهو يبدأ بذكر فضائل مصر ومحاسنها على عادة الكتاب فى عصره والعصور التى سبقته ، وربما ذهب بعض الجغرافيين المحدثين إلى أن هذه الطريقة فى الكتابة لا تتفق مع المنهج العلمى السليم ، ونحن نوافقهم من وجهة النظر الجغرافية المحضة ، ولكننا من ناحية أخرى نرى فى هذا الأسلوب طريقة لتربية الإحساس بالوطن والاعتزاز به ، ولا تقوى النزعة الوطنية فى شعب من الشعوب إلا إذا هو أحب الوطن الذى يعيش على ترابه ، وعرف الكثير من محاسنه وما يتميز به عن سائر الأوطان .

وبعد أن يشبع القلقشندى هذه الرغبة فى نفوس قرائه بما يورده من آيات قرآنية وأحاديث نبوية يلتفت إلى النيل صانع الحياة فى مصر ومغذيها على الأيام فيتحدث عن فيضانه والمقاييس المقامة عليه والخلجان المتفرعة منه والجسور الحابسة ؛ ليخلص من هذا إلى وصف الأراضى المصرية وإنتاجها والأقسام الإدارية التى تنقسم إليها ، ويعطى صورة لجغرافية البلاد الاقتصادية على عهد الأيوبيين والمماليك .

فإذا ما وفى الرجل وطنه الصغير حقه من الدرس ، انتقل إلى وطنه الإسلامى الكبير بادئاً بالديار الشامية التى تتاخم حدود وطنه الأول والتى تربطها به كثير من الوشائج ، فيتحدث عنها وعما يتصل بها من بلاد الجزيرة الفراتية وبلاد الثغور والعواصم ، وهى التى تعرف الآن بأرمينيا ، وبلاد الدربندات أى بلاد الروم ، ومنهجه فى هذا الحديث هو نفس المنهج الذى سار عليه فى وصف مصر فهو يفصل الحديث عن فضائل بلاد الشام وأنهارها وبحيراتها وجبالها المشهورة ، وأعمالها والكور التى تنقسم إليها وزروعها وفاكهتها ، وهو فى هذا كله دقيق الملاحظة ، معنى بالتفصيلات ، حريص على أن يقارن بين مصر والشام كلما دعت الحاجة إلى ذلك ؛ فنهر « العاصى » حمل هذا الإسم لأنه لايسقى الأرض إلا بطريق السواقى بعكس النيل الجواد الذى يفيض بمائه فيملأ الأحواض ، وفى الشام من المزروعات ما ليس بمصر .

من ذلك البندق والأجاص والزيتون وهو كثير جداً ، ولا يوجد بها البلح والرطب أصلا ، كما لا يزرع فيها الكتان .

وبنفس المنهج الذى اختطه القلقشندى لنفسه يتحدث عن البلاد الحجازية ، وما ينخرط فى سلكها ، إذ كان الحجاز حتى ذلك العهد فى دائرة النفوذ المصرى ، وللحجاز مكانة خاصة فى نفس كل مسلم ؛ فهو مهبط الوحى ومولد الرسول ومقر الكعبة التى إليها قبلة المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، والحج إلى مكة ركن من أركان الإسلام ؛ ومن ثم فهى جديرة بحديث طويل عن خططها وكعبتها ومشاعر الحج الخارجة عنها ، ولكن الحجاز نفسه هو أيضاً خليق بدراسة مياهه وعيونه وجباله وزروعه وفواكهه ومواشيه ووحوشه ومخاليفه ومدنه وقراه .

ولكن الأمبراطورية المصرية لاتقوم فى العالم وحدها بل إنه يحيط بها بلدان وممالك مختلفة تربطها بها علاقات طيبة حيناً وسيئة فى بعض الأحيان ، وحتى إذا لم تكن هذه العلاقات قائمة ، فإن المثقف لابد له من الوقوف على أحوال هذه البلاد ليدرك مكانة بلاده فى العالم الذى يعيش فيه . ولهذا نجد القلقشندى ينتقل فى الباب الرابع إلى الحديث عن الممالك والبلدان المحيطة بالدولة المصرية من الجهات الأربع والطرق الموصلة إليها ، ويبدأ بما يقع منها فى جهة الشرق ، فيتحدث عن الممالك الصائرة إلى بيت جنكيزخان ــ أى أراضى الأمبراطورية المغولية ــ ويقسمها مملكتين هما : إيران « التى تمتد من نهر جيحون المحيط بآخر خراسان إلى الفرات القاطع بينها وبين الشام » والتى تنقسم إلى ستة أقاليم . ثم مملكة توران بأقسامها الثلاثة. ويذكر أنه يدخل فيها «ممالك كثيرة وبلاد واسعة وأعمال شاسعة وأمم مختلفة لاتكاد تحصى » ويتحدث بإسهاب عن هذا الجزء من العالم فيعطى صورة جيدة لدولة الأردو الذهبى .

ثم يعود القلقشندى إلى جزيرة العرب فيتحدث عن الممالك القائمة فيها ، مما هو خارج عن مضافات الديار المصرية ، فيتحدث عن اليمن وبلاد الخليج العربى بما فى ذلك عمان ، ثم يتناول مملكة الهند ومضافاتها

ويقسمها إلى إقليمين عظيمين هما : إقليم السند وما انخرط فى سلكه من مكران وطوران والبدهة وبلاد القفس والبلوص ، ثم إقليم الهند ويقصد به شبه الجزيرة التى تمثل معظمها هضبة الدكن .

ويلى ذلك فصل عن البلاد التى تقع إلى الغرب من الديار المصرية وما سامت ذلك ووالاه من جهة الشمال ، وهى مملكة تونس المشتملة على بلاد إفريقية ، ومملكة تلمسان وتشمل المغرب الأوسط ، ومملكة فاس وتشتمل على بلاد المغرب الأقصى حتى البحر المحيط ، وهو التقسيم الذى لايزال معمولا به حتى الآن فى الشمال الإفريقى حيث تنقسم بلاد المغرب إلى وحداتها الثلاث : تونس والجزائر والمملكة المغربية . ولا يفوت القلقشندى أن يتحدث فى هذا الفصل عن ممالك جزيرة الأندلس وما بقى منها بيد المسلمين وما استعادته منها أوربا المسيحية .

أما البلاد الواقعة إلى الجنوب من الديار المصرية فتضم بلاد السودان بمعناها الواسع أى من ساحل البحر الأحمر إلى ساحل المحيط الأطلنطى وتضم بلاد البجا والنوبة والبرنو والكانم ومالى . والحبشة .

وإلى الشمال من مصر يصف القلقشندى بعض الجـزر الموجودة فى البحر المتـوسط ، ومنهـا : قبرص ورودس واقريطش وهى كريت الحالية وصقلية وسردانية وقورسقه (كورسيكا) ثم يصف بلاد الروم (آسيا الصغرى) ثم يتطرق إلى الحديث عن الألمان والبنادقة والجنويين ورومية ، ونجده فى الحديث عنها يشير إلى أن مصدره هو هورشيوش مؤرخ الروم . ولعلها المرة الوحيدة فى المقالة الجغرافية التى يشير فيها القلقشندى إلى مصدر غير عربى ، ثم يواصل صاحبنا الحديث عن البلاد الأوربية الأخرى فيتكلم عن مملكة الفرنج القديمة وهى فرنسا ومملكة الجلالقة (غاليسيا) ومملكة اللنبردية (لمبارديا) ثم ينتقل إلى ما يقع من أوربا فى شمال القسطنطينية والبحـر الأسود أو بحر نيطش إلى نهاية المعمور فى الشمال ، فيتناول بلاد الجركس والبلغار والصرب والصقالبة والجولمان والروس والباشقرد ، ويلاحظ أن حديثه

عن هذه البلاد يتسم بالإيجاز ، وهذا هو المنتظر ؛ فقد ظلت المعلومات عن هذه البلاد قليلة حتى عهد قريب ، ولكن الذى نعجب له أن بلاد الجركس لا تظفر منه بأكثر من خمسة سطور يذكر فيها أن « الظاهر برقوق صاحب الديار المصرية جلب منهم من المماليك أيام سلطنته ما يربو على العدد حتى صار منهم معظم جند الديار المصرية ، وصاربهم جمال مواكبها ، والملك باق فيهم إلى الآن » . أفلم تكن بلاد هؤلاء وهم جند مصر وأصحاب الشأن فيها جديرة بأن يدرسها القلقشندى بشىء من التفصيل بدلا من سطور معدودة ينقلها عن السلطان عماد الدين صاحب حماه ؟ ولو أن القلقشندى حاول هذه المحاولة لما أعجزته المصادر فيما نظن ، فقد كانت حركة جلب المماليك مستمرة . وكان « الجلابون » يتوافدون على مصر دون انقطاع ،وكان فى استطاعة القلقشندى أن يجمع الشىء الكثير عن طريق الرواية والسماع عن بلاد الجركس وخصائصها وظروف الحياة فيها .

مصادر القلقشندى :

وأهم ما يلاحظ على القلقشندى أنه كاتب أمين ، ينسب كل منقولاته إلى أصحابها لايدعى منها شيئاً لنفسه ، والجغرافية علم واسع الحدود حتى ليمكن للجغرافى أن يخرج من أى كتاب بفائدة جغرافية ابتداء من كتب اللغة والفقه حتى كتب الرياضة والفيزياء ، وقد أفاد القلقشندى فائدة محققة من الكتب العديدة التى نظر فيها ، وهو عادة يذكر الكتب مقرونة بأسماء مؤلفيها ، ولكنه قد يخرج عن هذه القاعدة أحياناً فيكتفى بذكر اسم الكتاب أو اسم المؤلف ، وربما كانت هذه الكتب مشهورة على عهده فاعتقد أن اسم الكتاب يغنى عن اسم مؤلفه وبالعكس ، ومن هذه الكتب التى لم يذكر أسماء مؤلفيها : الروض المعطار والقانون ، وتاريخ النيل ، ورسم المعمورة ، وغيرها .

ونلتقى فى القسم الجغرافى من صبح الأعشى بكثير من الكتب التى تنتمى إلى المدارس الجغرافية المختلفة : نلتقى بالمسالك والممالك لابن

خرداذبة ، والمسالك والممالك لابن حوقل ، ومروج الذهب للمسعودى ، وصفة جزيرة العرب للهمدانى ، والمسالك والممالك للمهلبى ، ومعجم مااستعجم للبكرى ، ونزهة المشتاق للادريسى ، والروض المعطار للحميدى ومعجم البلدان لياقوت ، وتحفة الألباب ونخبة الإعجاب لأبى حامد الغرناطى ، وتقويم البلدان لأبى الفدا صاحب حماة ، ومسالك الأبصار للعمرى ، وغير ذلك كثير من كتب الجغرافية العامة واللغويةو التاريخية والإقليمية .

وإلى جانب هذه المدرسة الوصفية نجد المدرسة الجغرافية الرياضية ولكن اهتمام القلقشندى بها محدود ، وحسنا فعل ، فهو يكتب لفئة خاصة من القراء ، ليس هناك ما يدعو إلى الإثقال عليهم بالزيجات والجداول الرياضية . ويبدو من كتابة القلقشندى أنه كان لايزال من المؤمنين بنظريات بطليموس فى الجغرافية الكونية (الكوزموجرافية) مع أن التقدم الذى شهدته الجغرافية العربية منذ القرن الرابع الهجرى كان قد غير كثيراً من هذه النظريات ، وأثبت الواقع الجغرافى عدم صحة جزء كبير منها .

وينقل القلقشندى عن « المجسطى » لبطليموس القلوذى ، وكان هذا الكتاب من أوائل ما ترجم العرب فى الجغرافية على عهد المأمون ، ولكن اعتماد القلقشندى أكثر ما يكون فى تناوله للجغرافية الرياضية على « القانون المسعودى » لأبى الريحان البيرونى . وبين الحين والحين نجد القلقشندى يعتمد على بعض المصادر التى كانت تهتم بالمادة الأسطورية أكثر من اهتمامها بالجانب العلمى مثل : « مختصر العجائب » لابن وصيف شاه ، « وعجائب المخلوقات » لابن الأثير . « والروض المعطار فى أخبار الأقطار » للحميرى .

القلقشندى وعلم الأسماء الجغرافية Onomastics :

والقلقشندى مغرم إلى حد كبير بدراسة الأسماء الجغرافية وتعليلها ، وقد أصبحت هذه الدراسة فرعاً من فروع الجغرافية الحديثة ، ويروى الرجل جميع ما يعرفه من تفسيرات للأسماء ، وقد ينفرد هو بتفسير

خاص فمثلا يذكر عن مصر: «أما تسميتها مصر فقيل أن نقراووس ابن مصريم أول ملوكها قبل الطوفان حين عمرها سماها باسم أبيه مصريم تبركاً . . . . . وأكثر المؤرخين على أنها سميت بمصر بن بيصر حام بن نوح عليه السلام ، وعلى الوجهين تكون علماً منقولا عن اسم رجل ، ثم يروى الجاحظ فى رسالته التى كتبها فى مدح مصر والذى يرى فيها أن مصر سميت بهذا الاسم لمصير الناس إليها : ثم يدلى القلقشندى بدلوه هو فيقول : «ويجوز أن تكون سميت مصر لكونها حداً فاصلا بين المشرق والمغرب إذ المصر فى أصل لغة العرب اسم للحد بين الأرضين ، ومنه قول أهل هجر : اشتريت الدار بمصورها أى بحدودها » : وعندى أن رأى القلقشندى أكثر وجاهة من رأى الآخرين.

أما «الشام» فقد اختلف فى سبب تسميته شاما . . . . . قيل سمى بسام بن نوح لأنه نزل به واسمه بالسريانية شام بشين معجمة والعرب تنقلها إلى السين المهملة ، وقيل لأن أرضه مختلفة الألوان بالحمرة والسواد والبياض فسمى شاما لذلك كما يسمى الخال فى بدن الإنسان شامة . وقيل سميت شاما لأنها من شمال الكعبة والشام لغة فى الشمال :

وسمى «التنعيم» وهو من حدود الحرم المكى بهذا الإسم لأن الجبل الذى عن يمينه اسمه نعيم ، والذى عن يساره اسمه ناعم ، والوادى الذى هو فيه اسمه نعمان ، وسميت «المزدلفة» بذلك التزلف والازدلاف وهو التقرب ، لأن الحجاج إذا أفاضوا من عرفات ازدلفوا إليها لجمع الجمرات .

وحتى الجهات الأربع الأصلية لايفوت القلقشندى أن يعلل أسماءها ، فالشرق سمى بذلك لشروق الشمس منه وكذلك الغرب لغروبها فيه وهما المشرق والمغرب كذلك . أما جهة الشمال وهى التى إذا استقبلت المشرق كانت على شمالك ويقال لها الشام أيضاً لأن الشام كانت فى جهة الشمال من بلاد العرب فسميت الجهة به ، وأهل مصر يسمون

هذه الجهة البحرية لكونها جهة البحر الرومى أو تسمية لها باسم الريح التى تهب منها ، فهم يسمون الريح الذى تهب من الشمال البحرية لأنه يسار بها من البحر كيف كان . أما جهة الجنوب فهى التى إذا استقبلت المشرق كانت على جانبك الأيمن ، ولم يسم بالأيمن كما سمى مقابله بالشمال لأنه لما ذكر الشمال لم يبق إلا الجانب الأيمن فاستغنى عن ذكره ، وأهل مصر يسمون هذه الجهة القبلية لوقوعها فى جهة قبلتهم ، وللثلاث يبدءون بها فى التحديد ، وكان الأصل الابتداء بالمشرق لأن منه مبدأ حركة الفلك .

وهكذا يمضى القلقشندى باحثاً دقيقاً عن علل الأسماء وأسبابها فى عبارة واحدة ومنطق سليم ، فيسهم فى تكوين فرع من فروع الجغرافية لم تهتم به أوربا إلا فى العصر الحديث ، وقد أهملنا نحن الجغرافيين العرب هذا الجانب من الدراسة ونسينا أن أجدادنا كانوا من أول من عنى به ، فقد نشأت الجغرافية العربية لغوية فى أول أمرها ، ولم يلتفت إلى هذه الناحية فى العصر الحديث سوى رجل ليس من أصحاب الجغرافية وهو المرحوم محمد رمزى صاحب « القاموس الجغرافى للبلاد المصرية » .

الجغرافية الطبيعية :

وللقلقشندى اهتمامات بالجغرافية الطبيعية ، ولكنه يقتصر على الجانب الوصفى منها دون الجانب التحليلى ، ويرجع ذلك إلى طبيعة ثقافته من جهة وإلى الغرض الذى وضع له كتابه من جهة أخرى ، ولهذا فهو يبدأ بذكر البحر المحيط وما يخرج منه من بحار وما يتفرع منها من خلجان ثم لايتناول قطراً إلا ويذكر جباله المشهورة وبحيراته وأنهاره ، وهو فى تناوله للأنهار يتحدث عن منابعها ومصباتها وأطوالها ، بل وأحيانا يتتبع إنحناءات النهر واتجاهاته . ولكن دوره فى كل هذا يتعدى دور الوصاف الذى يتعب نفسه فى البحث عن العلل والأسباب .

الجغرافية الإدارية :

والرجل أكثر اهتماما بالجغرافية الإدارية وجغرافية المدن ؛ فهو فى حديثه

عن مصر والشام والحجاز وغيرها يتناول الأقسام الإدارية فى كل منها ، وما فى كل قسم من كور ونواح وأعمال مستقرّة ، ويتحدث عن أطوالها وعروضها ، وعما اشتهرت به من منتجات ، وعمن أنجبت من رجال ، وقد يتطرق به الحديث إلى ذكر تاريخها وآثارها ومكانها فى التاريخ العام للدولة ، ولايفوته فى واحدة منها أن يضبط اسمها ليجنب القارىء أى خطأ فى نطق الإسم ، وله فى هذا الحديث إشارات لطاف ومقارنات تدل على الدقة واليقظة ، فهو مثلا فى حديثه عن منوف يقول : وربما غلط بعض الناس فظن أنها منف .. وبينهما بعد كثير » (١) ويعلق على كلام العمرى عن المحلة الكبرى بقوله : « ووقع فى التعريف التعبير عنها بمحلة المرحوم وهو وهم ، وإنما هى قرية من قراها » (٢) أما أسيوط « فإثبات الألف فيها هو الجارى على ألسنة العامة بالديار المصرية والثابت فى الدواوين حذفها » (٣) .

وما دام الرجل يتحدث عن التقسيم الإدارى فهو يرى أن الضرورة تدعو إلى أن يقف القارىء على ترتيب الديار وكيفية إداراتها ، وأرباب الوظائف كنواب السلطنة والكشاف والولاة وغيرهم ، والسلطات المخولة لكل منهم . وينجح القلقشندى فى رسم صورة حية للجغرافية التاريخية للبلاد التى تحدث عنها فى العصر الذى عاش فيه ، ويصبح صبح الأعشى من المصادر التى لايمكن أن يستغنى عنها دارس الجغرافية التاريخية لمصر أو الشام فى عصر المماليك .

الجغرافية الاقتصادية :

والقلقشندى أكثر ما يكون حفاوة بالجغرافية الاقتصادية . فهو عندما يتحدث عن الديار المصرية مثلا يعنى بالحديث عن نهر النيل وزيادته ونقصه ، وما تنتهى إليه الزيادة ويبلغه النقص ، وكيفية قياس مناسيبه ،

---

(١) جـ ٣ / ٤٠٥ .
(٢) جـ ٣ / ٤٠٦ .
(٣) جـ ٣ / ٣٦٦ .

والخلجان المتفرعة منه ، والجسور الحابسة لمياهه عن الأرض إلى حين استحقاق الزراعة ، وأصناف الأراضى وما يختص بكل صنف منها ؛ ومزارعها وأصناف مزروعاتها وأحوال زرعها وأسعار الغلات ، والعملة المستعملة ، وما يتعامل به وزنا من الدنانير المسكوكة أو ما يتعامل به معادة ، والموازين والمكاييل والمقاييس المستخدمة فى عمليات البيع والشراء . والميزانية العامة للدولة ومصادرها المختلفة من المال الخراجى ، وما يتحصل من استخراج المعادن والزكاة والمكوس المفروضة على التجار الواصلين فى البحر إلى الديار المصرية أو القادمين عن طريق الشام ، إلى غير ذلك من النواحى التى يستطيع أن يخرج منها الجغرافى بصورة كاملة عن جغرافية مصر الاقتصادية على عهد المماليك ، وهو موضوع أرجو أن تتاح لى فرصة دراسته فى يوم من الأيام .

وينعى القلقشندى على البلاد إهمالها للجسور البلدية ، وهى الجسور التى يتولى عمارتها المقطعون بالبلاد من الأموال الجارية فى قطاعهم فيقول : « وقد أهمل الاهتمام بأمر الجسور فى زماننا وترك عمارة أكثر الجسور البلدية ، واقتصر فى عمارة الجسور السلطانية على الشىء اليسير الذى لا يحصل به كبير نفع ، ولولا ما من به الله تعالى على العباد من كثير الزيادة فى النيل من حيث أنه صار يجاوز تسعة عشر ذراعا فما فوقها إلى ما جاوز العشرين . لفات رى أكثر البلاد وتعطلت زراعتها » . (١)

ويذكر القلقشندى تصنيفاً للتربة المصرية منقولا عن ابن مماتى يتضمن ثلاثة عشر صنفاً تختلف باختلاف الزراعة وعدمها ، وبسبب ذلك تتفاوت الرغبة فيها وتختلف قيمتها باختلاف مايزرع فيها. ولا يقوم التصنيف الذى يورده القلقشندى على الخصائص الطبيعية للتربة وإنما أساسه فى المقام الأول مبلغ تمتعها بمياه النيل والغلة التى سبق زرعها فيها . ويتحدث عن أنواع من الأرض تطرق إليها الفساد بسبب الظروف الطبيعية المحيطة بها كأرض

---

(١) جـ ٣ / ٤٤٥ .

« الخرس » التى فسدت بما استحكم فيها من مواقع الزرع وهى التى تسمى علميا بالأرض القلوية ولايزال وصف الخرس مستعملا للدلالة عليها فى الريف المصرى . « والمستبحر » وهى الأرض السيئة الصرف ، والتى يقول عنها القلقشندى : إنها أرض واطئة إذا حصل المـاء فيها لا يجد مصرفا له عنها ، فيمضى زمن المزارعة قبل زواله بالنضوب » (١) ثم هناك « السباخ » وهو أرض غلب عليها الملح حتى لم يعد ينتفع بزراعتها » وهى فى نظر القلقشندى أردأ أنواع الأرض ، وهى ليست كذلك الآن فقد أصبحت الأراضى الملحة مع التقدم العلمى من أسهل أنواع الأراضى استصلاحاً .

ولعل مما يدعو إلى العجب أن يتحدث القلقشندى عن بحيرة الفيوم ، وهى بركة قارون فيذكر أنها بحيرة حلوة (٢) مع أنها أكثر بحيرات مصر ملوحة . ولا نعرف كيف سبق القلم بالقلقشندى إلى هذا الحكم ولكنها هفوة تغتفر هى وغيرها بجانب حسناته الكثر . والحسنات يذهبن السيئات .

ألا رحم الله القلقشندى فقد ترك للعربية موسوعة علمية ضخمة لاتزال بعد أن مضى عليها أكثر من خمسة قرون منهلا عذبا يرده الباحث عن المعرفة فيجد فيه ما يبل الغلة ويشفى الظمأ .

---

(١) جـ ٤٤٨/٣ .
(٢) جـ ٣٠٣/٣ .

٩

الجانب الأدبى فى "صبح الأعشى"

بقلم: الدكتور مصطفى الشكعة

إن المتتبع لدراسة الموسوعة الأدبية التاريخية السياسية الجغرافية الاجتماعية التى أسماها مؤلفها «كتاب صبح الأعشى فى كتابة الإنشا» لايكاد يخطىء الفكرة التى أمات على القلقشندى تأليف هذا الكتاب وتصنيفه : فالإنشاء فرع من فروع الكتابة ، والكتابة فن أدبى واسع الأطراف متشعب المنهاج متعدد الأهداف ، نشأ وترعرع وأثمر وأينع فى رحاب الحضارة العربية الإسلامية ، وصارت له أحكام ومعايير وأعماق ، كما أنه أفاء على الكيان العربى بسطة من خيراته الوفيرة وحصادا من ثماره الجنية .

والقلقشندى المؤلف المصرى العربى بدأ أديباً كاتباً قبل أن يصير مؤلفا أو مصنفا ، بل إن فكرة تأليف « صبح الأعشى » ليست إلا وليدة عمل أدبى للقلقشندى هو مقامة أدبية عمد فيها إلى الحديث عن فن الكتابة وتعلم الإنشاء . والمقامات — كما يعرف الكثيرون — فن أدبى خالص ابتكره أديب العربية الكبير أحمد بن الحسين المعروف ببديع الزمان الهمذانى الذى ولد ومات فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى (١) ، لقد قدم الهمذانى فى فنه ذلك الذى ابتكره لأول مرة فى تاريخ الأدب العربى القصة القصيرة المتكاملة فنياً ، الممتعة أسلوباً ، وأطلق عليها اسم « مقامة » وكان من الطبيعى وقد افتتن أدباء العربية بهذا الفن الطريف أن يتابعوا الكتابة فيه ، فأنشئت مجموعات من المقامات لصفوة من أدباء العربية أشهرهم : الحريرى وابن ناقيا والزمخشرى وابن الجوزى وابن صقيل الجزرى وابن الوردى والسيوطى وغيرهم .

وإذا كانت المقامة قد أخذت مكانها عند مبتكرها بديع الزمان كأدب

---

(١) ولد بديع الزمان ٣٥٨ هـ ومات ٣٩٨ هـ .

اجتماعى إمتاعى ، فإن أغراضها قد تغيرت وأهدافها قد تنوعت عند غيره من منشئى هذا الفن ممن جاءوا بعده ، فهى عند الحريرى وابن الجوزى لتعليم اللغة ، وهى عند ابن ناقيا لمعالجة الحكمة على ألسنة البهائم ، وعند الزمخشرى للوعظ والإرشاد ، وعند ابن صقيل الجزرى لمعالجة المسائل الفقهيه والحديث والنحو . وهكذا تعددت أغراض المقامات عند كل منشىء من منشئيها بما يساير الهدف الذى استهدفه وبما يتمشى مع الغرض الذى قصد إليه . ولما كان القلقشندى واحداً من هؤلاء الذين أنسوا فى أنفسهم القدرة على كتابة المقامة ، فقد اختار لمقامته موضوعاً يلائم الفن الذى تعشقه وملأ عليه حياته كلها وهو فن الكتابة ، فأنشأ مقامة جعل هدفها ضرورة أن يكون لكل إنسان حرفة يعيش منها، وأن خير حرفة لطالب العلم الكتابة ، وقد عمد القلقشندى فى مقامته التى أسماها « الكواكب الدرية فى المناقب البدرية » إلى تضمينها بيان ما يحتاج إليه كاتب الإنشاء من المواد والمعلومات والإرشادات التى ينبغى أن يتبعها المنشىء لكى يصير حاذقا فى فن كتابة الإنشاء ، وقد أعجبت هذه المقامة رئيس ديوان الإنشاء الذى كان القلقشندى أحد العاملين فيه فأشار عليه أن يتوسع فى الفكرة التى ضمنها مقامته بجعلها كتابا مستفيضا فى فن الكتابة فصدع بالأمر فكانت هذه الموسوعة القيمة التى اختار لها مؤلفها اسم « صبح الأعشى فى كتابة الإنشا » .

ويحكى القلقشندى بأسلوبه قصة إنشاء كتابه فيقول(١) : « وكنت فى حدود سنة إحدى وتسعين وسبعمائه عند استقرارى فى كتابة الإنشاء بالأبواب الشريفة السلطانية ، عظم الله تعالى شأنها ورفع قدرها وأعز سلطانها ، أنشأت مقامة بنيتها على أنه لابد للانسان من حرفة يتعلق بها ، ومعيشة يتمسك بسببها ، وأن الكتابة هى الصناعة التى لا يليق بطالب العلم من المكاسب سواها ، ولايجوز له العدول عنها إلى ما سواها ، وجنحت فيها إلى تفضيل كتابة الإنشاء وترجيحها ، وتقديمها على كتابة الأموال وترشيحها ، ونبهت فيها على ما يحتاج إليه كاتب الإنشاء من المواد ،

(١) صبح الأعشى ١/٨ .

وما ينبغي أن يسلكه من الجواد ، وضمنتها من أصول الصنعة ما أربت به على المطولات وزادت ، وأودعتها من قوانين الكتابة ما استولت به على جميع مقاصدها أو كادت ، وأشرت فيها إلى وجه تعلقي بحبال هذه الصنعة وإن لم أكن بمطلوبها مليئاً ، وانتسابي إلى أهلها وإن كنت فى النسبة إليها دعياً :

وليس دعيّ القوم فى القوم كالذى حوى نسباً فى الأكرمين عريقاً

إلا أنها وقعت موقع الوحى والإشارة ، فعز بذلك مطلبها ، وفات على المجتنى ببعد التناول أطيبها ، فأشار من رأيه مقرون بالصواب ، ومشورته عرية عن الارتياب ، أن أتبعها بمصنف مبسوط يشتمل على أصولها وقواعدها ، ويتكفل بحل رموزها وذكر شواهدها ليكون كالشرح عليها ، والبيان لمـا أجملته ، والتتمة لما لم يسقه الفكر إليها فامتثلت أمره بالسمع والطاعة ولم أتلكأ وإن لم أكن من أهل هذه الصناعة ، غير أن القريحة بذلك لم تسمح ، وصار المقتضى يضعف والمانح يترجح ، لأعذار قد تشابه محكمها ، وضرورات إن لم يعلمها الخلق فالله يعلمها ، إلى أن لاحت لى بوارق الفتح ، وظهرت ولله الحمد آثار المنح ، فعند ذلك بلغت النفس أملها ، وأضفت مواهب الامتنان حللها ، وتلا لسان العناية على الغبي الحاسد « ما يفتح الله للناس من رحمة فلاممسك لها » :

فشرعت فى ذلك بعد أن استخرت الله تعالى « وماخاب من استخار » وراجعت أهل المشورة « وما ندم من استشار » مستوعباً من المصطلح مااشتمل عليه «التعريف» و«التثقيف» موضحاً لما أبهماه بتبيين الأمثلة مع قرب المأخذ وحسن التأليف ، متبرعاً بأمور زائدة على المصطلح الشريف ، لا يسع الكاتب جهلها ، متنقلا من توجيه المقاصد ، وتبيين الشواهد بمـا يعرف به فرع كل قضية وأصلها ، آتياً من معـالم الكتابة بكل معنى غريب ، ناقلا الناظر فى هذا المصنف عن رتبة أن يسأل فلا يجاب إلى رتبة أن يُسأل فيجيب ، منبهاً على ما يحتاج إليه الكاتب من فنون ، التى يخرج بمعرفتها عن عهدة الكتابة ودركها ، ذاكراً من أحوال الممالك المكاتبة عن هذه المملكة ما يعرف به قدر كل مملكة

وملكها ، مبيناً جهة قاعدتها التى هى محل الملك شرقاً أو غرباً، أوجنوباً أو شمالا ؛ معرفاً الطريق الموصل إليها براً وبحراً . وانقطاعاً واتصالا ، ذاكراً مع كل قاعدة مشاهير بلدانها إكمالا للتعريف ، ضابطاً لأسمائها بالحروف كى لا يدخلها التبديل والتحريف ، وسميته « صبح الأعشى فى كتابه الإنشا » راجياً من الله أن يكون بالمقصود وافياً وللغليل شافياً » .

ونحن نستطيع من هذه المقدمة التى كتبها المؤلف أن نضع أصابعنا على أمرين على جانب كبير من الأهمية والخطورة .

الأمر الأول : أن فكرة الكتاب نشأت وتفرعت من أصل أدبى هو « المقامة » وأن مادة الكتاب الغنية بأسباب التنوع ، بنظرة سريعة إليها نجد أن أكثر من نصفها نصوصاً أدبية صرفة، أقلها شعرا وأكثرها نثرا، وإن أسهمت فى استجلاء كثير من غوامض أحداث التاريخ ، أو جلت معانى سياسية وأخرى اجتماعية كانت مستبهمة علينا .

والأمر الثانى : أن فكرة الكتاب ومنهاجه برغم كثرة المصادر التى أخذ عنها ، وتعدد الموارد التى نقل منها ؛ ليست إلا المبادئ السامية التى وضعها عبد الحميد الكاتب ووجهها إلى جمهرة الكتاب من بعده نصحاً منه وإرشاداً ، والتى حرص على حفظها والعمل بها جمهرة كتاب العربية منذ أن وضعها عبد الحميد إلى عصر القلقشندى وما بعده ، والتى ضمنها القلقشندى منهج كتابه كاملة غير منقوصة (١) .

فعبد الحميد يقول فى بعض فقرات رسالته موجهاً النصح إلى الكتاب : « فنافسوا — معشر الكتاب — فى صنوف العلم والأدب ، وتفقهوا فى الدين وابدأو بعلم كتاب الله عز وجل ، والفرائض ، ثم العربية فإنها ثقاف ألسنتكم ، وأجيدوا الخط فإنه حلية كتبكم ، وارووا الأشعار واعرفوا غريبها ومعانيها ، وأيام العرب والعجم ، وأحاديثها وسيرها فإن ذلك معين لكم على ما تسمون إليه بهممكم .... » (٢) .

---

(١) انظر رسالة عبد الحميد فى صبح الأعشى وفى الجهشيارى ٧٤ — ٧٩ .
(٢) راجع تحليل رسالة عبد الحميد فى كتابنا : الأدب فى موكب الحضارة الاسلامية ص ٣٤٩ .

والقلقشندى يأخذ نصائح عبد الحميد ويترسم خطاه ويترجمها ترجمة أمينة إلى دراسات مطولة، ويقدمها فى شكل أبحاث مستفيضة منفذاً مبادىء عبد الحميد ووصاياه ، مبدأ بعد مبدأ ، ووصية بعد وصية ، فهو يعقد باباً مستفيضاً لحفظ كتاب الله العزيز ، وكيفية وضع الآيات الكريمة فى أنسب المواضع حين الاستشهاد وتضمينها الرسالة أوالقطعة الأدبية(١) .

ويعقد باباً آخر فى الإكثار من حفظ خطب البلغاء والتفنن فى أساليب الخطباء . ويأتى بمجموعة كبيرة من خطب العرب فى الجاهلية والإسلام مثل خطب : كعب بن لؤى وقس بن ساعدة ، وخطب الرسول صلى الله عليه وسلم وخطب لأبى بكر وعمر وعثمان وعلى والحسن ومعاوية ابن أبى سفيان وزياد بن أبيه وعبد الملك بن مروان والحجاج بن يوسف الثقفى ، وقطرى بن الفجاءة وغيرهم من خطباء العرب ، ولا يكتفى القلقشندى بذلك بل يأتى بمجموعة كبيرة من خطب ومحاورات بعض العربيات الفصيحات من النساء مثل: السيدة عائشة أم المؤمنين ، وأم الخير بنت الحريش . والزرقاء بنت عدى الهمدانية(٢) .

كل ذلك تمشياً مع نصائح عبد الحميد الكاتب . ويعقد صبح الأعشى فصولا طويلة وأبحاثاً مستفيضة فى مواد اللغة التى هى واحدة من أهم أدوات الكاتب(٣) .

ولما كان عبد الحميد قد أوصى الكتاب بإجادة الخط ، فإن القلقشندى يعقد دراسة مطولة مفصلة فى هذا الموضوع متحدثاً عن فضيلة الخط وحقيقته ووضع الحروف وعددها ، وجهة ابتدائها وكيفية ترتيبها وصورها وتداخل أشكالها ، مستعيناً فى ذلك بنماذج لكل مادة من مواد الخط ، كما يتحدث القلقشندى عن تحسين الخطوط والحث على ذلك . ويتحدث عن طريقة إمساك القلم عند الكتابه ووضعه على الورق وكيفية حركة اليد به ، ثم يعدد

---

(١) صبح الأعشى ١٨٩/١ ومابعدها .
(٢) صبح الأعشى ٢١٠/١ وما بعدها .
(٣) المصدر السابق ٤٨/١ ، ١٤٨ وما بعدها .

أنواع الأقلام واستعمالاتها : من ثلث ورقاع وتوقيع وغبار ، كل ذلك فى بسطة من الشرح تحتل مايقارب مائتى صحيفة من كتابه (١) ؛ ويحض القلقشندى على حفظ الأشعار ، ويأتى بمجموعة رائقة منها وأخرى غريبة (٢) تماما حسبما نصح عبد الحميد فى رسالته . ويمضى صاحب صبح الأعشى سالكا طريق عبد الحميد فيعقد فصلا عن أيام العرب وحروبهم (٣) وقبائلهم وبطونها (٤) فى بسطة من القول وتفصيل من الحديث ، وهو لاينسى أن عبد الحميد قد أشار إلى ضرورة معرفة أيام العجم وأحاديثها وسيرها ، ومن ثم فإنه أى القلقشندى يعقد فصلا للحديث عن أنساب الأمم من عرب وعجم فى ثوب من التشويق يجعل المرء يقبل على هذا اللون من المعرفة الضرورية لمن أراد أن يسلك سبيل امتهان الكتابة ويتخذها صناعة يرتضيها لنفسه سبيلا فى الحياة .

ومجمل القول فى هذا السبيل أن القلقشندى احتذى منهج عبدالحميد الكاتب فى نصائحه إلى الكتاب وإن لم يشر إلى ذلك صراحة ، ولم يقف الأمر به عند الجانب الثقافى بل تعدى ذلك إلى الجانب الأخلاقى والاجتماعى الذى ركز عليه عبدالحميد، وهو ماسوف نتناوله بشىء من الإبانة فيما يستقبل من حديث .

نود أن نخلص من ذلك — وقد تأكد أصل الفكرة الأدبية للكتاب — إلى منهج نتمثله ونحن نستعرض الجانب الأدبى فيه تمثلا واعياً دقيقاً ؛ لقد انتهيت إلى عناصر أربعة فى تمثلنا للمنهج الأدبى للكتاب تتلخص فيما يلى :

أولا : شخصية الكتاب وثقافتهم وآدابهم وسلوكهم .

ثانياً : الشخصية الأدبية للمؤلف .

---

(١) المصدر السابق ٣/٥ — ١٧٠ .
(٢) نفس المصدر ٢/٢٨٦ ، ٢/٢١٤ ، ٢/١٨٦ — ٢٠٢ ، ٢٠٩ — ٢٢٩ .
(٣) الصبح ١/٣٩٠ .
(٤) نفس المصدر ١/٣١٥ — ٣٦٦ .

ثالثاً : السمات الفنية للبلاغة والنقد فى الـكتاب :

رابعاً : المجموعة الضخمة القيمــة للنصوص الواردة فى الكتاب ووزنها الأدبى .

أولا : شخصية الكتاب وثقافتهم وآدابهم وسلوكهم :

يتحدث القلقشندى عن كاتب الإنشاء فيما يصفه صاحب مواد البيان فيقول : هو حلية المملكة وزينتها لما يصدر عنه من البيان الذى يرفع قدرها ، ويعلى ذكرها ، ويعظم خطرها ، ويدل على فضل ملكها ، وهو المتصرف عن السلطان فى الوعد والوعيد، والترغيب والإحماد والإذمام واقتضاب المعانى التى تقر الوالى على ولايته ، وتعطف العدو العاصى عن عداوته ومعصيته .

وينسب القلقشندى إلى بعض الحكماء قوله فى شأن الكتاب وصلتهم بعضهم ببعض وصلتهم بالدولة : الكتاب كالجوارح ، كل جارحة منها ترفد الأخرى فى عملها بما به يكون فعلها ، وكاتب الإنشاء بمنزلة الروح الممازجة للبدن ، المدبرة لجميع جوارحه وحواسه(١) .

وصاحب صبح الأعشى يتحمس للكتاب دون غيرهم من الأدباء ، بل إنه يتعصب لهم ويستشهد بالمثال تلو المثال على فضل أهل الصناعة ، فيورد قول الزبير بن بكار : الكتّاب ملوك وسائر الناس سوقة : وقول عبدالله ابن المقفع : الملوك أحوج إلى الكتاب من الكتاب إلى الملوك . أو قول المؤيد : كتاب الملوك عيونهم المبصرة ، وآذانهم الواعية ، وألسنتهم الناطقه . أو قول أبى جعفر الفضل بن أحمد : للـكتاب أقرت الملوك بالفاقة والحاجة ، وإليهم ألقيت الأعنة والأزمة ، وبهم اعتصموا فى النازلة والنكبة، وعليهم اتكلوا فى الأهل والولد والذخائر والعقد ، وولاة العهد وتدبير الملك ، وقراع الأعداء ، وتوفير الفىء ، وحياطة الحريم ، وحفظ الأسرار وترتيب المراتب ، ونظم الحروب(٢) :

---

(١) صبح الأعشى ١/٥٥ .
(٢) الصبح ١/٤٤ .

ويضرب القلقشندى مثلا يكشف فيه طبيعة العلاقة بين الكاتب والملك . والكاتب هنا هو الوزير — فيذكر أن على بن زيد الكاتب صحب بعض الملوك ، فقال للملك : أصحبك على ثلاث خلال ،فقال الملك : وماهى؟ فقال الكاتب : لاتهتك لى ستراً ، ولا تشتم لى عرضا ، ولا تقبل فىّ قول قائل حتى تستبرىء . قال الملك : فما لى عندك ؟ لا أفشى لك سراً ، ولاأؤخر عنك نصيحة ، ولا أوثر عليك أحداً . قال الملك : نعم الصاحب المستصحب أنت(١) .

فى هذا الحوار القصير يعرض القلقشندى دستور العلاقة بين الملك ومستشارهالكاتب، ويبين خطورة مركزه فى الدولة وبالتالى فى نطاق المجتمع وهذا يفسر لنا انطلاقة الشريف الرضى من إسار تقاليد زمانه حينما بكى الكاتبأبا إسحاق الصابى، ورثاه بأكثر من قصيدة من عيون الشعر العربى فلامه الناس لكونه شريفا يرثى صابئيا ، فأجاب الشريف الرضى إجابة تتمشى مع جلال الموقف قائلا : إنما رثيت فضله(٢) . ومن ثم فإن ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد قد تنبه إلى فضل الكتابة على الناس، فأورد له القلقشندى قوله : إنها رفعتأقدار . كثير من الناس بعدالخمول فصاروا إلى الرتب العلية والمنازل السنية ، منهم : سرجون بن منصور الرومى ، كان روميا خاملا فرفعته الكتابة ، وكتب لمعاوية ويزيد ومروان بن الحكم وعبد الملك بن مروان ، ومنهم حسان النبطى كاتب الحجاج ، وسالم مولى هشام بن عبدالملك ، وعبدالحميد الأكبر ، وعبدالصمد ، وجبلة ابن عبد الرحمن ، وقحذم جد الحجاج بن هشام القحذمى؛وهو الذى قلب الدواوين من الفارسية إلى العربية ، والربيع والفضل بن الربيع ، ويعقوب ابن داوود ، ويحيى بن خالد ، وجعفر بن يحيى، وابنالمقفع ، والفضلبن سهل ، وجعفر بن الأشعث ، وأحمد بن يوسف ، وابن عبد السلام الجنديسابورى ، ومحمد بن عبد الملك الزيات ، والحسن بن وهب ،

---

(١) المصدر السابق ١/١٢٩ .
(٢) نفس المصدر ١/٤٢ .

وإبراهيم بن العباس ، ونجاح بن سلمة ، وأحمد بن عبد العزيز . . .
ولو اعتبر من شرف بالكتابة وارتفع قدره بها لفاتوا الحصر وخرجوا عن الحـد .

ويمضى صاحب صبح الأعشى فى حديثه عن الكتاب الذين نشأوا فى بيئات متواضعة ثم مالبثت الكتابة أن جعلتهم أصحاب مقامات رفيعة ومراتب سامية ،يعمد القلقشندى إلىهذه الأمثلة فى معرض تعظيم الكتاب ووضعهم فى مكان الإجلال ، وقبل قليل أشرنا إلى حادث رثاء الشريف الرضى لأبى إسحاق الصابى ، ويضرب القلقشندى مثلا آخر بوزير عظيم الشأن هو الوزير المهلبى الذى كان فى أول أمره فى شدة من الفقر والضائقة ، وقد حدث أن اشتهى اللحم ولم يقدر على شرائه فقال ارتجالاً :

ألا موت يباع فأشتريه   فهذا العيش ما لا خير فيه
ألا موت لذيذ الطعم يأتى   يخلصنى من الموت الكريه
ألا رحم المهيمن نفس حر   تصدق بالوفاة على أخيه

ثم ترقى فى سلك الكتابة حتى وزر لمعز الدولة بن بويه(١) . وإذن فالكتابة مقام أسمى من أى مقام،حتى إن المؤيد يقول : الكتابة أشرف مناصب الدنيا بعد الخلافة ، إليها ينتهى الفضل ، وعندها تقف الرغبة(٢) فلا غرابة إذن أن يرثى الشريف الرضى الصابئى أبا اسحاق .

وعلى طول مسار المنهج الأدبى عند القلقشندى فى التحمس لجانب الكتاب ،يفطن إلى المنافسة التقليدية بين أصحاب القلم وأصحاب السيف، ذلك أن كثرة من الكتاب لم يجمعوا بين السيف والقلم . يمضى القلقشندى فى دربه على عادة تفضيل صاحب القلم على صاحب السيف لأن الله أقسم بالقلم فى كتابه العزيز ولم يقسم بالسيف وذلك فى قول الشاعر :

إذا افتخر الأبطال يوماً بسيفهم   وعدوه مما يكسب المجد والكرمْ
كفى قلم الكتّاب عزًّا ورفعةً   مدى الدهر أن الله أقسم بالقلمْ

---

(١) صبح الأعشى ١/٤٠ ، ٤١ .
(٢) المصدر السابق ١/٣٧ .

ويمجد القلقشندى مهنة الكتابة ويفضلها على وظيفة السيف بقوله : كفى بالكتابة شرفاً أن صاحب السيف يزاحم الكاتب فى قلمه ولايزاحمه الكاتب فى سيفه(١) . ويعود القلقشندى ثانية فيستشهد فى ذلك أيضاً بأبيات طريفة لابن الرومى(٢) :

إن يخدم القلمُ السيف الذى خضعتْ
له الرقابُ ودانتَ خوفه الأممُ
فالموتُ ، والموتُ لاشىءٌ يغالبه
ما زال يتبع مايجرى به القلم
كذا قضى الله للأقلام مذ بُريتْ
أن السيوف لها مذ أرهفت خدم

وأبيات ابن الرومى فيها حسن تعليل أكثر مما فيها من تفضيل .

وما دام القلقشندى مهتما بالكتاب ذلك الاهتمام الكبير الذى أخذ عليه أفكاره . وما دامت الكتابة عنده أشرف صناعة ، فإنه لكى يغرى الناشئة بالإقبال على امتهانها بعرض نماذج رائعة من الشعر العذب فى وصف الكتّاب كقول عبد الله بن المعتز فى وصف كاتب :

إذا أخذ القرطاس خِلْتَ يمينه
تفتح نوراً أو تنظم جوهرا

وقول شاعر آخر :

إن هزَّ أقلامه يوماً ليعملها   أنساك كلَّ كمىٍّ هــزَّ عامِلهُ
وإن أقرَّ على رقٍّ أنامله   أقر بالرق كتاب الأنام له

والقلقشندى وقد عاش فى عصر التصنع البديعى يستهويه الاستشهاد بالشعر الموغل فى الزينة بالمحسنات كما فى البيتين السابقين وكما فى هذين البيتين :

---

(١) صبح الأعشى ١/٣٨ .
(٢) المصدر السابق ٤٥ وما بعدها .

وشادنٍ من بنى الكتاب مقتدرٌ
على البلاغة أحلى الناس إنشاءَ

فلا يجاريه فى ميدانه أحدٌ
يريك سحبانَ فى الإنشاء إن شاءَ

وإذ كانت هذه صورة الكاتب المجيد وصفته عند القلقشندى ، فإنه يحرص على أن يجنب هذه الصناعة كل عيي أو غبى أو أحمق أو جاهل أن ينخرط فى سلكها أو ينتظم فى عقدها ، ولذلك فهو يأتى بصور صارخة فى هجاء الفاشلين من الكتاب لا تخلو من فكاهة وطرافة كقول أحد الشعراء فى وصف كاتب فاشل :

حمارٌ فى الكتابة يدعيها كدعوى آلِ حرب فى زيادِ
فدعْ عنك المكارم لستَ منها ولو غرقت ثيابُك فى المداد

وقول شاعر آخر :

يعى غير ماقلنا ويكتب غير ما
يعيه ويقرأ غير ما هو كاتبُ

وإذن فالكاتب عند القلقشندى ينبغى أن يتحلى بالصفات التى وصفه بها ابن مماتى فى كتابه قوانين الدواوين (١) الذى تأثر فيه برسالة عبد الحميد إلى الكتّاب : حاد الذهن ، قوى النفس ، حاضر الحس ، جيد الحدْس ، حلو اللسان ، له جراءة يثبت بها الأمور على حكم البديهة ، وفيه تؤدة يقف بها فيما لا يظهر له على حد الرؤية ، شريف الأنفة ، عظيم النزاهة ، كريم الأخلاق ، مأمون الغائلة . أو كما قال أبو الفضل الصورى : ينبغى أن يكون الكاتب بليغاً أديباً ، سنى الرتبة، قوى الحجة ، شديد العارضة، حسن الألفاظ .

والقلقشندى يعتمد فى ذلك كله على تجارب مرت ببعض الكتاب النابهين تارة والمتخلفين غير المتسلحين بمؤهلات الكاتب تارة أخرى ،

(١) الصبح ١/١٨ .

وهو يسوق لذلك أمثلة عديدة وقعت لبعض الكتاب مع خلفاء أو رؤساء ، فمن أمثلة الفريق الثانى : حادثة المعتصم مع وزيره أحمد بن عمار(١) وكان يتقلد العرض على الخليفة ، وكان المعتصم ضعيفا فى العربية ، فقرأ الوزير عليه كتاب أحد العمال وقد ورد فيه : مطرنا مطراً كثر عنه الكلأ ، فسأله المعتصم عن معنى الكلأ فلم يعرف ، فقال المعتصم : إنا لله وإنا إليه راجعون ، خليفة أمىّ ووزير عامى ، ثم سأل عن كاتب قريب فجىء له بمحمد بن عبد الملك الزيات وكان مغموراً يعمل بالديوان ، فسأله الخليفة عن معنى الكلأ ، فقال : النبات كله رطبه ويابسه ، فإن كان رطباً قيل له خلاً ، وإن كان يابساً قيل له حشيش ... واستطرد ابن الزيات فى عرض ثروته اللغوية وحصيلته الأدبية أمام المعتصم الذى طلب منه أن يتولى العرض عليه . ومن هنا كانت بداية الخير الذى أفاءته البلاغة على ابن الزيات .

ويضرب القلقشندى مثلا آخر لكاتب غير مؤهل ولا مزود بأسلحة الكتابة هو العباس بن أسد الذى يحكى القصة بنفسه فيقول : إن أبا الحسن على بن عيسى كتب إلى أبى الطيب أحمد بن عيسى كتاباً من مكة فقرأه ثم رمى به إلىّ فقال : اقرأ ، فقرأت : كتابى إليك يوم القُر ، برفع القاف ، فقال : ما معنى القر ؟ فقلت : القر البرد ، فقال : إنما هو يوم القَر بالفتح ، حين يقر الناس بمنى ، وهو اليوم الثانى من النحر (٢).

غير أن صاحب صبح الأعشى لا ينسى أيضاً أن يضرب أمثلة لا تخلو من طرافة لبعض المتأدبين من المغمورين الذين أعدوا أنفسهم لهذه الوظيفة المرموقة بالعلم والثقافة ، ولعل أكثر القصص طرافة فى هذا السبيل قصة عمرو بن مسعدة الوزير الكاتب — الذى كان أثيراً لدى المأمون والمعتصم — مع حائك أديب ، فقد طلب إليه المعتصم وكانا بالرقة أن يتوجه إلى الأهواز حتى يصلح من أمر عامل خراج بدا فى تصرفاته بعض الإنحراف ، ولم يرض

(١) المصدر السابق ١/١٥١ .
(٢) صبح الأعشى ١/٤٨ .

عمرو عن تلك المهمة وقال فى نفسه : إن هذه منزلة خسيسة أن يكون بعد الوزارة مستحثا لعامل خراج . ولكن لما لم يكن إلى عصيان أمر الخليفة سبيل فقد طلب زورقا أعد لسفرة طويلة ، وبدأت الرحلة فى الفرات حتى إذا صار الزورق بين ديرهرقل و دير العاقول إذا شاب على الشاطئ يقول : ياملاح، رجل ملاح يريد دير العاقول ، فاحملنى يأجرك الله . ولنترك لعمرو يحكى بقية من هذه القصة الطريفة(١) . « فقلت – موجها الحديث لبحار الزورق – ياغلام قرب له . فقال : جعلت فداك، يؤذيك ويضيق عليك ، فقلت : قرب له لا أمّ لك . فقرب له وحمله على مؤخر الزورق ، وحضر الطعام ، وهممت ألا أدعوه إلى طعامى ، ثم قلت ، هلم يافتى ، فوثب وجلس ، وأكل أكل جائع نهم إلا أنه نظيف الأكل ، فلما فرغ من الطعام أحببت أن يفعل ما يفعل العوام فيتنحى ويغسل يديه ناحية ، فلم يفعل ، فغمزه الغلمان ليقوم فلم يفعل ، فتناومت عمداً لينهض فلم يفعل ، فاستويت جالساً وقلت ، يا فتى ما صناعتك ، فقال : جعلت فداك ، أنا حائك ، فقلت فى نفسى : أنا والله جلبت هذه البلية ، وتغير لونى ، ففطن انى استثقلته فقال : جعلت فداك ، إنك قد سألتنى عن صناعتى فأجبتك ،فأنت ما صناعتك ؟ فقلت فى نفسى : هذه والله أضر من الأولى ، ألا ينظر إلى غلمانى ونعمتى فيعلم أن مثل هذا لايسأل عن الحرفة ، ولم أجد بدأ من الجواب ، فلم أذهب إلى المرتبة العظمى من الوزارة ، لكنى قربت عليه فقلت : أنا كاتب ، فقال : جعلت فداك ، الكتاب خمسة ، فأيهم أنت ؟ فأورد علىّ ما لم أسمع به قبل . فقلت : بيّنهم لى ، قال : نعم ، هو كاتب رسائل يحتاج إلى أن يعرف المفصول والموصــول ، والمقصور والممدود ، والابتداء والجواب ، حاذقا بالعقود والفتوح .

---

(١) المصدر السابق ١٤٣/١ وما بعدها .

قلت : أجل ، وماذا ؟ قال : كاتب خراج يحتاج أن يعرف السطوح والمساحة والتقسيط ، خبيراً بالحساب والمقاسمات . قلت : وماذا ؟ قال : كاتب قاض يحتاج أن يعرف الحلال والحرام والتأويل والتنزيل ، والمتشابه ، والحدود القائمة والفرائض ، والاختلاف فى الأموال والفروج ، حافظاً للأحكام ، حاذقاً بالشروط . قلت : وماذا ؟ قال : كاتب جند يحتاج أن يعرف الحلى والشيات »

قلت : وماذا ؟ قال : وكاتب شرطة يحتاج أن يعرف القصاص والجراحات ، وموضع الحدود ومواقع العفو فى الجنايات ، قلت : حسن . قال : فأيهم أنت ؟ فكنت متكئا فاستويت جالساً متعجبا من قوله ، فقلت : أنا كاتب رسائل . قال : فإن أخاً من إخوانك واجب الحق عليك معتنياً بأمورك لايغفل منها عن صغير ولا كبير يكاتبك فى كل محبوب ومكروه ، وأنت له على مثل ذلك ، تزوجت أمه ، فكيف تكتب إليه ، أتهنيه أم تعزيه ، قلت : أهنيــه ، قال : فهنّه ، فلم يتجه لى شىء ، فقلت : لا أعزيه ولا أهنيه ، فقال : إنك لا تغفل له عن شىء ، ولا تجد بدأً من أن تكتب إليه ، فقلت : أقلنى فأنا كاتب خراج ، قال : فإن أمير المؤمنين وجّه بك إلى ناحية من عماله ، وأمرك بالعدل والإنصاف ، وأنك لاتدع شيئاً من حق السلطان يذهب ضياعاً ، وحذرك الظلم والجور ، فخرجت حتى قدمت الناحية فوقفوك على قراح أرض خطه قابل قسيا ، فكيف تمسحه ، قلت : آخذ وسطه وآخذ طوله فأضربه فيه ، قال : تختلف عليك العطوف ، قلت : آخذ طوله وعرضه من ثلاثة مواضع ، قال : إن طرفيه محدودان ، وفى تحديده تقريس ، وذلك يختلف ، فأعيانى ذلك فقلت : أقلنى فأنا كاتب قاض ، قال : فإن رجلا هلك وخلف زوجة حرة وسرية حاملتين فوضعتا فى ليلة واحدة ، وضعت الحرة جارية ووضعت السرية غلاماً ، فوضعت الجارية فى مهد السرية فلما أصبحت السرية قالت الغلام لى ، وقالت الحرة : بل هو لى ، كيف تحكم بينهما ، فقلت : لا أدرى فأقلنى فأنا كاتب جند ، قال : فإن

رجلين من أصحاب السلطان أتياك ، اسمهما واحد ، وأحدهما مشقوق الشفة العليا والآخر مشقوق الشفة السفلى : ورزق أحدهما مائة والآخر ألف ، كيف تحليهما ، قلت فلان الأعلم وفلان الأعلم ، قال : إذن يجىء هذا ورزقه مائة فيأخذ الألف ، ويجىء هذا ورزقه ألف فيأخذ المائة . قلت : أقلنى فأنا كاتب شرطة ، قال : فإن رجلين تواثبا فشق أحدهما صاحبه مُوضِحة، وشجه الآخر مأمومة ، كيف يكون الحكم فيهما ؟ قلت : لا أدرى فأقلنى » .

وهكذا يرتج على الوزير الخطير البليغ أمام عابر سبيل دفعت به المصادفة إلى زورقه ، ولما كان لابد له من معرفة الإجابة على هذه المسائل المستبهمة فإنه يطلب الإبانة من « الحائك » الذى لايتردد فى الإجابة قائلا : « أما الذى تزوجت أمه فتكتب إليه : أما بعد فإن الأمور تجرى على غير محاب المخلوقين والله يختار لعباده ، فخار الله لك فى قبضها إليه فإن القبور أكرم الأكفاء والسلام » .

« وأما القراح من الأرض فإنك تمسح اعوجاجه حتى تعلم كم قبضة تكون فيه فإذا استوى فى يدك عقد تعرفه ضربت طرفه فى وسطه . وأما الحرة والسرية فيوزن لبنهما ، فأيهما كان لبنها أخف فالبنت لها . وأما المشقوق الشفة العليا فأعلم ، والمشقوق الشفة السفلى فأفلح .

وأما المأمومة ففيها ثلث الدية وهى ثلاث وثلاثون من الإبل وثلث ، وأما الموضحة ففيها خمس من الإبل » . وهنا يستبد العجب بالوزير الكبير فيقول لمحدثه : ألست تزعم أنك حائك ؟ فيجيبه الرجل بقوله : أنا حائك كلام لا حائك نساجة . ومن الطريف أن عمرو بن مسعدة يستبقى الرجل معه فى رحلته حتى إذا عاد قدمه إلى المعتصم الذى يعينه فى وظيفة كبيرة فى الدولة مختصة بشئون العمائر .

إن هذه القصة على طرافتها لم يكن القصد من سوقها هنا مجرد الإطراف والإمتاع ولكن لأنها تبين اهتمام القلقشندى بفنون الكتابة وضرب الأمثلة لثقافة الكتاب التى كان لابد للواحد منهم أن يكون ملماً

من كل شيء بطرف وأن يكون لبقاً حاضر البديهة سريع الإجابة ذا ثقافة غير محدودة بحدود ، وكلما اتسعت آفاق الكاتب كانت رتبته أعلى وأسمى ممن هو دونه .

على أن أسمى المراتب جميعاً وأرقى الوظائف بلا استثناء فى عالم الدواوين كانت وظيفة صاحب الديوان أى ديوان الإنشاء(*) :

ويؤكد القلقشندى هذا المعنى بقوله عن صاحب الديوان : أما رفعة محله وشرف قدره فأرفع محل وأشرف قدر ، يكاد ألا يكون عند الملك أخص منه ولا ألزم لمجالسته ، ولم يزل صاحب هذا الديوان معظما عند الملوك فى كل زمن ،مقدما لديهم على من عداه ، يلقون إليه أسرارهم ويخصونه بخفايا أمورهم ، ويطلعونه على ما لم يطلع عليه أخص الأخصاء من الوزراء والأهل والولد(١) .

وإذا كان القلقشندى يشير إلى أن صاحب الديوان معظم فى كل زمن فإن شواهد التاريخ تؤيده فى ذلك ، فقد سمت مكانته عند بنى العباس حتى لقب بالوزير ، وكان هذا المنصب فى أيام الفاطميين لايتولاه إلا أجل كتاب البلاغة ، وكان يخاطب بالأجل ، وإليه تسلم المكاتبة واردة مختومة فيعرضها على الخليفة من يده ، وهو الذى يأمر بتنزيلها والإجابة عنها وربما بات عند الخليفة ليالى ، وهو أمر لا يصل إليه غيره (٢) .

وهذه المعانى يؤكدها صاحب مواد البيان فى قوله : ليس فى منزلة خدم السلطان والمتصرفين فى مهماته أخص من كاتب الرسائل ، فإنه أول داخل على الملك وآخر خارج عنه ولا غنى له عن مفاوضته فى آرائه والإفضاء إليه بمهماته ، وتقريبه من نفسه فى آناء ليله وساعات نهاره وأوقات ظهوره للعامة وخلواته ، واطلاعه على حوادث دولته ومهمات مملكته ، فهو لذلك لايثق بأحد من خاصته ثقته به ، ولا يركن إلى قريب ولا نسيب ركونه إليه » (٣)

---

* كان يسمى فى مستهل عهده بديوان الرسائل وكذلك كان يسمى ديوان المكاتبات .

(١) صبح الأعشى ١/١٠١ .   (٢) الصبح ١/١٠٢ .

(٣) نفس المصدر ١/١٠١ .

وإذا كان القلقشندى قد اعتمد أكثر ما اعتمد فى حديثه عن الكتابة والكتاب على المهذب بن مماتى فى كتابه قوانين الدواوين ، وعلى أبى الفضل الصورى فى كتابه التذكرة ، وعلى علىّ بن خلف فى كتابه مواد البيان والحاجب بن النعمان فى ذخائر الكتاب ، فإنه يسهم بقوله حينما يتحدث عن كاتب الإنشاء فى زمانه ، أى زمان الدولة التركية ، ويضعه حيث هو سمو مكانة ورفعة مرتبة فيقول (١) :

« ومرتبته فى زماننا — أى زمان القلقشندى — أرفع مرتبة ، ومحله أعظم محل ، إليه تلقى أسرار المملكة وخفاياها ، وبرأيه يستضاء فى مشكلاتها ، وعلى تدبيره يعول فى مهماتهما ، وإليه ترد المكاتبات وعنه تصدر ، ومن ديوانه تكتب الولايات السلطانية كافة ، ويقوم توقيعه على القصص فى نفوذ الأوامر مقام توقيع السلطان » .

ثانيا : الشخصية الأدبية للمؤلف :

القلقشندى أديب ما فى ذلك شك ، ونحن لانستطيع أن نصفه بأنه أديب مطبوع فتلك صفة غير قريبة منه ، ولكننا نستطيع أن نصفه بأنه أديب صانع مجتهد ، فهو صاحب قلم مطواع ساندته ثقافة واسعة فى شتى العلوم والفنون ، وهو أيضا ذو فكرة رائقة عميقة ، وأسلوب مشرق الديباجة ، سلس المأخذ والعطاء ، وإذا كان معلم الفن ينبغى أن يكون خبيرا به فإن أستاذ الإنشاء لابد له أن يكون حسن الإنشاء وتلك صفة لانتردد فى أن نطلقها على القلقشندى وننعته بها فى صدق وحيـــدة .

وأديبنا ينسج على منوال أدباء عصره من أصحاب الأساليب المصنوعة ، والعبارات المنمقة المسجوعة ، الحافلة بالمحسنات البديعية من سجع وجناس وترصيع واقتباس وتضمين وتورية ومقابلة وطباق ، إلى غير ذلك من الإغراق فى الصنعة التى بدت خفيفة مقبولة عند أول عهد أدبنا بها عند كتاب القرن الرابع وما قبله بقليل ، ثم ما لبث

(١) صبح الأعشى ١٠٢/١ .

أن تعقدت عند كتاب القرن الخامس ، ثم أوغلت فى التصنع والتعقيد عند الكتاب الذين عاشوا فيما بعد ذلك من عصور ومن بينهم القلقشندى بل إننا نستطيع فى سهولة ويسر أن ننسب القلقشندى إلى المدرسة الإنشائية الأسلوبية التى رأسها القاضى الفاضل ، تلك المدرسة التى عرفت بتلك الصفات والسمات التى ألمحنا إليها جميعا قبل قليل .

وإذا كانت مقدمة أى كتاب تعتبر المثال الصادق للمدرسة الأسلوبية والفنية التى ينتمى إليها مؤلف الكتاب ، فلعل بضع فقرات من مقدمة صبح الأعشى تكون شاهدا أمينا على أن مؤلفه كان من الصفوة المتقدمة من الأدباء — ولكن بمعيار زمانه — تجمعت له جل أسباب النضوج فى مجال الأدب الإنشائى إلى جانب التأليف الموسوعى فلنستمع إليه فى مقدمته متحدثا عن الكتابة والكتّاب(١) :

« فلما كانت الكتابة من أشرف الصنائع وأرفعها ، وأربح البضائع وأنفعها ، وأفضل المــآثر وأعلاها ، وآثر الفضائل وأغلاها ، لاسيما كتابة الإنشاء التى هى بمنزلة سلطانها ، وإنسان عينها ، بل عين إنسانها ، لا تلتفت الملوك إلا إليها ، ولا تعول فى المهمات إلا عليها ، يعظمون أصحابها ، ويقربون كتابها ، فحليفها أبدا خليق بالتقديم ، جدير بالتبجيل والتكريم .

تسرُّ مجانيها إذا ما جنى الظما   وتروى مجاريها إذا بخل القطر

وكانت الديار المصرية ، والمملكة اليوسفية — أعز الله تعالى حماها ، وضاعف علاها — قد تعلقت من الثريا بأقراطها ، ورجحت سائر الأقاليم بقيراطها ، بشر بفتحها الصادق الأمين ، فكانت أعظم بشرى ، وأخبر سيد المرسلين أن لأهلها نسبا وصهرا ، فتوجهت إليها عزائم الصحابة زمن الفاروق فجاسوا خلال الديار وعرها وسهلها ، واقتطعتها أيدى المسلمين من الكفار « وكانوا أحق بها وأهلها » .

---

(١) الصبح ١/٦ .

ثم لم يزل يعلو قدرها ، ويسمو ذكرها ، إلى أن صارت دار الخلافة العباسية ، وقرار المملكة الإسلامية ، وفخرت مملكتها بخدمة الحرمين ، وخدمها سائر الملوك والأمم لحيازة القبلتين :

تناهت علاءً والشبابُ رداؤها فما ظنكم بالفضل والرأسُ أشيبُ

وحظيت من فضلاء الكتاب بما لم تحظ مملكة من الممالك ، ولا مصر من الأمصار ، وحوت من أهل الفضل والأدب مالم يحو قطر من الأقطار ، فما برحت متوجةً بأهل الأدب فى الحديثُ القديم ، مطرزة من فضلاء الكتاب بكل مكين أمين ، وحفيظ عليم .

نجوم سماء كلما غاب كوكبٌ بدا كوكبٌ تأوى إليه كواكبه

ومقدمة صبح الأعشى طويلة بعض الطول ولايغنى اجتزاء فصل منها عن قراءتها جميعها ، ولكننا جئنا بهذه الفقرة منها كصورة لأسلوب القلقشندى فى الكتابة ، ونحن نلاحظ أن أسلوب القاضى الفاضل يملك على كاتبنا عقله ووجدانه ، فقد تقمص القلقشندى شخصية القاضى الفاضل حتى إننا لو لم نكن نعرف مسبقا لمن هذا الأسلوب ماترددنا لحظة واحدة فى نسبته إلى عبد الرحيم البيسانى — الإسم الحقيقى للقاضى الفاضل — صاحب القلم الذى أعجب أهل زمانه ، وفتن القوم من معاصريه وفى مقدمتهم صلاح الدين الأيوبى الذى أثر عنه قوله : إنما نصرت بقلم القاضى الفاضل .

ومشاركة القلقشندى الإبداعية ككاتب له تجاربه وأفكاره وأسلوبه تبدو واضحة جلية فيما أبدع وأنتج فى نطاق مؤلفه صبح الأعشى ، أو بالأحرى تتمثل هذه المشاركة فى مقالاته المستقله التى ضمنها كتابه مثل مقامته التى أشرنا إليها ومثل بعض الرسائل الأخرى التى قد يكون من الخير أن نعرض لها بعد قليل :

فمقامة القلقشندى الوحيدة الطويلة التى أسماها « الكواكب الدرية فى المناقب البدرية » — نسبة إلى المقر البدرى — صورة جلية صادقة

للأدب العربي إنشاءً وفكراً وصناعةً وأسلوباً فى فترة من فترات حقبه المتطاولة ، وهى الفترة التى عاش فيها القلقشندى ، شطرا من القرن السابع وآخر من القرن الثامن ، إننا نجتزئ فقرة منها حيث يقول (١) .

«حكى الناثر بن نظّام ، قال : لم أزل من قبل أن يبلغ بريد عمرى مركز التكليف ، ويتفرق جمع خاطرى بالكلف بعد التأليف أنصَب لاقتناص العلم أشراك التحصيل ، وأنزه توحيد الاشتغال عن إشراك التعطيل ، مشمرا عن ساعد الجد ذيل الاجتهاد ، مستمرا على الوحدة وملازمة الإنفراد ، أنتهز فرصة الشباب قبل توليها ، وأغتنم حالة الصحة قبل تجافيها ، قد حالف جفنى السهاد ، وخالف طيب الرقاد ، أمرّن النفس على الاشتغال كى لا تملّ فتنفر عن الطلب وتجمح مميلا جانب قصدها عن ركوب الأهواء والميل إليها ، صارفا وجه غايتها عن المطالب الدنيوية والركون إليها ، متخيرا أليق الأماكن وأوفق الأوقات ، قانعاً بأدنى العيش راضياً بأيسر الأقوات ، أونس من شوارد العقول وحَشْيَها ، وأشرد عن روابض المنقول حوشِيها ، وألتقط ضالة الحكمة حيث وجدتها ، وأقيد نادرة العلم حيث أصبتها ، مقدما من العلوم أشرفها ، ومؤثرا من الفنون ألطفها ، معتمدا من ذلك ما تألفه النفس ويقبله الطبع ، مقبلا منه على ما يستجلى حسنه النظر ويستحلى ذكره السمع ، منتقيا من الكتب أمتعها تصنيفا ، وأتمها تحريرا وأحسنها تأليفا ، منتخبا من أشياخ الإفادة أوسعهم علما وأكثرهم تحقيقا ، ومن أقران المذاكرة أروضهم بحثا وألطفهم تدقيقا ، عارفا لكل عالم حقه وموفّيا لكل علم مستحقه ، قد استغنيت بكتابى عن خلى ورفيقى ، وآثرت بيت خلوتى على شفيقى وشقيقى »

ويمضى القلقشندى فى مقامته على هذا النحو عامدا إلى الأسلوب المسجوع الذى هو الصفة اللازمة لفن المقامات منذ أنشأها مبدعها

---

(١) صبح الأعشى ١٤/١١٢ ـ ١٢٨ .

بديع الزمان ، غير أن صاحب صبح الأعشى يغرق إغراقا شديدا فى التلاعب بالألفاظ والمجانسة كأشراك وإشراك ، والأوقات والأقوات ، ووحشى وحوشى ، ويستجلى ويستحلى ، وشفيقى وشقيقى إلى غير ذلك من التعسف الشديد فى اختيار الألفاظ ، والقوة على الخاطر حتى يرفد القلم باللفظة المصنوعة التى تساير المعنى المطلوب .

ويمضى القلقشندى فى مقامته فيحكى أن إقباله على العلم قد جعله فى حالة من المسغبة ، وهو فى نفس الوقت لابد له من مواصلة التعلم والتثقف « فجعلت أسبر المعايش سبر متقصِّد ، وأسير فى فلوات الصنائع سير متعهد ، لكى أجد حرفة تطابق أربى ، أو صنعة تجانس طلبى ، فبينما أنا أسير فى معاهدها ، وأردد طرفى فى مشاهدها ، إذ رُفع لى صوت قرع سمعى برنته ، وأخذ قلبى بجنته ، فقفوت أثره متبعاً ، وملت إليه مستمعاً ، فإذا رجل من أحسن الناس شكلا ، وأرجحهم عقلا ، وهو يترنم وينشد :

إن كنت تقصدنى بظلمك عامداً فحرمت نفع صداقة الكتاب

السائقين إلى الصديق ثرى الغنى والنــاعشين لعثرة الأصحاب

والناهضين بكل عبءٍ مثقلٍ والناطقين بفصل كل خطاب

والعاطفين على الصديق بفضلهم والطيبــين روائح الأثواب

ولئن جحدتهم الثناء فطالمـا جحد العبيدُ تفضُّل الأربابِ

فلما سمعت منه ذلك ، وأعجبنى من الوصف ما هنالك ، دنوت منه دنو الواجل ، وجلست بين يديه جلوس السائل ، وقلت : هذه وأبيك صفات الملوك بل ملوك الصفات ، وأكرم الفضائل بل أفضل المكرمات ، ولم أكُ أظن أن للكتابة هذا الخطر الجسيم ، وللكتَّاب هذا الحظ العظيم ، فأعرض مغضباً ، ثم فوَّق بصره إلىَّ معجباً ، وقال : هيهات فاتك الحزم ، وأخطأك العزم ، إنها لمن أعظم الصنائع قدراً وأرفعها ذكراً ، نطق القرآن الكريم بفضلها فقال تعالى جل ثناؤه ؛ وتباركت أسماؤه : « اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الإنسان

ما لم يعلم » فأخبر تعالى أنه علم بالقلم ، حيث وصف نفسه بالكرم ، إشارة إلى أن تعليمها من جزيل نعمه،وإيذاناً بأن منحها من فائض ديمه » .

ويشير القلقشندى إلى أكثر الآيات الكريمة التى ورد فيها ذكر الكتابة، كما يذكر أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه قد اهتم بها كل الاهتمام وأنه استكتب نيفاً وسبعين كاتباً ، وجرى على سنته من تعظيم الكتابة الخلفاء الراشدون ومن تلاهم من الخلفاء والملوك المسلمين . ثم يدلف صاحب صبح الأعشى من هذه الالتفاتة القيمة إلى الحديث عن الكتابة حديث المعجب بها ، العارف لقدرها ، المقدس لشأنها فيقول :

« فالكتابة قانون السياسة ، ورتبتها غاية رتبة الرياسة ، عندها تقف الإنافة ، وإليها تنتهى مناصب الدنيا بعد الخلافة ، والكتاب عيون الملوك المبصرة وآذانهم الواعية وألسنتهم الناطقة وعقولهم الحاوية ، بل محض الحق الذى لا تدخله الشكوك ، وإن الملوك إلى الكتاب أحوج من الكتاب إلى الملوك ، وناهيك بالكتابة شرفاً ، وأعل بذلك رتبة وكفى ، أن صاحب السيف والعلم يزاحم الكاتب فى قلمه ، ولا يزاحم الكاتب صاحب السيف والعلم فى علمه .

وعلى الجملة فهم الحاوون لكل وصف جميل ، وشأن نبيل ؛ الكرم شعارهم ، والحلم دثارهم ، والجود جادّتهم ، والخير عادتهم ، والأدب مركبهم ، واللطف مذهبهم ، ولله القائل :

وشَمولٍ كأنما اعتصروها　　من معانى شمائل الكتّابِ

فلما انقضى قيله ، وبانت سبيله ، قلت : لقد ذكرت قوماً راقنى وصفهم ، وشاقنى لطفهم ، ودعانى طيب حديثهم ، وحسن أوصافهم ، وجميل نعوتهم إلى أن أحل بناديهم ، وأنزل بواديهم ، فأجعل حرفتهم كسبى ، وصنعتهم دأبى ، ليجتمع بالعلم شملى ، ويتصل بالاشتغال حبلى ، فأكون قد ظفرت بمنيتى ، وفزت ببغيتى ،

فأى قبيل من الكتاب أردت ؟ وإلى أى نوع من الكتابة أشرت ؟

أكتابة الإنشاء والخطابة ؟ أم غيرهما من أنواع الكتابة ،فنظر إلى مُبتسما ، وأنشد مترنماً :

قوم إذا أخذوا الأقلامَ من غضبٍ ... ثم استمدوا بها ماء المنيّاتِ
نالوا بها من أعاديهم وإن بعدوا ... ما لم ينالوا بحـــد المشرفيّات

إن القلقشندى فى فقرته السابقة تلك من مقامته يعرض لأخلاق الكتاب وصفاتهم وسمو مكانتهم ويفضلهم على سواهم من رجال الدولة حتى على أرباب السيف ، وهو فى ذلك يرسم على منوال عبد الحميد فى وصفه للكتاب ، وغير عبد الحميد من الكتاب الكثيرين الذين استعان القلقشندى بأقوالهم وآرائهم وسبقت الإشارة إليهم قبل قليل فى هذا البحث . ويمضى القلقشندى فى حواره مع « الناثر بن نظام » بطل مقامته حتى يستنطقه بمزيد من فضائل كتاب الإنشاء دون غيرهم من سائر الكتاب فيقول :

« فقلت كأنك تريد كتابة الانشاء دون سائر الكتابات ، وهى التى نقصدها بالتصريح وتشير إليها بالكنايات ، فقال : وهل فى أنواع الكتابة جملة نوعٌ يساويها ، أو فى سائر الصنائع على الإطلاق صنعة تضاهيها ؟ إن لها للقدح المعلى ، والجيد المحلى ؛ والذروة المنيفة ؛ والرتبة الشريفة ، كتابها أسُّ الملك وعماده ، وأركان الملك وأطواده ولسان المملكة الناطق ، وسهمها المفوق الراشق ، ولله حبيب بن أوس الطائى حيث يقول :

ولضربة من كاتب ببنانه ... أمضى وأقطع من رقيق حسام
قوم إذا عزموا عداوة حاسد ... سفكوا الدما بأسنة الأقلام

قلمها يبلغ الأمل ، ويغنى عن البيض والأسل ، به تصان المعاقل ، وتفرق الجحافل

فلكم يفلُّ الجيش وهو عرمرم ... والبيض ماسلت من الأغماد

وبعد أن يجرى حوار آخر بين صفة كاتب الخراج وصفة كاتب الإنشاء مع اقتباس من أقوال الحريرى فى مقاماته من صفة الكاتبين يبين فيها ترجيح كفة كاتب الإنشاء على كفة كاتب الأموال ، وهو

الهدف الذى استهدفه القلقشندى منذ البداية ، يجرى أديبنا على لسان «الناثر بن نظام» المؤهلات العلمية والحصيلة الثقافية التى يجب أن يتسلح بها كاتب الإنشاء ، وهى نفسها المؤهلات التى أثبتها عبد الحميد فى رسالته إلى الكتاب مثل : حفظ كتاب الله العزيز ، والسير والأحكام وقواعد الإسلام والأحاديث النبوية ودقائق معانيها ومعرفة غريبها ، والعلم بالأحكام السلطانية وفروعها ، والتوغل فى أشعار العرب والمولدين وأهل الصناعة من المحدثين ، وما ورد عن كل فريق منهم من الأمثال نثراً ونظماً ، والاطلاع على خطب البلغاء ورسائل العظماء ، والعلم بأيام العرب وحروبهم ، والنظر فى التواريخ وأخبار الدول الماضية ، وسير الملوك وأحوال الممالك ، وسعة الباع فى اللغة والنحو والتصريف وعلوم المعانى والبيان والبديع ، وتحسين الخط والعناية به ، وغير ذلك من العناصر الكثيرة والمعارف العديدة التى جعلها القلقشندى ــ حينما طلب إليه التوسع فى المقامة ــ أبوابا وفصولا لكتاب صبح الأعشى .

على أن غرض القلقشندى فى إنشاء مقامته لم يكن مقصورا على تفضيل كتابة الإنشاء وتعليمها وحسب ، بل استهدف الأديب الكبير مدح آل فضل الله العمرى الذين كانت رياسة الكتابة معقودة اللواء على نواصيهم لفترة غير قصيرة من الزمان ، كما عمد إلى إعلاء شأنهم والمقارنة بينهم وبين سابقيهم من أئمة الكتابة وأساطين الانشاء :

« واعلم أن حسن الخط من الكتابة واسطة عقدها ، وقوة الملكة على السجع والازدواج ميلاك حلها وعقدها ، على أن خير الخط ما قُرىء ، وأحسن السجع ما سلم من التكلف وبرىء ، وللكتّاب فى بحر الكتابة سبحٌ طويل ، وتفنن يسفر عن كل وجه جميل :

فقلت : فهل لهذه الرتبة الرئيسية ، والمنقبة النفيسة ، سمط يلمها ، أو سلك يضمها ، فقال : سبحان الله ، إن بيتها لأشهر من قفا نبك ، وأظهر للعيان من شامخات جبال النبك ، أيخفى من البدر ضوءه الباهر ، ونوره الزاهر ؟ إن ذلك لقاصر على «آل فضل الله» حقا ،

ومنحصر فى المقر البدرى صدقا ، فهو قطبها الذى تدور عليه ، وابن بجدتها التى ترجع فى علومها ورسومها وسائر أمورها إليه ، فلو رآه « الفاضل عبد الرحيم » لم ير لنفسه فضلا ولا رضى لغيه مقالا ، أو عاينه عبدالحميد الكاتب لقال : هكذا هكذا وإلا فلا لا ، أو عاصره « قدامة » بجلس قدامه . أوأدركه « ابن قتيبة » لاتخذه فى « أدب الكاتب » شيخه وإمامه ، أو بصر به « الصافى » لصبا إليه ومال ، أو قارن زمانه « الحسن بن سهل » بل « الفضل » أخوه لقام ببابه وما زال ، أو جنح « ابن العديم » إلى مناوأته لأدركه العدم ، أو جرى « الصاحب بن عباد » فى مضمار فضله لكبا وزلت به القدم ، أو اطلع « ابن مقلة » على حسن خطه لقال : هذا هو الجوهر الثمين ، أو نظر « ابن هلال » إلى بهجة رونقه لقال : إن هذا لهو الفضل المبين ، إن تكلم نفث سحرا ، أو كتب خلت زهرا ، أو تخيلت دراً .

يؤلف اللؤلؤ المنثور منطقه وينظم الدرّ بالأقلام فى الكتب

ويمضى القلقشندى بمقامته فى مديح طويل لرئيس ديوان الإنشاء البدر بن فضل الله العمرى فى أسلوب يرق ويسمو حينا ، وحينا آخر يتسم بالصنعة التى لا يستسيغها وينفر منها الحس المرهف .

على أن هذه المقامة المغمورة تعتبر فى رأينا عملا أدبيا كبيرا وجهداً ثقافيا مرموقا تنبىء عن أعماق أدبية ثرية فى نفس القلقشندى الذى كان الإخلاص والجد رائدين له فى هذا العمل الإنشائى الجليل .

ومن الأعمال الأدبية التى ابدعها القلقشندى وطرز بها كتابه ، رسالة فى المفاخرة بين العلوم ، وهو مذهب أدبى سار عليه جمع من أدباء ذلك الزمان ؛ لقد ضمّن القلقشندى هذه الرسالة نيفا وسبعين علما يفاخر بعضها بعضا فى بسطة من القول وصنعة فى الأسلوب ؛ واحتلت ما يقارب الثلاثين صحيفة من المجلد الأخير من صبح الأعشى ؛ وقد شملت الرسالة علوم اللغة ، والنحو ؛ والشعر ؛ والعروض ؛ والموسيقى ، والطب ، وقص الأثر ؛ وخط الرمل ؛ وتعبير الرؤيا ، وأحكام النجوم ،

والسحر ، وعلم الهيئة ، والأرصاد والمواقيت ، والهندسة وعقود الأبنية ، ومراكز الأثقال ، والفلاحة ، وإنباط المياه ، والآلات الحربية ، والكيمياء ، والحساب المفتوح ، وحساب التخت ، والجبر ، والمقابلة ، وحساب الدرهم والدينار ، وحساب الدور والوصايا ، والفقة ، والفرائض ، وأصول الفقه ، والجدل ، والمنطق ، ودراية الحديث ، ورواية الحديث ، والتفسير ، وأصول الدين ، والتصوف ، وتدبير المنزل ، والفراسة إلى غير ذلك من أصناف العلوم التى بلغت أكثر من سبعين علما على ما أشرنا قبل قليل .

والحق أن هذه المفاخرات قطعة رائعة من أدب الفكر ، يزيد من مقدار ما بذل فى إبداعها من جهد أن كاتبنا لم يتخل عن الحملة المسجوعة مرة واحدة مع سيطرة على شوارد الأفكار وشنيت الآراء ، غير أن الكاتب لو كان استطاع الانطلاق من أسر المحسنات البديعية ، لكان قد زاد القارئ فائدة وإمتاعا .

إن علم اللغة يتصدر الحديث فى هذه المفاخرة الطريفة فيقول(١) :

« قد علمتم معشر العلوم أنى أعمكم نفعا ، وأوسعكم مجالا وأكثركم جمعا ، على قطب فلكى تدور الدوائر ، وبواسطتى تدرك المقاصد ويستعلم مافى الضمائر ، وبدلالتى تعلم المعانى المفردات ، ويتميز مايدل على الذوات مما يدل على الأدوات ، وتتبين دلالات العام والخاص ، ويتعرف ما يرشد إلى الأنواع والأجناس وما يختص بالأشخاص ، على أن كلكم كلٌ علىّ ، ومحتاج فى ترجمة مقصوده إلى ، فلفظى «المحكم» وأقوالى الصحاح وكلامى الجامع وسيف لسانى المجرد ناهيك من سلاح ، وفضلى المجمل لايحتاج إلى بيان ، استأثر الله تعالى بتعليمى لآدم عليه السلام ، وآثره بى معرفة على الملائكة فكان خصيصة له على الملائكة الكرام » .

فيوقفه علم التصريف ويشبهه بالرمح بغير سنان وبالسيف بغير قائم

(١) صبح الأعشى ١٤/٢٠٦ .

ويقول له من كلام طويل : فأنت غير مستقل بنفسك ، ولا قائم برأسك ، بل أنا المتكفل بتأسيس مبانيك ، والملتزم بتحرير ألفاظك وتقرير معانيك ، بي تعرف أصول أبنية الكلمة فى جميع أحوالها وكيفية التصرف فى أسمائها وأفعالها ، وما يتصل بذلك من أحوال الحروف البسيطة وترتيبها ، واختلاف مخارجها وبيان تركيبها ، والأصلى منها والمزيد ، والمهموس والرخو الشديد . . . »

« فعندها غضب علم النحو واكفهر ، وزمجرواشمخر ، وقال : ياالله! (استنّت الفصال حتى القرْعا) و « استنسرت البغاث » فكان أشد ثلمة وأعظم صدعا ، لقد ادعيت ماليس لك ففاتك الحبور ، و « من تشبع بما لم ينل فهو كلابس ثوبى زور » وهو أنت إلا بضعة منى ؟ تسند إلى وتنقل عنى ؟ لم يزل علمك باباً من أبوابى ، وجملته داخلة فى حسابى ، حتى ميزك « المازنى » فأفردك بالتصنيف ؛ وتلاه « ابن جنى » فتبعه فى التأليف ، واقتصر « ابن مالك » منك فى تعريفه على الضرورى الواجب ، واحسن بلك « ابن الحاجب » فى شافيته فرفع عنك الحاجب ، وأنت مع ذلك كله مطوى « ضمن كتبى ، نسبتك متصلة بنسبى وحسبك لاحق بحسبى ..... »

وهنا تبرز علوم المعانى والبيان والبديع وتحمل على النحو حملة شعواء قائلة : جعجعة رحى من غير طحن ، وتصويت رعد من غير مزنة ، نائلة من قدره بأنه ليس إلا مجرد اصطلاح اصطلح عليه الناس ، ولو اصطلحوا على نصب الفاعل ورفع المفعول ما أخل ذلك بالتفاهم بينهم . فيقول علم الشعر :

« أراكم قد نسيتهم فضلى الذى به فضلتم ، وصرمتم حبلى الذى من أجله وصلتم ، أنا حجة الأدب ، وديوان العرب ، علىّ ترِ دون ، وعنى تصدرون ، وإلىّ تنتسبون ، وبى تشتهرون .... بل لايكاد علم من العلوم الأدبية يستغنى عن شواهدى ولا يخرج فى أصوله عن قوانينى وقواعدى ، حتى علم النثر الذى هو شقيقى فى النسب ، وعديلى فى لسان العرب ، لم يزل أهله يتطفلون على فى بيت يحلونه ، ويقفون من بديع محاسنى عند حد لايتعدونه » .

وهنا يتدخل علم القافيه فيقول : « إنك وإن تألق برق مباسمك ، وطابت أيام مواسمك ، فأنت موقوف على مقاصدى ، ومغترف من روى موارد ى ، أنا عدة الشاعر ، وعمدة الناثر ، لايستغنى عنى شعر ولاخطابة، ولا يستنكف عن الوقوف على أبوابى ذو ترسل ولا كتابة » :

فيحتج على هذا القول علم العروض ويدلى بدلوه ذاكرا أنه معيار القريض وميزانه ، وعليه تبنى قواعده وأركانه ، وهنا يتدخل علم الموسيقى الوثيق الصلة بالشعر والقافية والعروض موجها الخطاب إلى علم العروض « لا فائدة فيك ولا حاجة إليك ، ولا عبرة بك ولا معول عليك ، وكفى بك هضما ، ونقيضة وذما ، واستدلالا على دحض حجتك ، وضعف أدلتك قول ابن حجاج :

مستفعلن فاعلن فعول مسائل كلها فضول

قد كان شعر الورى صحيحا من قبل أن يخلق «الخليل»

على أنه إن ثبتت لك فائدة ، وعادمنك على الشعر أو الشعراء عائدة، فإنما تفاعيلك مقدمة لألحانى ، وأوزانك وسيلة إلى أوزانى ، نعم أنا غذاء الأرواح ، وقاعدة عمود الأفراح ، والمتكفل ببسط النفوس وقبضها، والقائم من تعديلها وتقويمها بنفلها وفرضها .... مع مايتفرع عنى من علم الآلات الروحانية التى تنعش الأرواح وتجلب لأفراح، وتنفى الأتراح ،وتؤثر فى البخيل السماح ، وتفعل فى الألباب مالا تفعل فى اللبات بيض الصفاح » .

ويمضى القلقشندى فى مفاخرته على هذا النحو الطريف ، ما يكاد علم ينتهى من المفاخرة بنفسه حتى يربط القلقشندى بينه وبين العلم الذى يليه بخيط يلتقطه العلم الثانى لكى يدلى بدلوه فى معركة المفاخرة التى تبدو روح الترابط بينها ميسرة سهلة بعيدة عن التصنع والافتعال . والمناظرة فى جملتها تدل على أن القلقشندى قد سلح نفسه بأطراف من المعرفة عن كل فن أو علم من الفنون والعلوم التى أسهمت فى المفاخرة .

والذوق الأدبى عند القلقشندى جعله لاينسى حين يقدم لنا بعض العلوم والأخبار أن يوشحها ببعض أسباب المتعة الفنية ويطرزها بأبيات من الشعر

الجميل التي تتفق والمناسبة ؛ فهو حين يتحدث في موضوع جغرافي أو تاريخي أوأثري لاينسى أنه أديب أوعلى الأقل يحاول أن يقدم موضوعه في ثوب أدبي رقيق أنيق، فعند حديثه عن الفصول الأربعة يأتي بكلام مختار لكاتب بليغ أو لشاعر نابه حول كل فصل من فصول السنة، فعن فصل الربيع يقول عبدوس الخزاعي : من لم يبتهج بالربيع ولم يستمتع بأنواره ؛ ولا استروح بنسيم أزهاره ؛ فهو فاسد المزاج ؛ محتاج إلى العلاج(١) . والبحتري يقول أبياتا رقيقة في الربيع يوردها له القلقشندي في مكانها المناسب(٢) :

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا
من الحسن حتى كاد أن يتكلما

وقد نبه النوروز في غسق الدجى
أوائل ورد كن بالأمس نوما

يفتحها برد الندى فكأنما يبث حديثا بينهن مكتما

ومن شجر رد الربيع رداءه كما نشرت ثوباً عليه منمنما

أحلّ فأبدى للعيون بشاشة وكان قذى للعين إذ كان محرما

ورق نسيم الجو حتى كأنما يجيء بأنفاس الأحبة نعّما

وعن فصل الصيف وحرارته يأتي القلقشندي بأبيات كثيرة لعدد من الشعراء منها هذان البيتان لسوّار بن المضرس (٣) .

وهاجرةٍ تشتوى بالسموم جنادبها في رءوس الأكم

إذا الموت أخطأ حرباءها رمى نفسه بالعمى والصمم

وعن فصل الخريف يفعل القلقشندي صنيعه بالربيع والصيف فيورد باقة مختارة من أشعار جمهرة شعراء الطبيعة النابهين مثل قول أبي بكر الصنوبري(٤) .

---

(١) صبح الأعشى ٣٩٤/٢ .
(٢) المصدر السابق ٣٩٥ .
(٣) نفس المصدر ٣٩٧ .
(٤) صبح الأعشى ٣٩٩/٢ .

ماقضى فى الربيعَ حقَّ المسرّا   ت مضيعٌ لحقها فى الخريف
نحن منه على تلقّى شتاء   يوجب القصف أو وداع مصيف
فى قميص من الزمان رقيق   ورداء من الهواء خفيف
يرعد الماء فيه خوفاً إذا ما   لمسته يد النسيم الضعيف

ومن الأبيات الجميلة التى أوردها القلقشندى فى الخريف أبيات ابن الرومى التى أفتن فيها وأبدع فأتى فيها بصور عديدة من الجمال منها : (١)

لولا فواكه أيلول إذا اجتمعت   من كل فن وورق الجو والماء
إذاً لما حفلت نفسى إذا اشتملت   علىّ هائلة الحالين غبراء
ياحبذا ليل أيلول إذا بردت   فيه مضاجعنا والريح شجواء
وأسفر القمر السارى بصفحته   يرى لها فى صفاء الماء لألاء
بل حبذا نفحة من ريحه سحراً   يأتيك فيها من الريحان أنباء
قل فيه ماشئت من فضل تعهده   فى كل يوم يد لله بيضاء

وحينما يتحدث القلقشندى فى كتابه عن المتنزهات والأماكن المتصفة بالجمال مثل نهر الأبلة وشعب بوّان وصُغْد سمرقند وغوطة دمشق لاينسى أن يزيدنا بهذه الأماكن تعريفاً فيذكر عن نهر الأبلّة أنه « نهر شقه زياد مقابل نهر معقل وبينهما البساتين والقصور العالية ، والمبانى البديعة ، يتسلسل مجراه ،وتتهلل بكره وعشاياه ، ويظله الشجر وتغنى به زمر الطير ، ثم يأتى القلقشندى بأبيات للقاضى التنوخى التى منها(٢) :

وإذا نظرت إلى الأبلّة خلتها   من جنة الفردوس حين تُخيل
كم منزل فى نهرها آلى السرو   ر بأنه فى غيرها لاينزل
وكأنما تلك القصور عرائس   والروض حَلى وهى فيه ترفل

وإذا كان القلقشندى يركب مركب الجهل فى بعض الأحيان وهو

---

(١) الصبح ٢/٣٩٩ .
(٢) الصبح ٤/٤١٠ .

يتحدث عن بعض الآثار – وهو فى ذلك معذور – كالأهرام مثلا فإنه يسارع إلى صرف كدر الذهن بما يتبع ذلك من شعر جميل ، كقول المتنبى فيهما :

أين الذى الهرمان من بنيانه ؟ ماقومه ؟ ما يومه مالمصرع ؟
تتخلف الآثار عن أصحابها دهراً ويدركها الفناء فتتبع

أو قول شاعر آخر (١) :

انظر إلى الهرمين واسمع منهما مايرويان عن الزمان الغابر
لو ينطقان لخبّرانا بالذى صنع الزمانُ بأول وبآخر

وفى مجال الآثار أيضاً يتحدث القلقشندى عن بعض الآثار الإسلامية التى لازالت صامدة فى القاهرة مثل: باب زويلة الذى يقول عنه صاحب صبح الأعشى إنه من أعظم الأبواب وأشمخها وأنه قد بناه العزيز بالله الفاطمى وأكمله بدر الجمالى ، ثم يورد شعراً لعلى بن محمد النيلى فى وصفه (٢) :

ياصاح لو أبصرت باب زُويلة لعلمت قدر محـله بنيـاناً
باب تأزر بالمجرة وارتدى الشعرى ولاث برأســه كيوانا
لو أن فرعوناً رآه لم يُرد صرحاً ولا أوصى به هامانا

والقلقشندى نفسه يحاول أن ينهج نهج الشعراء وأن ينخرط فى سلكهم ولكن دون ملكة أصيلة أو استعداد سابق ، فهو حين يرى الشعراء يكتبون فى موضوع بعينة يسارع إلى السير فى الركب ، فحين بنى الظاهر برقوق مدرسته الظاهرية نظم فيها قصائد عديدة ، ويجد القلقشندى الفرصة مواتية له لعله يحظى بلقب شاعر فيقول :

وبالخليلى قد راجت عمارتها فى سرعة بنيت من غير مامهل
كم أظهرت عجباً أسواط حكمته وكم غدت مثلا ناهيك من مَثل

---

(١) المصدر السابق ٣/٣٢٥ .
(٢) نفس المصدر ٣٥٣ .

وكم صخور تخال الجن تنقلها فإنها بالوَحا تأتى وبالعجل

وللقلقشندى شعر منثر فى أماكن متفرقة من كتابه ، ولكنه ليس من القيمة الأدبية أو الفنية بحيث يستحق أن نقف أمامه طويلا ، بل قد يكون من الخير ألا نعرض له على الإطلاق لأنه إلى مجرد النظم أقرب منه إلى الشعر ، ومن ثم فقد ضربنا صفحاً عنه حتى تظل صورة القلقشندى الأديب الكاتب المؤلف حافظة لقيمتها من التقدير .

ثالثاً : السمات الفنية للبلاغة والنقد فى صبح الأعشى :

وكتاب صبح الأعشى وقد أنشأه صاحبه لتعليم المتأدبين فن الإنشاء لم يقصر فى الدراسات البلاغية والنقدية وفن القول الجمالى ، وهى فنون لازمة للمتأدب وضرورة من ضرورات الصناعة .

لقد أفرد القلقشندى فصولا غير قليلة لأبواب البلاغة فى مواطن عديدة من أجزاء كتابه ، وبصر المتأدب بدقائق فصول البلاغة وتفاصيلها : من معانى وبيان وبديع ، ضارباً الأمثلة الكثيرة المختارة بعناية ، المنتقاة بذوق سليم ، التى يفيد منها المتأدب عقلا وأدباً .

إننا لا نستطيع أن نعد القلقشندى ضمن زمرة البلاغيين أو النقاد الذين تخصصوا فى هذه العلوم وتفرغوا لها ، فإن ذلك لم يخطر ببال القلقشندى نفسه ، وإنما استطاع الرجل أن يقدم لطالبى العلم دراسات فى هذا السبيل اعتمد فيها على البلاغيين القدامى من أمثال : ابن قتيبة وأبى هلال والجرجانى وابن الأثير وغيرهم ، ينقل عنهم فى أمانة ، وينسب إلى كل واحد منهم رأيه فى ثقة به واحترام لرأيه ، ثم هو فى كثير من الأحيان يدلى بدلوه ويسهم برأيه إذا ماأحس أن الحاجة تدعو إلى ذلك .

وهو فى هذا السبيل أيضا يقدم للدارسين ــ وقد رأى أن ذلك ضروريا ــ دراسات عن مذاهب الأقدمين من البلاغيين فى مؤلفاتهم ، فيذكر أن ابن قتيبة بنى كتابه « أدب الكاتب » على أمور من اللغة والتصريف وطرف من

بالهجاء(١) : وأورد لابن قتيبة النص المتعلق بذلك فى قوله : وليس كتابنا هذا لمن لم يتعلق بالإنسانية إلا بالجسم ولا من الكتابة إلا بالرسم ، ولم يتقدم من الأداة الابالقلم والدواه ، ولكنه لمن شدا شيئا من الإعراب فعرف الصدر والمصدر ، وانقلاب الباء عن الواو والألف عن الياء ، وأشباه ذلك من النظرفى الأشكال لمساحة الأرضين حتى يعرف المثلث القائم الزاوية . . . . »

ويعرض القلقشندى لكتاب الصناعتين فيقول إن أبا هلال قد تابع ابن قتيبة فى الكثيرمن آرائه ، ويورد النص المتعلق بذلك تذكيرا للمتأدب وإلحاحا على خاطره حتى يحسن التلقى ويخرج بالفائدة (٢) ، ويحاول القلقشندى أن يؤكد تالك المعانى جميعا فيأتى بقصة طريفة هى قصة عمرو بن مسعدة والحائك التى أشرنا إليها فىصفحة سابقة من هذا البحث .

وإذا كانت اللغة هى أصل علوم البلاغة وماعونها فإن القلقشندى يفسح للحديث عنها شطرا من صفحات كتابه . وهو يتعصب لها فيذكر فضلها وما اختصت به على غيرها من اللغات الأخرى ، ثم يتوسع فى ذكر غريبها والمتباين منها ، والمترادف ، والمتضاد ، والحقيقة والمجاز والمقصور والممدود ، والمذكر والمؤنث ، والمهموز وغير المهموز ، والمزدوج والمرتب ، والمختلف اسما متشابه معنى ، كل ذلك فى بسطة من القول معتمدا على مراجع من تأليف الأقدمين مثل : ابن قتيبة والأصمعى والثعالبى فى فقه اللغة ، وأبى جعر النحاس فى « صناعة الكتاب » وكشاجم فى « كنز الكتاب» ،والمصنفات اللغوية للجوهرى وابن سيده وابن فارس(٣) :

والقلقشندى إذ يقدم هذه الدراسة اللغوية التى يعتبرها أصل الكتابة يفرد فصلا طويلا لعلوم المعانى والبيان والبديع ، وهو فى هذه الفصول يعتمد على الأمثلة الكثيرة الوفيرة من القرآن الكريم والحديث الشريف وخطب البلغاء وأمثلة شعرية وأمثال عامة ، عامدا إلى الإستطراد دون

---

(١) صبح الأعشى ١/١٤٠ .

(٢) المصدر السابق ١/١٤١ .

(٣) نفس المصدر ١٥٢ ومابعدها ، ٢/٢١٤ وما بعدها .

التعريف بماهية كل فصل من هذه الفصول ، وكأنما قد جعل ذلك كله بمثابة تمهيد لدراسة مطولة جاء بها متفرقة فى الأجزاء التاليةمن كتابه . (١)

ولما كان الإيجاز من الألوان الأسلوبية التى تتميز بها العربية دون غيرها من اللغات ، وهو فى نفس الوقت ضرورة كتابية فى كثير من المواقف ، فإن القلقشندى يخصه وضده « الإطناب » بفصلين فى الجزء السادس من كتابه ، فيذكر المواطن التى يحسن فيها الإيجاز ويحددها بخمسة مواطن إذا كانت الكتب صادرة عن السلطان أو أحد الرؤساء إلى الأتباع ، ويحددها بثلاثة مواطن إذا كانت الكتب صادرة عن الأتباع إلى السلطان أو الطبقة العليا من الرؤساء . وهو حين يتحدث عن الإطناب والبسط فى القول يستحسنه فى موضعين : إذا كان الكتاب صادرا عن السلطان أوأحد الرؤساء إلى من هم دونه ، ويستحسنه فى موضع واحد : إذا كان الكتاب صادرا من مرءوس إلى رئيس . (١)

وقد لاحظنا فى كل ماكتبه القلقشندى عن الإيجاز والإطناب أنه عالة على صاحب « مواد البيان » وأنه عالة على البلاغيين عامة فى جميع ما كتبه فى شأن البلاغة . ونحن لا نعتبر ذلك عيبا عند القلقشندى، ذلك أنه لم يدع أنه بلاغى ، وإنما موقفه موقف المعلم الذى يرجع إلى المصادر المشروعة التى يأخذ منها مادة درسه ثم ينقحها ويهذبها ويحسن عرضها على تلاميذه .

فإذا ترك القلقشندى القيود التى غلت يديه عن الانطلاق ، ونعنى بها قيود البلاغة التى لم يستطع أن يجد لنفسه فيها سوى مكان الناقل المقلد ، وخلص إلى الكتابة الجمالية ، وجدناه أديبا ذا ذوق وأصالة فى تعهده لموضوعات العرض الجمالى لفنون القول والإنشاء .

ففى مقام حديث الشعر والنثر نجده متحمسا كل التحمس للنثر دون الشعر بصفة عامة ؛ اللهم إلا فى مقام الاستشهاد به ، وهو ينتهز الفرصة

---

(١) راجع صبح ٢/٢١٤ وما بعدها .
(٢) الصبح ٦/٣١٥ وما بعدها .

فيحكى قصة الاستشهاد بالشعر وبدايتها ، ويذكر أن هذه الظاهرة الأدبية بدأت حين كتب عثمان إلى علي – وقداجتمع المتآمرون حول بيته لقتله – رسالة ضمنها البيت المشهور :

فإن كنتُ مأكولا فكن خير آكل   وإلا فأدركني ولمّا أمزّق

وأما من حيث المعيار النقدى عند القلقشندى ، فإن تفصيله للنثر وتعصبه له واضح حيث يسوق لتزكية رأيه الحجة تلو الحجة ، ويأتي بالمثال تلو المثال ، فيقول : « النثر أرفع منه درجة ، وأعلى رتبة وأشرف مقاما ، وأحسن نظاما ، إذ الشعر محصور فى وزن وقافية ، يحتاج الشاعر معها إلى زيادة الألفاظ ، والتقديم فيها والتأخير ، وقصر الممدود ومد المقصور ، وصرف ما لاينصرف ومنع ما ينصرف من الصرف ، واستعمال الكلمة المرفوضة ، وتبديل اللفظة الفصيحة بغيرها ، وغير ذلك مما تلجىء إليه ضرورة الشعر فتكون معانيه تابعة لألفاظه . والكلام المنثور لا يحتاج فيه إلى شيء من ذلك ،فتكون ألفاظه تابعة لمعانيه، ويؤيد ذلك أنك إذا اعتبرت ما نقل من معانى النثر إلى النظم وجدته قد انحطت رتبته ، ألا ترى إلى قول أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه : « قيمة كل امرئ ما يحسن » أنه لما نقلها الشاعر إلى قوله :

فيا لائمى دعنى أغالى بقيمتى   فقيمة كل الناس ما يحسنونه

قد زادت ألفاظه وذهبت طلاوته .... وإذا اعتبرت مانقل (١) من معانى النظم إلى االنثر وجدته قد نقصت ألفاظه وزادت حسنا ورونقا. ويأتى القلقشندى ببيت المتنبي فى وصف معركة الحدث التى جرت بين سيف الدولة الحمدانى والبيزنطيين .

وكان بها مثل الجنون فأصبحت   ومن جثث القتلى عليها تمائم

ثم يأتى بكلام لضياء الدين بن الأثير وقد نثر البيت فى قوله :وكأنما كان بها جنون فبعث لها من عزائمه عزائم وعلق عليها من رءوس القتلى

---

(١) صبح الأعشى ١/٥٨ .

تمائم : ويعجب القلقشندى كل الإعجاب بنثر ابن الأثير ويعلق عليه قائلا : إن المعنى قد جاء فى غاية الطلاوة خصوصاً مع التورية الواقعة فى ذكر العزائم مع ذكر الجنون .

ويمضى القلقشندى فى تحمسه للنثر وتفضيله على الشعر ذاكراً أن الله سبحانه وتعالى أنزل الكتاب العزيز منثوراً ، وذم الشعر فى قوله تعالى: « وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون » وقوله تعالى « وما علمناه الشعر وما ينبغى له » .

ويبدو أن القلقشندى وقد أحب الكتابة كل الحب لم ينتبه إلى ما فى الشعر من سحر وجمال ، فحجب ذلك عمداً فى بعض المواقف ، ثم ما لبث جلال الشعر أن دفع به إلى الاعتراف به فى صفحات كثيرة من كتابه ، فهو يصف الشعر بتفرده فى اعتدال أقسامه وتوازن أجزائه وتساوى قوافى قصائده مما لا يوجد فى غيره من سائر أنواع الكلام ، مع طول بقائه على مر الدهور وتعاقب الأزمان ، وتداوله على ألسنة الرواة وأفواه النقلة ، لتمكن القوة الحافظة منه بارتباط أجزائه ، وتعلق بعضها ببعض ، مع شيوعه واستفاضته ، وسرعة انتشاره وبعد مسيره ، وما يؤثره من الرفعة والضعة باعتبار المدح والهجاء ، وإنشاده بمجالس الملوك الحافلة والمواكب الجامعة بالتقريظ وذكر المفاخر وتعدد المحاسن...وقبوله لمـــا يرد عليه من الألحان المطربة المؤثرة فى النفوس اللطيفة والطباع الرقيقة ، وما اشتمل عليه من شواهد اللغة والنحو وغيرهما من العلوم الأدبية وما يجرى مجراها . . . وكونه ديوان العرب ومجتمع تمكنها ، والمحيط بتاريخ أيامها وذكر وقائعها وسائر أحوالها ، إلى غير ذلك من الفضائل الجمة والمفاخر الضخمة .

إن القلقشندى يصف الشعر بهذه الأوصاف الفريدة الرائعة التى تجعل له — دون شك — مكان الصدارة ولكنه مع ذلك يستطرد فيقول إنه بالرغم من كل ذلك فإن النثر أرفع منه درجة وأعلى رتبة . مر إلى آخر الأوصاف التى خلعها على النثر والتى مر ذكرها قبل قليل .

والقلقشندى لا يستطيع أن يصمد طويلا أمام جلال الشعر وسحره فيقول فى مكان آخر من كتابه : الشعر هو المادة الثالثة للكتابة بعد القرآن الكريم والأخبار النبوية — على قائلها أفضل الصلاة والسلام — وخصوصاً أشعار العرب فإنها ديوان أدبهم ومستودع حكمهم وأنفس علومهم فى الجاهلية ، به يفتخرون ، وإليه يحتكمون(1) .

إن القلقشندى يخاصم الشعر حيناً ويستعين به فى استجلاء كفة البلاغة العربية أحياناً ، ومع ذلك فإنه يفضل النثر عليه . ليت شعرى ماذا كان متوقعاً لموقفه لو أنه وهب ملكة الشعر نامية خلاقة ! !

ومن الأمور العجيبة رغم تحمس القلقشندى للنثر دون الشعر أن ذوقه فى اختيار شواهد الشعر فى كتابه تجعله فى مكان رفيع من حسن التذوق ورقة الاختيار ، لقد رصع القلقشندى كتابه بنماذج من الشعر الرقيق الأسلوب العميق المعانى مما يجعل الخاطر يرتاح إليه ولا يمل تكراره . إنه حين يتكلم عن المعانى المستقيمة الحسنة يختار طائفة من أبيات الشعر الجميل نورد بعضاً منها :

قال معن بن أوس فى الفخر :

لعمرك ماأهديت كفى لريبة	ولا حملتنى نحو فاحشة رجلى
ولا قادنى سمعى ولا بصرى لها	ولا دلّنى رأيى عليها ولا عقلى
وأعلم أنى لم تصبنى مصيبة	من الدهر إلا قدأصابت فتى قبلى
ولست بماش ما حييت لمنكر	من الأمر لا يمشى إلى مثله مثلى
ولا مؤثر نفسى على ذى قرابة	وأوثر ضيفى — ماأقام — على أهلى

وقال شاعر آخر :

ولست بنظار إلى جانب الغنى	إذا كانت العلياء فى جانب الفقر

---

(1) الصبح ١/٢٨١ .

وقال بشار :

إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ظمئت ، وأى الناس تصفو مشاربه ! !

وقال أبو العتاهية فى الوعظ بزوال العز والنعمة بالموت :

وكانت فى حياتك لى عظات وأنت اليوم أوعظ منك حياً

وقال أبو تمام فى الأيام :

على أنها الأيام قد صرن كلها عجائب حتى ليس فيها عجائب

ومن الأبيات الجميلة قول يزيد من الطثرية فى محبوبته :

بنفسى من لو مر برد بنانه على كبدى كانت شفاءً أنامله

وقول عروة بن أذينة :

إن التى زعمت فؤادك ملها خُلقت هواك كما خُلقت هوًى لها

بيضاء باكرها النعيم فصاغها بلباقة فأدقها وأجلها

حجبت تحيتها فقلت لصاحبى ما كان أكثرها لنا وأقلها !

وإذا وجدتُ لها وساوس سلوة شفع الضمير إلى الفؤاد فسلَّها(١)

لاغرابة إذن حينما ندهش للقلقشندى وهو يفضل النثر على الشعر ، غير أن عذره فى كونه كاتبا فى ديوان الإنشاء الذى يعتمد على النثر دون الشعر ، وأنه يعلّم الإنشاء التى تعتمد أيضا أكثر ما تعتمد على النثر دون الشعر .

وفى مجال دراسة نقديه جمالية للأمثال العربية يقدم لنا صاحب « صبح الأعشى » فصلا طيبا ينقل فيه قول أحمد بن عبد ربه : « الأمثال هى وشى الكلام ، وجوهر اللفظ ، وحلْى المعانى ، والتى تخيرتها العرب ، وقدمتها العجم ، ونُطق بها فى كل زمان على لسان ، فهى أبقى من الشعر ،

---

(١) نماذج عديدة من الشعر الرائق فى الصبح ٢/١٨٦ – ٢١٤ .

وأشرف من الخطابة ، لم يسر شيء كسيرها ، ولا عمّ عمومها حتى قالوا : أسير من مثل ، قال الشاعر :

« ما أنت إلا مثلٌ سائر يعرفه الجاهل والخابر »(١)

ودراسة الأمثال تلك التي أفردها القلقشندى بحديث طويل تدور كلها حول الأمثال العربية التي توفر عليها قبله : الميدانى والمفضل الضبي وحمزة الأصبهانى والقمّى . ثم إن القلقشندى أشار إلى الأمثال التي جاءت شعرا عند المولدين من أمثال جرير والفرزدق ، والتي جاءت عند شعراء المحدثين كأبي العتاهيه وأبي تمام والمتنبي . والأمثال التي يأتي بها صاحب صبح الأعشى نثرية وشعرية ، وكلها أمثلة رائقه مختارة ، يقسمها قسمين ، أو على حد تعبيره ، ضربين : قسم قريب الفهم بظهور معناه وكثرة دورانه بين الناس ، وقسم بعيد الفهم لخفائه .

ويأتي القلقشندى بأنموذج للمثل القريب الفهم الكثير الدوران على الألسنة في قولهم : « عند الصباح يحمد الناس السرى » . والمثل بهذه الصيغة منعدم المعنى والمرمى ، ولكن أديبنا زيادة منه في الإيضاح يشرح غرض المثل ويبين مايمكن أن يكون قد استبهم من هدفه ويحكي قصة قائله وهو خالد بن الوليد الذي أراد بضربه الترغيب في السير في الليل والحث عليـــه :

ويجيء القلقشندى بمثل آخر من نفس الضرب ، وهو : « ساء سمعا فأساء إجابة » وإذا كان المثل مفهوم المعنى والهدف دون حاجة إلى مزيد من الإيضاح ، فإن قصته غير معروفه ، ولذلك فإن أديبنا يحكيها في إيجاز لطيف ، ويذكر أن أول من قال ذلك هو سهيل بن عمرو ، وكان قد تزوج صفية بنت أبي جهل فولدت له ابنه « أنساً » فرآه الأخنس بن شريق الثقفي معه ، فقال : من هذا ؟ فقال سهيل : ابني فقال الأخنس : حياك الله يابنى ! أين أمك ؟ فقال الإبن : لا والله

---

(١) صبح الأعشى ١/٢٩٦ .

ما أمّى ثمّ ، انطلقت إلى بيت أم حنظلة تطحن دقيقا ، فقال أبوه : ساء سمعا فأساء إجابة .

ويأتى القلقشندى بنماذج للضرب الثانى من الأمثال ، وهى البعيدة الفهم لخفائها فيذكر مثلا طيب الواقع عذب الرنين وهو : «إن يبغ عليك قومك لا يبغ القمر »(١) ثم يشرح القلقشندى هدف المثل فيقول : إنه يضرب لمن ينكر الأمر الظاهر عنادا ، ثم يحكى قصته منقولة عن المفضل الضبى ، وتتلخص فى أن بنى ثعلبة بن سعد بن ضبة فى الجاهلية تراهنوا على الشمس . فقالت طائفة : تطلع الشمس والقمر يرى ، وقالت طائفة : يغيب القمر قبل أن تطلع الشمس ، فتراضوا برجل جعلوه بينهم حكما ، فقال واحد منهم : إن قومى يبغون على ، فقال الحكم : إن يبغ عليك قومك لا يبغ القمر .

ويعرض القلقشندى لمجموعة رائعة من الأمثال الشعرية التى جاءت فى مسرى القول الحكيم على ألسنة شعراء جاهليين وإسلاميين ومحدثين على ما ألمحنا فى صدر هذا الحديث ، فيذكر ذلك المثل المشهور المفهوم فى كل زمان ومكان وهو : «ويأتيك بالأخبار من لم تزود » وهو المصراع الثانى لبيت مشهور لطرفة بن العبد :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود

ويعمد القلقشندى إلى الطرافة وهو يذكر هذا المثال فيوشى قوله بحكاية طريفة تتلخص فى أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يتمثل بهذا المثل ، ولكنه كان يفرط عقده ويخرجه عن الوزن ، لأن الرسول كان يرى أنه لا يجمل به أن يقول شعرا ، فكان يردد المثل بصيغة غير منظومة وهى : « ويأتيك من لم تزود بالأخبار » .

والقلقشندى يذكر فى إعجاب بيت النابغة :

ولست بمستبق أخاً لا تلمه على شعث ، أى الرجال المهذّبُ ؟

---

(١) الصبح ١/٢٦٧ .

ولكنه لايذكر هذا المثل الجميل مجردا من أروع قصة ارتبطت به ، بل يأتى بها مستهدفا غايات بعيدة ، لعل أهمها إثبات الذوق الأدبى والمعيار النقدى عند الخليفة الثانى عمر بن الخطاب . والقلقشندى يسوق هذه الدراسة الجمالية كلها فى الأمثال بثًا للروح الأدبية عند الكتاب وعونا لهم على تجميع ثقافة إنشائية واسعة . فالقلقشندى فى صدر هذا المثل يذكر أن عمر بعد أن تمثل بالبيت تساءل تساؤل العارفين : لمن هذا ؟ فقيل له : للنابغة : فقال : ذلك أشعر شعرائكم . والمثل الحكيم الذى تضمنه البيت هو : « أى الرجال المهذب؟ » .

وأديبنا يناقش الأولين ممن عنوا بالأخبار الأدبية ويصحح أخطاء بعضهم ، على أنه على الأرجح لم يقصد إلى التصحيح بقدر ما قصد إلى الإطراف يذكر قصة أعجبته أو مثل راقه ، إنه يذكر قول الأصمعى : لم أجد فى شعر شاعر بيتا أوله مثل وآخره مثل إلا ثلاثة أبيات ، (١) بيت الحطيئة :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه   لايذهب العرف بين الله والناس

وبيتى امرئ القيس :

وأفلتهن علباء جريضاً   ولو أدركنه صفر الوطاب

وقاهم جدهم ببنى أبيهم   وبالأشقين ماكان العقاب

ثم يرد القلقشندى على الأصمعى بشكل مباشر فيأتى بعبارة لصاحب العقد الفريد فى هذا المقام وهى قول ابن عبد ربه : « ومثل هذا كثير فى القديم والحديث ، ولا أدرى كيف أغفل القديم منه الأصمعى ، ومنه ، «ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا » . والبيت بكماله قد مر ذكره قبل قليل ، وكل من مصراعيه يفيد حكمة بالغة وجرى مجرى الأمثال السائرة ، ويزيد من شهرته وذيوعه ارتباطه باستشهاد الرسول صلى الله عليه وسلم به منثورا . فالجدير بالذكر إذن أن القلقشندى — فى أدب جم — لايحاول

---

(١) الصبح ١/٣٠٠ .

أن يرد على الأصمعى بنفسه بل فضل أن يجرى الرد على لسان من هو أعلم منه فى هذا الموضوع ، فجعل تصويب الأصمعى صادراً عن أحمد بن عبد ربه ، وهما فرسا رهان فى هذا الميدان ، ميدان الأخبار الأدبية ، أوابدها وشواردها .

ولكى يحيط القلقشندى بموضوعه الأدبى فى ميدان الأمثال ، ولكى يغرب ويطرف ويستطرد ، فإنه يأتى ببعض الأمثال الموضوعة على لسان الحيوان ، بعضها عربى وبعضها فارسى أو هندى دخل أدبنا العربى فتقبله وصار مجالا للاستشهاد به ، إنه يذكر المثل المشهور الذى قيل على لسان ثور أحمر ، وهو : « إنما أُكلت يوم أُكِلَ الثور الأبيض » ، وقصة المثل معروفة للخاصة وأنصاف الخاصة ، غير أن القلقشندى يضيف أن أول من تمثل بهذا القول هو أمير المؤمنين على كرم الله وجهه حين رأى خلاف أصحابه وتخاذلهم ، وقد عنى بذلك أنه إنما خذل يوم خذل عثمان .

وإذا كان المثل السابق أقرب إلى الوضوح وأكثر ذيوعاً فى الاستشهاد ، ليس فى عصر القلقشندى وحده بل إنه لكذلك فى عصرنا هذا الذى نعيشه ، فإن أديبنا يأتى بمثل آخر جرى مجرى القصة الحكيمة ، وهى حكاية موضوعة على لسان الحيوان ، تتلخص فى أن أخوين هبطا بغنمهما واديا يرعيان فيه فخرجت حية من تحت الصفا وفى فمها دينار فألقته إليهما ، وأقامت على ذلك أياما ، فقال أحدهما لابد من قتل هذه الحية وأخذ هذا الكنز ، فنهاه أخوه عن ذلك ولكنه لم يقبل ، وحين خرجت الحية ضربها بفأس أخطأت قتلها ولكنها شجت رأسها فشذت عليه وقتلته ، فدفنه أخوه مقابلها ، فلما خرجت مرة أخرى من جحرها قال لها الأخ : هل لك أن نتعاهد على المودة وعدم الأذية وتعطينى ذلك الدينار كل يوم ، فقالت : لا ، فقال : ولم ؟ ، قالت : لأنك كلما نظرت إلى قبر أخيك لا تصفو لى ، وكلما ذكرت الشجة التى فى رأسى لا أصفو لك .

إن القلقشندى يأتى بهذا المثل كما نظمه النابغة وتمثل به :

كما لقيتْ ذاتُ الصَّفا من حليفها   وكانت تُريه المال غبًّا وظاهِرَهْ

فلما رأى أنْ قد تَشَمَّر مالُه ... وأثّل موجوداً وسَدّ مفاقِرَهْ
أكبَّ على فأس يحُدُّ غُرابها ... مذكَّرةً بين المعاول باتِرَهْ
فلما وقاها الله ضربة فأسه ... ولله عينٌ لاتُغَمِّضُ ناظِرَهْ
فقال تعالىْ نجعل الله بيننا ... على مالَنَا أوتنجزى لى آخره
فقالت يمينَ الله أفْعَلُ إننى ... رأيْتك سخريًّا يمينك فاجرة
أبَى لىَ قبرٌ لا يزال مقابلى ... وضربةُ فأسٍ فوق رأسى فاقره

ومهما يكن أمر البلاغة مع القلقشندى فهو قد أولاها فى كتابه فصولا عديدة كان فيها معتمدا على البلاغيين المتخصصين، أما ملكته النقدية فإنها مصقولة الحواشى صافية الذوق أعطت كتابه وجها جميلا فى فن القول ووجوه نقد الكلام والتمييز بين غثه وثمينه ، ورائقه ومخزونه ومألوفه وحواشيه ، كل ذلك فى صبر ووفرة وقدرة تدعو إلى اقتناص النفع واستجلاب الفائدة .

رابعا : النصوص التى تضمنها الكتاب :

إن صبح الأعشى من حيث النصوص الأدبية التى احتواها يعتبر أغنى مرجع عربى فى هذا الشأن نظرا لوفرة عدد الرسائل التى ضمتها دفتاه . لقد تعب القلقشندى دون شك فى جمع هذه النصوص المتنوعة الأشكال والأغراض ، ولا يقلل من مجهوده الكبير كونه أحد المحررين بديوان الرسائل حيث الكثير من الوثائق قريبة منه سهلة المأخذ ميسورة التناول .

ففى ميدان الخطابة جمع القلقشندى مجموعة كبيرة من خطب العرب ومفاخراتهم ومنافراتهم فى الجاهلية والإسلام كما أثبت مجموعة كبيرة من خطب الرسول صلى الله عليه وسلم، والخلفاء الراشدين وملوك بنى أمية وولاتهم والخارجين عليهم ، وبلغاء العرب عامة من رجال ونساء . (١)

وفى مجال النثر استطاع القلقشندى فى صبح الأعشى أن يغطى جميع

---

(١) انظر صبح الأعشى ٢١١/١ وما بعدها .

المساحات الزمنية والمكانية التى نطق فيها لسان عربى أو جرى فيها قلم عربى على صفحة قرطاس ، فجاء بمجموعة هائلة من الرسائل الديوانية والاجتماعية الأدبية على وجه سواء ، وهى كلها صفحات نقية بارعة من صفحات أدبنا الرفيع ؛ تشهد للكثرة الوافرة من أصحاب الأقلام بالتفوق والسبق والنبوغ ، إن تلك الرسائل على بلاغة صوغها وبهاء رونقها تعتبر وثائق تاريخية وأدبية واجتماعية قيمة نادرة ، وقد يستطيع المؤرخ أن يفيد منها أكثر مما يفيد الأديب . لقد ضمت مجموعة الرسائل المنتشرة فى الكتاب : رسائل الرسول إلى من دعاهم إلى الإسلام من الملوك والزعماء داخل الجزيرة وخارجها ، كما ضمت رسائل لأعلام الكتاب فى مختلف الأغراض كتبها : عبد الحميد وابن عبد كان والصابى وابن العميد وكشاجم والببغاء والقاضى الفاضل وشهاب الدين محمود الحلبى وصلاح الدين الصفدى والشيخ جمال الدين بن نباته ولسان الدين بن الخطيب الأندلسى وغيرهم . إنها رسائل كتبت فى الحرب والسلام ، والفتوح والمعاهدات ، والمواثيق والعهود ، والولايات وزجر الخارجين على السلطان ، بحيث تشكل باختلاف موضوعاتها منهلا عذباً متجدداً لكتابة التاريخ الإسلامى وتاريخ الأدب والحضارة العربية والإسلامية ، بل والتاريخ الإجتماعى للأمة الإسلامية مستمداً من الموضوعات المتسمة بالغرابة التى اتخذتها الرسائل الاجتماعية موضوعاً لها على النحو الذى سنفصله بعد قليل .

ولكى نيسر على الدارس تصنيف أغراض الرسائل التى ضمها « صبح الأعشى » بين دفتيه ونوضح قيمتها تاريخياً وسياسياً وأدبياً ، فإننا نحاول أن نقدمها فى أثوابها وأغراضها المناسبة لها :

أ ــ رسائل الحرب : وهى تلك الرسائل التى كانت تصدر على لسان القائد حينما يخوض معركة ويكتب له فيها النصر ، يوجهها إلى الخليفة أو السلطان ، كما كانت فى أحيان كثيرة توجه من سلطان إلى سلطان آخر ، وهذه الرسائل تكون طويلة فى العادة لضرورة المناسبة إلى الإطناب فى الوصف والتفصيل فى شرح المعركة ، ومن الرسائل التى يمكن أن تتخــذ نماذج

فى هذا السبيل: رسالة الخليفة العزيز بالله نزار الفاطمى إلى عامله بمصر يبشره بالفتح حين خرج لحرب القرامطة بالشام (١) وهى مستهلة بالتحميدات الطويلة التى هى صفة مدرسة عبد الحميد فى الكتابة ، كما أن الإطناب والبسطة فى القول والكثرة فى المترادفات تشكل الميزة الواضحة للرسالة ، وفى إحدى فقراتها يقول الكاتب :

« فأمر أمير المؤمنين بتزيين العساكر المنصورة والجيوش المظفرة ، وتعبئتها على مراتبها ، وترتيبها على مواكبها ، وتقدم إلى قوادها ألا يمشوا إلا صفاً ولا يسيروا إلا زحفا ، وعرّفهم أنه سيسير بنفسه ، ويقصد اللعين بموكبه وجمهوره ، ومن معه من حماة رجاله ، وأنه لا يثنيه عن الفاسق ثان ، ولا يصرفه عن الاقتحام صارف ؛ فبدا من عزائمهم ، وشدة شكائمهم ، وخلوص بصائرهم ، وسكون أفئدتهم ، وثبات أقدامهم ، ما كانت به دلائل النصر واضحة ، وشواهد الفَلْج فائحة ، وعلامات النصر ظاهرة ، وآيات النجح باهرة ، فمشوا على ما أمروا ، وساروا على ما سُيِّروا ، فعندما دنوا من عدو الله ، أصابوه للجلاد معدّاً ، وفى المحاربة مجدّاً ، واستخاروا الله عز وجل ، وتدانوا للتلاق ، والأخذ بالنواصى والأعناق ، وقامت الحرب على ساق ، وتجرع منها أمرّ مذاق ، فاستطار شرارها ، وتأججت نارها ، وارتفع دخانها ، وعظم شأنها ، والتزم الأقران بالأقران ، واشتد الضرب والطعان . . . . . . وقذف الله فى قلوبهم الرعب فتزلزلت أقدامهم ، وأرعشت أيديهم ، ونخبت أفئدتهم ، وولوا الدبر منهزمين ، ومنحوا ظهورهم مولين . . . » .

ومن أمثلة رسائل الحرب أيضاً — وهى كثيرة فى صبح الأعشى — رسالة كتبها أبو اسحاق الصابى عن عز الدولة بن بويه إلى الخليفة المطيع عند فتحه الموصل وهزيمته أبا تغلب بن ناصر الدولة الحمدانى (٢) ورسالة ابن الخطيب عن سلطانه ابن الأحمر صاحب الأندلس إلى المستنصر بالله أبى اسحاق خليفة الموحدين بالأندلس (٣) ، وهى رسالة مسرفة فى الطول مليئة بالصناعة

(١) صبح الأعشى ٦/٤٣٣ — ٤٣٩ .
(٢) الصبح ٦/٤٨٢ .
(٣) المصدر السابق ٦/٥٣٦ — ٥٥٨ .

والترادف والاسترسال ، ومع أنها حربية ، فإن معانى الحرب فيها لم تأخذ نصيبها كاملا ، ولكنها على كل حال رسالة جديرة أن يطلع عليها لما فيها من جهد ، ولأنها نموذج للكتابة الأندلسية فى تلك الفترة من الزمان .

ولعل سيد كتاب رسائل الحرب هو القاضى الفاضل كاتب صلاح الدين ووزيره الذى ارتبطت وزارته بالملك الذى حرر بيت المقدس وطهر الأرض العربية من الوجود الصليبى، وله فى ذلك رسائل كثيرة كتبها على لسان صلاح الدين، بعث بها إلى الخليفة العباسى فى بغداد (١) يقول فى واحدة منها :

« وكتاب الخادم هذا وقد أظفر الله بالعدو الذى تشظت قناته شفقا ، وطارت فرقه فرقا ، وفُلَّ سيفه فصار عصا ، وصدعت حصاته وكان الأكثر عددا وحصا ، فكلت حملاته وكانت قدرة الله تصرّف فيه العنان بالعيان ، عقوبة من الله ليس لصاحب يد بها يدان ، وعثرت قدمه وكانت الأرض لها حليفة ، وغضت عينه وكانت عيون السيوف دونها كسيفة ، ونام جفن سيفه وكانت يقظته تريق نطف الكرى من الجفون ، وجدعت أنوف رماحه وطالما كانت شامخة بالمنى أو راعفة بالمنون . . . »

ومن العجيب أن القارىء لرسائل القاضى الفاضل فى وصف الحروب الصليبية وسابقة اعتداء الصليبيين على البلاد وتهديد الأمن وإيقاع الأذى بالناس ليكاد يحس أن القاضى الفاضل وهو يصور الفترة السابقة على الانتصار إنما يصور الموقف الراهن فى البلاد العربية مع عدونا الذى يحتل الآن فلسطين وبيت المقدس .

ب — رسائل الزجر والاستصلاح : وهذا النوع من الرسائل كان مألوفا، وكان يعمد إليه فى حالة خروج قائد عن الطاعة أو عصيان وال على الخليفة أو السلطان ، وأحيانا أخرى فى حالة ثورة قطر من الأقطار . لقد جاء القلقشندى بعديد من الأمثلة فى هذا المقام لعبد الحميد (٢) ولابن عبد ربه كان على لسان أحمد بن طولون لولده العباس وقد خرج عليه (٣)

---

(١) نفس المصدر ٤٩٦ وما بعد .

(٢) صبح الأعشى ٢٦٨/٨ .

(٣) المصدر السابق ٥/٧ وما بعدها .

ولابن العميد أبي الفضل إلى قائد شق عصا الطاعة اسمه ابن بلكا (١). وليحيي بن زيادة وزير الخليفة العباسي الناصر لدين الله الى طغرل مقطع البصرة وقد نزح عنها مفارقا طاعة الخليفة (٢) ، ولأبي حفص بن برد الأندلسي عن ملكه إلى مسئول تمرد ثم عاد إلى الطاعة من تلقاء نفسه . (٣)

لقد رأينا أن خير تسمية لهذا النوع من الرسائل هي أدب الزجر والاستصلاح ، ذلك أن كل رسالة من هذه الرسائل المشار إليها بلغت قمة عالية من قوة الأسلوب والنفاذ إلى أعماق النفس الإنسانية سالكة سبيل الزجر والتخويف والترهيب حينا ، عامدة إلى أسلوب المصانعة والملاطفة والترغيب حينا آخر ، وكل رسالة من هذه الرسائل لها ميزة تنفرد بها عن غيرها ، ولكنها جميعا تقع في أسمى مراتب فن الإنشاء الرفيع ، وذكر فقرات منها لايغني عن الاطلاع عليها جميعا .

حـ ـ الرسائل السياسية : ونعني بها الرسائل التي تعرض للأمور الدبلوماسية بمفهوم عصرنا الحديث ، وهذه الرسائل ترق في مواطن الرقة ، وتخشن في مواطن الخشونة ، وتحاور وتجادل حيث تتطلب المواقف حوارا أو جدالا .

لقد أورد القلقشندي أكثر من رسالة سياسية جرت في نطاق الوطن الإسلامي، منها الرسائل البليغة المتسمة بالشدة والعنف التي جرت بين علي ابن أبي طالب ومعاوية حول الخلافة وامتناع معاوية عن البيعة إلا إذا ثأر علي من قتلة عثمان(٤) كما أورد أيضا الرسائل المتبادلة بين كل من المنصور الخليفة العباسي الثاني ومحمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب الملقب بالنفس الزكية ، والذي كان قد بويع بالخلافة في زمن

(١) المصدر السابق ٦/٢٧٥ (أورد القلقشندي فقرة قصيرة من هذه الرسالة البليغة لا تغني عن الاطلاع اليها ، وهي كاملة في يتيمة الدهر للثعالبي ٣/١٦٣ وكتابنا « الأدب في موكب الحضارة الاسلامية ٥٠٣) .

(٢) صبح الأعشى ٨/٢٦٩ .

(٣) المصدر السابق ٦/٢٧٥ .

(٤) صبح الأعشى ١/٢٢٨ .

المنصور(١) ، وكل ما حوته الرسائل المتبادلة بينهما يعتبر لونا جميلا من أدب السياسة ، أوبالأحرى هو باكورة أدب الدبلوماسية العربية الداخلية .

وفى النطاق الخارجى فإن الرسائل السياسية كانت حينا عنيفة ، وحينا آخر لينة لطيفة ؛ ومن تلك التى تتسم بالعنف الشديد ما جرى بين الرشيد ونقفور ملك الروم (٢) حينما ألقى كل منهما القفاز فى وجه صاحبه بحيث استفتح الرشيد رسالته إلى نقفور بقوله : « من عبد الله هارون أمير المؤمنين إلى نقفور ملك الروم . أما بعد فقد فهمت كتابك ، والجواب ما تراه لاما تسمعه ، والسلام على من اتبع الهدى » وقد جرى شئ من ذلك أيضا بين المعتصم وبين ملك الروم . (٣)

ومن الرسائل التى اتسمت بشىء من التطاول فى غير ما استعمال لألفاظ شديدة ، رسالة بعث بها ملك الفرنجة بالأندلس إلى يعقوب ابن عبد المؤمن أمير المسلمين بالأندلس (٤) مما جعل الأمير العربى يوقع على أعلى هذا الكتاب بالقول الكريم « ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون » .

ولعل أرقى الرسائل الدبلوماسية التى أوردها القلقشندى حسن صياغة ولباقة دبلوماسية ، رسالة كتبها ابراهيم بن عبد الله النجيرمى عن محمد بن طغج الإخشيد إلى ارمانوس عظيم الروم ؛ ردا على رسالة كان أرمانوس قد بعث بها إليه (٥) ، وهى على طولها لم يتخل الكاتب فيها مرة واحدة عن المعنى اللبق الذى يجمع بين القوة والرقة مع المحاجة والمحاورة والمداورة بحيث يمكن أن تعتبر هذه الرسالة واحدة من أفضل أدب السياسة فى الأدب العربى : (٦)

---

(١) المصدر السابق ١/٢٣١ .
(٢) الصبح ١/١٩٢ ، ٦/٤٥٧ .
(٣) المصدر السابق ١/١٩٢ .
(٤) نفس المصدر ١/١٩٣ .
(٥) الصبح ٧/١٠ وما بعدها .
(٦) يمكن مراجعة عرضنا لهذه الرسالة فى «الأدب فى موكب الحضارة ..» ص ٥٢٢ وما بعدها .

كما أورد القلقشندى رسالة أخرى يمكن أن تقف من حيث المستوى الدبلوماسى مع رسالة النجيرمى ـ كان الخليفة الفاطمى الحافظ قد بعث بها إلى صاحب صقلية ، وهى تعالج بعض المواقف وتناقش بعض المشاكل بين البلدين ؛ فى نطاق من سعة الأفق مع تأرجح بين الشدة المقبولة واللين الحازم . (١)

ونحن نعتبر أن هــذا اللون من الكتابة هو أنسب ما يمكن أن يفيد منه من يعد نفسه من الناشئين الذين عناهم القلقشندى وهو يؤلف لهم كتابه فى صناعة الإنشا .

د ـ رسائل الإدارة : أو الرسائل التى تتعلق بشئون الوظائف العامة المتصلة بالحياة الإجتماعية داخل البلاد وهى بدورها متنوعة الموضوعات كثيرة الأغراض أورد منها القلقشندى ما هو فوق الحصر ، ولكننا نلتقط بعض الموضوعات البارزة الطريفة منها كتعيين نقيب للأشراف ، أو تنصيب حاخام لليهود من سكان البلاد ، أو تقليد بطرك للمسيحيين ، ذلك أن الكاتب وهو يكتب مثل تلك الرسالة ينتهج أسلوباً خاصاً وينتقى معانى تتمشى مع طبيعة هدف الرسالة المتميز عن غيره من الأهداف ، فالقلقشندى يأتى لنا بنسخة تعين أشهر نقيب للطالبيين ببغداد وهو الشريف الموسوى ، وقد كتبت بقلم ألمع كتاب العباسيين أبى إسحاق الصابى ، وكانت بين الصابى والشريف صداقة متينة ، حتى إن الصابى لما مات ـ ولم يكن مسلما بل كان صابئيا ـ خرج الشريف على نطاق التقاليد ورثاه بقصيدتين من أرق ماقيل فى الرثاء ، ولذلك نجد الصابى يعطى هذ العهد عناية خاصة فى الصوغ والإطراء فيقول فيها (٢) :

« هــذا ما عهد عبد الله عبد الكريم الإمام الطائع لله أمير المؤمنين إلى محمد بن الحسين بن موسى العلوى حين وصلته به الأنساب ، وقرنت لديه الأسباب ، وظهرت دلائل عقله ولبابته ، ووضحت مخايل فضله ونجابته ،

(١) الصبح ٦/٤٥٨ وما بعدها .
(٢) المصدر السابق ١٠/٢٤٧ .

ومهد له بهاء الدولة وضياء الملة أبو نصر بن عضد الدولة ما مهد عند أمير المؤمنين من المحل المكين ، ووصفه به من الحلم الرزين ، وأشار به من رفيع المنزلة ، وتقديم الرتبة ، والتأهيل لولاية الأعمال ، وتحمل الأعباء والأثقال ، وحيث رغّبه فيه ، سابقة الحسن أبيه ، فى الخدمة والنصيحة ، والمشايعة الصحيحة ، والمواقف المحمودة ، والمقامات المشهودة ، التى طابت بها أخباره ، وحسنت فيها آثاره ، وكان محمد متخالقاً بخلائقه ، وذاهباً على طرائقه : علماً وديانة ، وورعاً وصيانة ، وعفة وأمانة ، وشهامة وصرامة ، وتفردا بالحظ الجزيل ، من الفضل الجميل ، والأدب الجزل ، والتوجه فى الأهل ، والإيفاء فى المناقب على لذاته وأترابه ، والإبرار على قرنائه وأضرابه ، فقلده ما كان داخلا فى أعمال أبيه من نقابة نقباء الطالبين بمدينة السلام وسائر الأعمال والأمصار ، شرقاً وغرباً ، وبعداً وقرباً ، واختصه بذلك جذباً بضبعه ، وإنافة بقدره ، وقضاء لحق رحمه ، وترفيهاً لأبيه ، وإسعافاً له بإيثاره فيه . . . . »

ونحن نلاحظ أنه لخطر الوظيفة ، فقد عدد الكاتب المؤهلات الكثيرة والميزات البارزة التى جعلت الشريف أهلا لهذه الوظيفة ومستحقاً لها . وفى نفس الوقت لا نستطيع أن نغفل روعة الأسلوب التى صيغت به ، ذلك أن روعته أصيلة فى كاتبه فضلا عن عمده إلى التجويد فيه عمدا لما أشرنا إليه من صلته بالشريف . ويأتى القلقشندى بعدة رسائل أخرى فى نفس الغرض أنشئت فى العصر الذى عاش فيه أو قريبة منه وهى لا تكاد تخرج فى معانيها عن معانى الصابى وإن قصرت عن أسلوبه (١) .

ومن الرسائل الطريفة — وقد أشرنا إلى ذلك قبل قليل — ما كتب فى تعيين رئيس لليهود وهم : الربانيون والقراءون والسامرة ، وقد جرت العادة أن يكون الرئيس من طائفة الربانيين ، غير أنه مطالب بمعاملة الجميع على قدم المساواة (٢) . ويمكن أن تدخل فى عداد الرسائل الطريفة فى هذا

---

(١) صبح الأعشى ١١/١٦٣ وما بعدها .
(٢) المصدر السابق ١١/٣٨٥ وما بعدها .

الصدد أيضاً الرسالة التي يعين بمقتضاها بطرك النصارى اليعاقبة (١) :

هـ — الرسائل الأدبية الاجتماعية : وهي على كثرتها ووفرتها أقل عدداً من الرسائل الديوانية وقد حوت أغراضاً شتى : المألوف التقليدى ، والغريب غير المألوف ، كتبت بأقلام نجوم كتاب العربية ابتداء من عبد الحميد حتى عصر القلقشندى ، فمن الرسائل التقليدية المألوفة موضوعا ، رسائل كتبت فى التهانى (٢) وأخرى فى التعازى (٣) أو فى الاستهداء والملاطفة والاستزادة والتشوق ، والاعتذار ، والشكوى ، والشكر ، والعتاب (٤) إلى غير ذلك من الأغراض التى كانت أصلا موضوعاً للشعر ؛ فلما نبغ فن الكتابة زاحم الشعر فى موضوعاته وأبدع فيها وابتكر .

وهذه الرسائل بلغت من الرقة شأواً بعيداً ، وهى لصفوة ممتازة من أساتذة فن الكتابة مثل : عمرو بن مسعدة ، وكشاجم ، وأبى الفرج الببغاء ، وأبى اسحاق الصابى ، وأبى العيناء ، وابن نباته ، وشهاب الدين الحلبى ، وغيرهم .

ويفرد القلقشندى باباً طريفاً لنوادر التهانى مثل تهنئة الذمى بإسلامه ، والتهنئة بالختان وخروج اللحية ، ويزيد الأمر طرافة حينما يأتى بأمثلة للتهنئة بالمرض أو التهنئة بالعزل من الوظيفة ، أو تهنئة من تزوجت أمه .

ففى مناسبة التهنئة بالمرض يتمثل القلقشندى برسالة لأبى الفرج الببغا يقول فيها (٥) : « فى ذكر الله سيدى بهذا العارض — أماطه الله وصرفه ، وجعل صحة الأبد خلفه — ما دل على ملاحظته إياه بالعناية ، إيقاظاً له من سنة الغفلة ، إذ كان تعالى لا يذكر بطروق الآلام وتنبيه العظات غير الصفوة من عباده ، الخيرة من أوليائه ، فهنأه الله الفوز بأجر ما يعانيه ، وحمل عنه بألطافه ثقل ما هو فيه ، وأعقب ما اختصه من ذخائر المثوبة والأجر بعافية تقتضيه ، ولا سلب الدنيا جمال بقائه ، ولا نقل ظله عن كافة خدمه وأوليائه » .

---

(١) المصدر السابق ١١/٣٩٥ وما بعدها .

(٢) صبح الأعشى ٩/٦ — ٧٣ .

(٣) المصدر السابق ٩/٨٠ .

(٤) نفس المصدر ٩/١٠٠ وما بعدها .

(٥) الصبح ٩/٧٦ .

ويأتى القلقشندى بأكثر من مثال للتهنئة بالعزل من الولاية ، وهى تقوم على حسن التعليل والتلاعب بالمعانى، ومن ثم فإن الكاتب النابه أقدر على تصوير الرسالة الطريفة فى هذا الشأن من غيره من عامة الكتاب، ولذلك فإن، أكثر الأمثلة التى أوردها القلقشندى استعارة من نثر أبى الفرج الببغاء . (١)

أما آخر غرائب التهانى فهى التهنئة بزواج الأم ، ولصعوبة موضوعها ودقته ؛ فإن سيف الدولة الحمدانى عند ما أراد أن يمتحن الببغاء حينما تقدم للعمل فى بلاطه ؛ طلب إليه الكتابة فى هذا المعنى ، ويورد القلقشندى رسالة الببغاء فى هذا السبيل وهى قوله (٢) : « من سلك إليك ــ أعزك الله ــ سبيل الانبساط ، لم يستوعر مسلكا من المخاطبة فيما يحسن الانقباض عن ذكر مثله . واتصل بى ما كان من خبر الواجبة الحق عليك ، المنسوبة بعد نسبتك إليها إليك ــ وفر الله صيانتها ــ فى اختيارها مالولا أن الأنفس تتناكره ، وشرع المروءة يحظره ، لكنت فى مثاه بالرضا أولى ، وبالاعتداد بما جدده الله فى صيانتها أحرى ، فلا يسخطنك من ذلك مارضيه وجوب الشرع ، وحسنه أدب الديانة ، ومباح الله أحق أن يتبع ، وإياك أن تكون ممن لما عدم اختياره تسخط اختيار القدر له ، والسلام » .

ولصعوبة المسألة فقد أحسسنا أن الببغاء رغم نباهة شأنه فى الكتابة بدا وكأنه ينحت فى صخر ، ذلك لأنه أخذ الأمر مأخذ الجد ؛ بحيث بدت الرسالة فى ثوب مواساة وليس فى ثوب تهنئة، ولعله لم يكن قد اطلع على رسالة مماثلة فى نفس الغرض لأديب معاصر له وإن كبره سنا ، هو أبو بكر الخوارزمى الذى كتب رسالة يهنىء فيها مسكويه الأديب الفيلسوف بزواج أمه ، وهى فى غاية من الطرافة والفكاهة ، وقد عمد الكاتب فيها إلى السخرية دون الجد ، فإن مثل تلك المناسبة لاتحتمل الجد ، وإن كان الشرع قد أباح هذا التصرف :

(١) صبح الأعشى ٩/٧٧ ــ ٧٩ .
(٢) المصدر السابق ٩/٧٩ .

على أن القلقشندى لم يكتف بذكر رسالة الببغاء فى هذا السبيل ، بل أتى برسالة فى نفس الغرض للشيخ شهاب الدين الحلبى ، وهى — كرسالة كشاجم — بعيدة عن صيغة التهنئة، وإنما يسوق فيها الكاتب مبررات زواج الأم ويلتمس لذلك الأعذار والمبررات .

ومهما كان الأمر من شأن الحديث عن الرسائل المتضمنة فى صبح الأعشى فهو ثروة أدبية ضخمة هائلة ، وهى بعد ذلك تضع أيدينا على كثير من الحقائق الأدبية والاجتماعية والتاريخية .

إن دارس الأدب والنقد يستطيع لو رتب هذه الرسائل حسب زمانها أن يخرج بدراسة ممتعة عن الفكر والأسلوب الأدبيين . ويكفى أن نجرى مقارنة بين رسالة عبد الحميد فى الزجر والاستصلاح ، ورسالة أبى حفص ابن برد الأندلسى — والمسافة الزمنية بينهما طويلة — لنخرج بنتائج تستحق الوقوف والتأمل طويلا ، أو رسالة الببغاء فى التهنئة بزواج الأم ، ورسالة شهاب الدين الحلبى؛ لننتهى إلى نفس النتيجة .

ومن الناحية الاجتماعية نستطيع أن نرى صورة المجتمع فى الكثير مما كتب فى هذه الرسائل : كمعاملة الأشراف وأهل الذمة، وزواج الأم وتهنئة المريض بمرضه والذمى بإسلامه ، إلى غير ذلك من الصور العديدة التى يمكن استشفافها من مجموعة الرسائل التى هى فى طبيعتها تصوير كامل للبيئة .

وفيما يتعلق بالملوك يمكن أن نتابع التطور فى لقب الخليفة أو الملك ، فبعد أن كان يلقب بأمير المؤمنين فى الصدر الأول وعند بنى أمية ، تطور اللقب وصار مركبا من بضعة صفات قليلة . فإذا نظرنا فى لقب الملك على عهد الدولة التركية وجدناه شيئا يدعو إلى الغرابة ، فقد أحصينا ألقاب الملك الظاهر برقوق فإذا هى ستة وثلاثون لقبا . (١)

ومن الحقائق التاريخية الأدبية أيضا أن ملوك الفرنجة المجاورين للممالك الإسلامية؛ كانوا يتخذون وزراء لديوان رسائلهم من العرب، يكتبون

---

(١) الصبح ٧/٣٧٩ ، ٣٨٠ .

رسائلهم بنفس المستوى الذى تكتب به رسائل دواوين الملوك المسلمين ، وقد أشرنا إلى رسالة ملك الفرنجة التى بعث بها متطاولا إلى يعقوب بن عبد المؤمن أمير المسلمين بالأندلس، لقد كان وزير الملك الأسبانى رجلا عربيا يقال له ابن الفخار ، ومستوى أسلوبه استهلالا وموضوعا ونهاية يسمو إلى مكانة أسا ليب كبار كتاب المسلمين . (١)

وإذا كان هناك ثمة مأخذ على برنامج احتواء الكتاب لهذه الرسائل القيمة ؛ فهى الطريقة التى اتبعها القلقشندى فى ترتيب هذه الرسائل تحت أبوابها ، حينما عرضها حسب كلمات استهلالها وليس حسب موضوعاتها ، ولعل له فى ذلك عذرا نظرا لضخامة عددها .

وبعد ؛ فبالرغم من ذلك فلا زال صبح الأعشى — فى نظرنا — المورد الصافى والمعلم النابه الصامت ، الذى يجلس أمامه فى وقار كل من أراد مزيدا من التأدب أو جديدا من الإمتاع .

قد يكون من التعسف أن نقول إن لصبح الأعشى جانبا أدبيا ، فصبح الأعشى جوانبه كلها أدب رفيع وفكر رصين ، وهو بعد ذلك كله كنز ثمين من كنوز حضارتنا ؛ فكريا وأدبيا وحضاريا .

---

(١) راجع رسالته فى صبح الأعشى ١٦٣/١ .

رقم الإيداع بدار الكتب ٤٥٣١ لسنة ١٩٧٣

(٣٣٠٠/١٩٧٣/٢٧٤٣)

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

الثمن ٨٠ قرشا

مطابع الهيئة المصرية

